

الكاتب المصري

مجلة أدبية شهرية

رئيس التحرير : طه حسين

فهرس

طه حسين	المعذبون في الأرض (قصة)	٤٤٩
محمد صلاح الدين	السياسة والتعليم	٤٦٦
محمد رفعت	مشكلة اسكندرونة	٤٧٤
محمود عزمى	تأميم البنوك في فرنسا	٤٨٢
محمد مهدي الجواهري ..	دجلة في الخريف (قصيدة)	٤٨٦
سهير القلماوى	بين القدماء والمحدثين	٤٨٩
على آدم	أبو الطيب المتنبي	٤٩٧
على النجدي ناصف ...	التعقيد في شعر المتنبي	٥٠٧
وداد سكاكيني	السهولة في شعر المتنبي	٥١٢
وصفي قرنفلى	تاريخ (قصيدة)	٥١٤
محمد عبد الله عنان ...	مصر ومصر المستعمرات الإيطالية	٥١٦
حسن محمود	تأملات في مسرحية روسية	٥٢٢
سليمان حزين	الجامعة العربية	٥٢٩
محمد عثمان الصمدى ...	بين المثالية والطابع البصري (قصيدة)	٥٤٣
بشر فارس	رأى في تدوير التربة في لبنان	٥٤٧
لويس عوض	ت. س. إليوت	٥٥٧
أحمد فكرى	ما شاء الله	٥٦٩
يحيى حنى	صورة (قصة)	٥٧٧
اسكندر أسعد	تمثال الكاتب المصري	٥٨٢

شهرية السياسة الدولية ٥٨٥ ... شهرية المسرح ٥٨٨ ...
من كتب الشرق والغرب ٥٩٥ ... من وراء البحار ٦٠١ ...
ظهر حديثاً ٦٠٦ ... في مجلات الشرق ٦١٥ ...



تصدرها دار الكاتب المصري
شركة ساحة مصر
القاهرة

جائزة الكاتب المصرى للقصة

فى يوم ٣١ يناير سنة ١٩٤٦ ينتهى الأجل المحدد لقبول الاشتراك فى مسابقة القصة وهى التى أنشأت لها دار الكاتب المصرى جائزة قدرها مائة جنيه فضلاً عن التمتع بحقوق المؤلف ، وقد نشرت تفصيلات هذه الجائزة من قبل فى الصحف وفى مجلة الكاتب المصرى ، فننبه القراء الذين يرغبون فى الاشتراك فى هذا الاستباق كى لا يتأخروا عن الموعد المحدد وهو شرط من شروط الجائزة فضلاً عن شروط أخرى .

لدينا مقالات وقصائد لكتاب وشعراء وقد أعلننا عن نشر بعضها ثم اضطررنا لكثرة المواد إلى إرجاء هذا النشر فنعتذر إليهم جميعاً ، وسننشرها فى الأعداد القادمة .

الكتاب المصري



محرم ١٣٦٥

يناير ١٩٤٦

مجلد ١ — عدد ٤

المعذبون في الأرض

[لك الذين يحرقهم الشوق إلى العدل ، وإلى الذين يؤرثهم
الخوف من العدل ، إلى أولئك وهؤلاء جميعاً أسوق هذا الحديث .]

إذا ممعت الشيخ يرفع صوته بالتكبيرة الأخيرة فأنبثني ؛ فإن فعلت ذلك
فأنت ابني حقاً . قال الصبي وهو يبتسم لأمه التي كانت تحدّثه هذا الحديث
وهي تداعب خده : فإن لم أفعل فأين من أكون ؟

هنالك وجمت أم الصبي شيئاً ، وتضاحك من حولها بنوها وبناتها ،
ولكنها لطمت خد الصبي لطمة خفيفة ظريفة وهي تقول : إنك لطويل اللسان
كثير الخصام ، ثم دسّت في يد الصبي قطعة من سكر وأعادت عليه قولها : إذا
ممعت الشيخ يرفع صوته بالتكبيرة الأخيرة فأنبثني ، وإن فعلت ذلك فلك
مثلها قبل أن تنام . قال الصبي وهو يقضم السكر قضمًا : أما الآن فنعم . ثم
الطلق مسرعاً يتبعه ضحك أمه ومن حولها بنوها وبناتها .

وكانت الدار قائمة قاعدة في ذلك المساء ؛ فقد ألمّ بها ضيف لهم خطر ومكانة
في الإقليم ، وهم لم يُقبلوا أصفار الأيدي ، وإنما يحملون من الطُرف والهدايا
شيئاً كثيراً . وكانت سيدة الدار حريصة دائماً على الاحتفاء بالضيف ، مهتمة في
ذلك المساء بالتكبيرة الأخيرة حين يرفع الشيخ بها صوته ليخرج بها من دعائه

بعد صلاة المغرب . فقد كانت أصناف الطعام مهياة تنتظر أن تحمل إلى المائدة حين يفرغ الضيف من صلاتهم مع الشيخ ، وكان الثريد وهو أول هذه الأصناف قد هيئ ، ولكن تهيئته لم تتم بعد ، فقد فت الخبز في طبق كبير ، وأعد المرق وتم إعداد الأرز ، وقُطع الثوم قطعاً توشك أن تشبه الذرات . ولكن إعداد هذا الصنف يجب ألا يتم إلا في اللحظة الأخيرة حتى لا يشرب الخبز كل المرق ولا يذهب ريح الثوم والخل في الجو ، ولا يبرد الأرز فيفسد ما أُلقي عليه من السمن . من أجل هذا كله لم يكن بدّ من أن يتسبّع الصبي لدعاء الشيخ حتى إذا رفع صوته بالتكبيرة الأخيرة أسرع إلى أمه فأنبأها ، وأسرعت هي إلى هذه الاخلاط من الخبز والمرق والثوم والخل والأرز فجُمعتها في هذا الطبق الكبير الذي كان ينتظرها من حين . فإذا استفتح العشاء بهذا الصنف تبعته الأصناف الأخرى على مهل وريث ، فليس في الإبطاء بها بأس ولا جناح . ولكن الصبي لم ينبئ أمه بشيء لأنه لم يسمع شيئاً ، وإنما شغل عن التكبيرة الأولى وعن التكبيرة الأخيرة بأمر ذي بال . وقد فرغ الشيخ وضيفه من صلاتهم وجلسوا يتحدثون ينتظرون أن يحمل إليهم العشاء . وجعل الشيخ يترقب هذا العشاء قلقاً لأنه لم يتعود مثل هذا الإبطاء حين يلمّ به الضيف . وقد همّ غير مرة أن يضرب إحدى يديه بالأخرى ليعلم أهل الدار أن الضيف ينتظرون ، ولكنه استحيا وكره أن يظن به تنبيه أهل الدار ، وأن يظن بأهل الدار غفلة أو إهمال . فمضى في حديثه يرفع به صوته . ومرت من وراء الباب إحدى بناته ، فسمعت الصوت يرتفع بالحديث ، وأسرعت إلى أمها فأنبأها بما لم ينبئها به الصبي ، وما هي إلا لحظة حتى كان الضيف إلى مائدتهم يأكلون ويلغظون .

وقد كان الصبي خالص النية صادق الرأي ، قد اتخذ مرقبه في زاوية من فناء الدار ، هنالك حيث تجتمع قطع من الحديد كان يراها كثره ، وكان يخلو إليها فينفق الساعة والساعات في جمعها وتفريقها وطرق بعضها ببعض ، يجد في ذلك تسلية وهواً ، ينفرد به مرة ويشارك فيه أخته الصغيرة مرة أخرى . وقد جلس في زاويته تلك أمام حديدته ذاك ، واعتزم إذا أتم التهام قطعة السكر أن يقبل إلى قطع الحديد فيعبت بها في رفق مانحاً الشيخ وضيفه إحدى أذنيه ، مستمعاً متتبعاً لصلاتهم ، حتى إذا سمع التكبيرة الأخيرة يرتفع بها صوت الشيخ النسل إلى أمه فأتى إليها النبأ ثم عاد إلى لعبه فمضى فيه .

ولكنه لم يكد يستقر في زاويته ويمضي في قضم سكره حتى أحس يدأ تمس كتفه ، ونظر فإذا رفيقه صالح مائل أمامه يداعب كتفه بإحدى يديه ويقبض بيده الأخرى على طاقة من زهر الحقول يقدّمها إليه باسماً . وقد نظر الصبي إلى صالح فراعته ثوبه الممزق قد ظهر منه صدره أكثر مما ينبغي وقد انشق عن كتفيه فظهرتا منه غليظتين نابيتين ، والثوب على ذلك رث قدّر يظهر من جسم الصبي أكثر مما يخفى ، كأنه أسمال قد وُصل بعضها ببعض وصلاً ما ، وعلقت على هذا الجسم الضئيل الناحل تعليقاً ما ، لتستر منه ما تستطيع وليقال إن صاحبه لا يمضي به متجرباً عريان . ثم رفع الصبي رأسه إلى وجه صالح فرأى بؤساً شاحباً يشيع فيه ، ورأى ابتسامة فيها كثير من حزن وكثير من أمل ، ورأى عينين تدوران تنظرات إلى ما حولهما ، تنخفضان حيناً إلى هذا الحديد الملقى على الأرض ، وترتفعان حيناً إلى قطعة السكر في يد رفيقه ، وترتفعان بعد ذلك إلى عناقيد السكرم هذه التي تتدلى على الجدران وتمتد على هذه العيدان التي نصبت لتحملها .

والصبي على ذلك كله باسط يده إلى رفيقه بهذه الطاقة الساخنة الخشنة من زهر الحقول يقول له : لم أرد أن أعود إلى دارنا دون أن أمرّ بك وأحمل إليك هذه الآكام التي لم تفتح بعد ، خذها إليك وضعها في إناء فيه شيء من ماء وانتظر بها الصبح ، ثم أقبل عليها فستراها متفتحة عن زهر جميل طيب الرائحة . لم يقل الصبي لصالح شيئاً وإنما أخذ منه زهراته وأعطاه ما بقي في يده من قطعة السكر ، وأشار إليه أن يجلس ويلعب معه بقطع الحديد . وقد أخذ صالح قطعة السكر فأطال النظر إليها والتحديث فيها وقرّبها من فمه ثم أبعدا عنه ، ثم نظر إليها نظرة قصيرة ، ثم دسها في فمه بين خده وأضراسه واستأنى بها لتذوب في رفق وليطول استمتاعه بذوقها الحلو . ثم جلس وأخذ يقلّب مع رفيقه قطع الحديد . ثم لم يطل صمت الرفيقين ، وإنما استأنفا حديثهما عن الكتاب وعن الرقاق وعن الحقل وعن أهل القرية . وأنسى الصبي بهذا كله صلاة الشيخ والضيف والنبا الذي كان يجب أن يحمله إلى أمه ، ولم يرعه بعد وقت طويل أو قصير إلا صوت أخته تدعوه من وراء الباب إلى العشاء .

وقد فرغ الشيخ وأصحابه من طعامهم وفرغوا كذلك من الصلاة الآخرة وما يتبعها من دعاء ، ودارت عليهم قهوة الليل . وجمعت ربة الدار الصغار من

بنيها وبناتها إلى طعامهم وافترقت صاحبا ذاك المهذار فأرسلت أخته تلتسه في مظانه .

ولما سمع صوت أخته تدعوه أبطأ في الاستجابة لها ، لأنه لم يكن يدرى كيف يخلص من رفيقه أو لم يكن يحب أن يخلص من رفيقه . ولكن صالحاً قال له في صوت خافت حزين : أحب ، إنك تدعى إلى العشاء . قال الصبي لصالح : وأنت هل تعشيت ؟ قال صالح : سأتعشى حين أبلغ الدار ، ونهض متثاقلاً وأدبر يريد أن يخرج ، ولو استطاع لأقام ، ولكنه مضى . وعاد الصبي إلى أمه وفي يده تلك الزهرات . فلما رآته أنكرت نسيانه لما أمرته به ، ولكنها سألته عن هذه الزهرات من حملهن إليه ، قال الصبي وفي صوته اختلاجة خفيفة : حملهن إلى صالح ابن الحاج علي . قالت أمه : ولم تعطه شيئاً ؟ قال الصبي : أعطيته ما بقي لي من قطعة السكر . قالت أمه : وما تراه يصنع بقطعة السكر ؟ أتراه يدفع بها عن نفسه الجوع ، ألم تستبقه للعشاء ؟ قال الصبي مضطرباً : هممت ولكنني لم أجد . قالت أمه : فامض في أثره مسرعاً حتى تعود به وحتى تتعشى معه . وانطلق الصبي كأنه السهم . ولم يكد يجاوز باب الدار حتى رفع صوته بدعاء صاحبه ، ولكنه لم يحتاج إلى أن يعد ولا إلى أن يكرر الدعاء ، فقد كان صالح قائماً أمام الدار قد استند إلى الحائط ومد بصره أمامه وقدم إحدى رجليه وأخر الأخرى يريد أن يمضي وتنازعه نفسه إلى البقاء . فلما سمع صوت رفيقه أجاب مستخدماً : هانذا ، ماذا تريد ؟ قال الصبي : أريد أن تبقى لتتعشى معاً . ولم يقل صالح شيئاً ، وإنما تحول إلى رفيقه وسعى في أثره هادئاً مطمئناً كأنه الكلب يتبع صاحبه إذا دعاه .

ولم يكد الصبي يغلّق الباب من دونه حتى رأى إحدى أخواته قد وضعت في زاويته تلك كرسيّاً مستديراً وعليه صينية مستديرة مثله ، وقد كثرت على هذه الصينية الأطباق فيها من كل أصناف الطعام التي قدّمت للضيف . وأبت أخت الصبي أن تشارك الأسرة في عشاؤها وآثرت أن تقوم على خدمة هذين الرفيقين ، حتى إذا فرغا من طعامهما مضى صالح موفوراً وعاد الصبي إلى أمه راضياً . فقالت له وهي تمسح رأسه : إذا زارك رفيقك لك في وقت العشاء فلا ينبغي أن تدعه ينصرف دون أن تدعوه إلى مشاركتك في الطعام . ثم قالت له بعد صمت قصير : هل تعلم أن صالحاً إنما حل إليك هذه الزهرات ليتعشى ؟ قال الصبي : لا أعلم . قالت أمه : لقد رأى الأضياف حين أقبلوا ، ورأى ما حملوا

من الطرف والمدايا ، وعلم أن سيكون في الدار خير كثير هذا المساء ، فأراد أن يصيب منه شيئاً ، واتخذ أزهاره هذه تعلقاً بها في الدار ليفقدتها إليها . قال الصبي : لو رأيت ثوبه وقد بدا منه صدره وظهره وكتفاه ! قالت أمه : إذا خرجت من الكتاب غداً فأحمله على أن يصحبك فإن عندي من ثيابك ما يكسوه .

ثم انصرفت إلى بناتها وبناتها تحدثهم عن الضيف وعن العشاء ، تلوم هذه لأنها أنسيت أن تحرك الأرض حين ألقت في الماء وهو يضطرب من الغليان ، وأوشك هذا اللون من ألوان الطعام أن يفسد ويصبح عجينة متماسكة لا تصلح لشيء ، ومن حق الأرض ألا يلتئم ولا يتماسك وأن تتفرق جباة وتمتاز . وتثني على تلك لأنها رفقت بالقاذور فلم تتركه سائلاً تفيض به الملاعق كأنه الحساء ، ولم تجعله جامداً تقطعه الملاعق قطعاً ، ولم تهمل تحريكه حتى تتخلله تلك العقد البغيضة التي لا تجعله سائلاً ولا يسيراً ، وإنما صنعتها سواء سهلاً لا يبلغ الأفواه حتى تدعوه الخلق ، وهو فيما بين ذلك خفيف حلو المذاق . وإنما لتحدث إلى بناتها هذه الأحاديث التي كانت تعلمهن بها فنون الطهي والتي كان أبناؤها يسمعون لها فيغرقون في ضحك متصل ، وإذا الصبي يقطع عليها حديثها ويسألها ما بال صالح لم يتعش في داره ؟ أجابت أمه : ألم أقل لك إنه أحسن أن سيكون عندنا خير كثير فأراد أن يصيب منه ! قال الصبي : فإني أرى الأضياف يلبسون بجارنا كما يلبسون بنا ، وأعرف أن عند جارنا خيراً كثيراً فلا أسعى إلى أترابي من أبنائه ولا أحاول أن أصيب مما عندهم . قالت : لأنك لست في حاجة إلى ذلك فلست محروماً . قال الصبي : فصالح محروم إذا ؟ قالت أمه متضحكة ، وقد أخذ إخوته من حوله يضيقون بلجاجته وإلحاحه قالت أمه : لأن أباك ميسر عليه في الرزق ، وقد قتر في الرزق على أبي صالح . قال الصبي : ولماذا ؟ قالت أمه : إنك لمكثار ، ثم التفتت إلى كبرى بناتها وهي تقول خذيه إلى مضجعه فقد تقدم الليل وآذن له أن ينام .

وأصبح الصبي فغداً على كتابه كما تعود أن يفعل خمسة أيام في الأسبوع . وقد يحظر للقارئ أن يسألني عن هذا الصبي ما اسمه ؟ وما موطنه ؟ وما بيئته ؟ وما أسرته ؟ ومن عسى أن يكون ؟ ولكنني أجيب القارئ إن خطرت له هذه

الأسئلة كما كان الكاتب الفرنسي « ديدرو » يجيب قراءه حين يخيل إليه أنهم يسألونه أو يهتمون أن يسألوه عن بعض الأمر من قصصه ، أجيب القارئ بأنه يسرف على نفسه وعلى هذه الأسئلة التي قد يكون الرد عليها مقيداً لتكون القصة متسقة حسنة البناء ملتزمة الأجزاء ، يأخذ بعضها برقاب بعض كما كان النقاد القدماء يقولون . ولكني لا أحاول أن أضع قصة فأخضعها لما ينبغي أن تخضع له القصة من أصول الفن كما رسمها كبار النقاد ؛ فقد يجب لتستقيم القصة أن يحدد الزمان والمكان وتستبين شخصية الناس الذين تحدث لهم الحوادث أو الذين يحدثون هذه الحوادث ، والذين تعرض لهم الخطوب أو الذين يتكرون هذه الخطوب . لا أضع قصة فأخضعها لأصول الفن . ولو كنت أضع قصة لما التزمت إخضاعها لهذه الأصول ؛ لأنني لا أؤمن بها ولا أذعن لها ولا أعترف بأن للنقاد مهما يكونوا أن يرمموا إلى القواعد والقوانين مهما تكن ، ولا أقبل من القارئ مهما ترتفع منزلته أن يدخل بيني وبين ما أحب أن أسوق من الحديث ، وإنما هو كلام يخطر لي فأمليه ثم أذيعه ، فمن شاء أن يقرأه فليقرأه ، ومن ضاق بقراءته فليصرف عنه ، ومن شاء أن يرضى عنه بعد القراءة فليرض مشكوراً ، ومن شاء أن يسخط عليه بعد القراءة فليسخط مشكوراً أيضاً . والمهم هو أن يخطر لي الكلام وأن أمله وأن أذيعه ، وأن يجحد القارئ ما يشعره بأن له إرادة حرة تستطيع أن تغريه بالقراءة وتستطيع أن تصده عنها ، وأن يشعر القارئ أيضاً بأن له ذوقاً صافياً يستطيع أن يعرف في الأدب وأن يتكره ، وأن يقبل من الأدب وأن يرفض ، وليس هذا كله بالشئ القليل . وما أحب أن يظن القارئ أنني أتحمك فيه أو أتجنى عليه ؛ فأنا أبعد الناس عن التحكم وأزهد في التجنى ، وأشهد للقارئ حباً وإكباراً ، ولكني لا أحب أن يتحكم القارئ في ولا أن يتجنى عليّ ، ولا أن يخضعني لذوقه ، كما لا أحب أن أخضعه لذوقي . ويجب أن تكون الحرية هي الأساس الصحيح للصلة بين القارئ وبينني حين أكتب أنا ، ويقرأ هو . ولو أنني استجبت لهذه الأسئلة فبينت موطن الصبي وبيئته وعرفت أسرته إلى القراءة لطلال في الحديث أكثر مما أحب أن يطول . وليس في الحديث صبي واحد ، بل فيه إلى الآن صبيان ، أحدهما صالح هذا الذي يتخذ زهرات الحقول وسيلة إلى عشاء يصيبه ، والآخر هو هذا الصبي الذي وجد عنده صالح هذا العشاء . ولا كن منصفاً ، فقد يكون من

حق القارىء أن أسمى له هذا الصبي الثاني ما دمت قد سميت له الصبي الأول ليكون الأمر ميسراً له فلا يضطرب بين صبي يعرف اسمه واسم أبيه وصبي آخر لا يعرف من أمره شيئاً . والواقع أني حين أخذت في إملاء هذا الحديث لم أكن أعرف لهذا الصبي الثاني اسماً ، وما زلت أجهل اسمه إلى الآن . فلم يكن شخص هذا الصبي ولم يكن شخص صالح يعينني ، وإنما كانت الأحداث التي حدثت للصبيين هي التي تعينني . وأكبر الظن أن صالحاً هذا لم يوجد قط ، لأنه يملأ المملكة المصرية من شرقها إلى غربها ومن شمالها إلى جنوبها ، يوجد في القرى ويوجد في المدن ويوجد في كل مكان ، يملأ مصر نعمة وخيراً ، يُشعر الناس بأن مصر هي بلد البؤس والشقاء . وأنا أزعم أن قارئ هذا الحديث مهما يكن لا يستطيع أن يقضي يوماً من دهره أو ساعة من يومه دون أن يرى صالحاً هذا الذي لا يجد ما ينفق ، والذي يود أن تتاح له الوسيلة ليجد الغذاء أو العشاء ، عند رفيقه ذاك الصبي الذي لم نجد له اسماً إلى الآن . فلنتفق على أن اسمه « أمين » ، وعلى أنه كان يختلف إلى الكتاب مع قليل جداً من أمثاله الذين يعيشون في شيء من اليسر ، وكثير جداً من أتباعه الذين يستظلون بهذا الظل الوارف الجليل ظل البؤس والشقاء والحرمان وابتغاء الوسيلة للظفر بما يقيم الأود عند هذا الرفيق أو ذاك .

لم يوجد صالح قط لأنه يملأ المملكة المصرية . وإذا أسرف الشيء في الوجود فهو غير موجود ، سواء أَرْضِيَت الفلسفة عن هذا الكلام أم لم ترض . أما أمين فوجود من غير شك ، لأننا نراه ولا نكاد نرى غيره لأنه عظيم الخطر ، فهو هذا الصبي الذي لا ينام جائعاً إذا أقبل الليل ، ولا يغدو طاوياً على المدرسة أو على الكتاب ، ولا يطول انتظاره للغداء إذا آن وقت الغذاء ، ولا ينبغي أن يطول انتظاره للعشاء إذا أقبل الليل ، لأن من حقه أن يتناول الطعام في إبانته ، وأن يأخذ بقسطه من النوم حتى لا تتعرض صحته العالية لبعض ما يؤذيها . هذا الصبي أو هذا الفتى الذي اتفقنا على أن اسمه « أمين » موجود من غير شك ، لأنه لا يملأ القرى ولا يملأ المدن ، وإنما هو شخص ممتاز يمكن أن يُخصَى أمثاله وأتباعه إحصاء دقيقاً في كل قرية وفي كل مدينة . وهو من أجل ذلك موجود لأن عدده محدود ، ولأننا نستطيع إحصاءه واستقصاءه والدلالة عليه . وهنا يرتفع رأس القارئ وقد ظهرت على وجهه ابتسامة ساخرة وبرقت

عيناه بريق الانتصار والفوز وهو يسألني في صوت فاطر ساخر : لقد أردت أن تتجنب الإطالة بالإجابة على أسئلتنا ، فهل أنت إلا ممعن في الإطالة بهذا الكلام الكثير الذي لا يغني ولا يفيد ! معذرة يا سيدي القاري الكريم ! بل إن هذا الكلام الكثير يغني كل الغناء ويفيد كل الفائدة . فانت تلقي في كل يوم ألف صالح وصالح دون أن تحس لواحد منهم خطراً أو تعرف له وجوداً ؛ قد كثرت لقاءك لهم واتصلت معاشرتكم أيام حتى أصبحت الحياة بينهم شيئاً يسيراً مألوفاً لا يحفل به ولا يلتفت إليه ، وحتى أصبحت معاشرة البؤس والشقاء والحرمان شيئاً تطمئن إليه كما تطمئن إلى الصحة والعافية ، ولا تلتفت إليه كما أنك لا تلتفت إلى الهواء الذي تننفسه والنور الذي تهتدي به . وترى أميناً أو آمينين أو أمناء بين حين وحين فيملاً كل واحد منهم قلبك وعقلك ويشغل همك وعنايتك . فأيهما خير أن ألفتك إلى صالح هذا البائس المسكين الذي ملأ مصر نعمة وخيراً ، وملأت مصر حياته شقاء وبؤساً ، أم أن أحدثك عن أمين وموطنه وبيئته وأسرته لتستقيم القصة وتستوى رائعة بارعة ملائمة لأصول الفن التي رسمها النقاد ؟ أما أنا فأوثر أن أتحدث إلى قلبك وما يضطرب فيه من عاطفة وما يشيع فيه من شعور على أن أتحدث إلى عقلك وذوقك وما يثيران في نفسك من تهالك على النقد وجب للاستطلاع .

أوثر أن أتحدث إلى قلبك وأن ألفتك إلى صالح هذا الذي وُجِدَ وأسرف في الوجود ، حتى اعتقدنا أوكدنا نعتقد أنه غير موجود . ومن يدرى ! لعل حين ألفتك إلى صالح إنما ألفتك إلى نفسك . وما أحب أن تغضب ولا أن تثور ؛ فما أردت ، وما ينبغي أن أريد إلى إيذائك أو التعريض بأنك قد اتخذت في يوم من الأيام زهرات الحقول وسيلة إلى خير تصييه كما فعل صالح ، وإنما أردت أن أقول إن في حياة كل واحد منا نحن كثرة المصريين شيئاً من صالح ؛ فصالح صورة البؤس والشقاء والحرمان . وما أقل المصريين الذين لا يصورون بؤساً ولا شقاء ولا حرماناً ؛ وليس البؤس مقصوراً على هذه الصفة التي تأتي من الفقر وما يستتبعه الفقر من الجوع الذي يمزق البطون والإعدام الذي يمزق الثياب ويظهر من ثناياه الصدور والظهور والاكثاف ، ولكن البؤس قد يتصل بأشياء أخرى ليست جوعاً ولا إعداماً ولكنها قد تكون شراً من الجوع والإعدام ، لأنها تتصل بالنفوس والقلوب . وإني لأعرف قوماً كثيرين

تمتلي يديهم بالمال ويعظم حظهم من الثراء حتى يضيّقوا به ، وهم مع ذلك يجدون نوساً أي بؤساً وشقاءً أي شقاءً ، ويتخذون زهرات الحقل أو هذا الزهر لدى تصنفه أبدى الحسن تصنيفاً في الحواضر والمدن وسيلة إلى شيء يصبونه عند من قد يكونون أقل منهم غنى وأضيق منهم ثراء .



مهم بكس من شيء فقد غدا الصبي الذي اتفقنا على أن اسمه «مين» على كتابه كما تعود أن يفعل إذا كان الصباح ، فلقى أترابه وشاركهم في الجد والهزل وفي لدرس واللعب . حاول أن يحفظ حصته من القرآن فأنصرف عن هذا الحفظ إلى مداعبة اللغات والازراب . وكان قد أنسى قصة صالح ولم يذكر إلا أنه سيعود معه آخر النهار إلى الدار ، ولكنه اضطر حين تقدم النهار إلى أن يذكر صالحاً في كثير جداً من القلق والخوف ، ثم في كثير جداً من الجزع والهلع ، ثم في كثير جداً من الألم والحزن . فقد «سمع» سيدنا الضير يسأل عريفه البصير : هل تفقدت الاختتام ؟ قال العريف : نعم . قال سيدنا : وهل سلمت لك كلها ؟ قال العريف : نعم إلا اختتم صالح ابن الحاج علي فإنه قد ضاع ، وما أشد حاجة هذا لفتي إلى التأديب فإنه لا يطيع أمراً ولا يسمع كلاماً ولا يخرج من الكتاب مع العصر إلا لينغمس في الماء .

وهنا يسأل القارئ — وما أكثر ما يسألني القراء كما كانوا يسألون ذلك الكاتب الفرنسي الذي ذكرته آنفاً — هنا يسأل القارئ عن هذه الاختتام ما هي ؟ وماذا يمكن أن تكون ؟ ولا بد من أن أجيبهم ؛ فأكثرهم من أبناء هذا الجيل الذين لم يذهبوا إلى الكتاب ولم يعرفوا قصة الاختتام والماء ، وقليل منهم قد بعد عهده بالكتاب وما كان يحدث فيه من الخطوب . كانت قصة الاختتام هذه تمثل في الكتاب كل عام حين يقدم الصيف ويشد القيظ ويجب الصبية والفتيان أن يتبردوا بماء النهر أو بماء القناة إذا خرجوا من الكتاب مع العصر أو إذا ذهبوا إلى دورهم للغداء . وكانوا يسرعون إلى نسيان القيظ والتبرد متى انغمسوا في الماء ، وينصرفون إلى اللعب والسباحة والاستباق في الغيوم . وكانت الأسر تشفق عليهم من ماء النهر ومن ماء القناة ، وتطلب إلى «سيدنا» أن يتخذ ما يرى من وسائل التأديب والتقويم ليصدم عن هذه الرياضة

الخطرة . وسيدنا قد اتخذ قطعة مستديرة من الخشب واحترق فيها شيئاً لا أدري ما هو . فإذا كاد الضحى يرتفع قبل العريف بهذه القطعة من الخشب التي كانت تسمى الختم وعمسها في مادة حمراء وختم بها أخذ الصبية والفتيان الذين كان يظن بهم حب الرياضة في ماء النهر أو في ماء القناة . وكان زوال الآية التي يتركها الخاتم في نغذ الصبي أو الفتى دليلاً على أنه قد خالف الأمر وقارف هذا الإثم العظيم . فلم يكن بدّاً من تفقد هذه الاختام في كل يوم وتجديدها إذا محو طول الوقت ، وعقاب الصبي أو الفتى إذا محيت آية الختم على نغذه قبل الأوان . ولست أدري أيعرف القارئ أو لا يعرف أن العريف في الكتاب قد كان رمز الرشوة والفساد ، كما أن « سيدنا » قد كان رمز السذاجة والقسوة . ولكن المحقق أن الصبية والفتيان كانوا يقترفون إثمهم هذا العظيم في غير اكتراث ، ولا يكادون يخرجون من الكتاب حتى يسرعوا إلى الماء ويلقوا أنفسهم فيه وكانوا يشترون كذب العريف ورضاه بما يقدمون إليه من هذه الطرف ليسيرة التي يحملونها من بيوتهم يسرقونها للعريف أحياناً ويصرفونها عن أنفسهم إليه دائماً . ولم يكن صالح يحمل طرفاً يسيرة ولا خطيرة لنفسه أو للعريف . وقد طال على العريف إبطاء صالح عليه بالرشوة . ولم يسأل نفسه « كان هذا الإثم ، عن عجز أم كان عن عمد ومكر . فأراد أن يؤديه ففشى أمره لسيدنا ، ولو أتر الصدق لما حص صالحاً بهذه الوشاية . وكان أمين يعلم هذا حق العلم كما كان يعرفه غيره من أترابه . ولأمر ما امتلأ قلبه خجاء حباً لصالح وعطفاً عليه ورحمة له ، فلم يكذب يسمع العريف البصير يغري به سيدنا الضريد حتى صاح بأعلى صوته : إن العريف لم يقل لك الحق كله ؛ فليس صالح وحده هو الذي فقد ختمه ، وبم فقدته الأتراب جميعاً لأنهم يذهبون جميعاً إلى النهر أو إلى القناة ، ولكم يرشون العريف بما يحملون إليه من طرف ، فأما صالح فلا يحمل إليه شيئاً . وكانت النتيجة الطبيعية لهذه الشجاعة أن أدبرت « الفلقة » على ساق صالح وعمل السوط في رجله حتى دميتا ، ثم أدبرت « الفلقة » على ساق أمين ومن السوط رجله مساً خفيفاً لم يدمهما ولكنه علم أميناً أن الشجاعة والصراحة وقول الحق خصال لا تحسن في جميع المواطن . . . ولو وقف الأمر عند هذا الحد هانت المحنة وسهل احتمالها ، ولكن الأتراب والرفاق أعرضوا عن صالح وأمير واتخذوها عدوياً ، وحملوا يكيدون لها ويمكرون بها ويذيقونها .

"مبث فنوءاً ونوآناً . وقد عاد صالح مع أمين إلى داره لا يكاد يحسن المشي على رجليه ، ولكنه وجد عند رفيقه تسليية وتعزية . ولم تكده أم أمين ترى هذا البأس المسكين حتى رحمته ورقته له وآثرته ببعض الخير ، ثم هدت إليه ثوباً من ثياب ابنها ، لم يكده صالح يراد حتى أحس خنونه وخرج عن طوره من فرح ، ونسى « الفلقة » التي دارت على ساقيه والسوط لدى مزق قدميه ، وأقسم ليسرع إلى الماء وليغمس نفسه فيه ، وليضعين آية الختم الجديد ، وليعرضن وشاية العريف ، وغضب سيدنا ، فما ينبغي أن يلبس هذا الثوب الجليل دون أن يستحجم ويزيل من جسمه آثار ذلك الثوب البالي القذر . قالت له أم أمين لا بأس عليك ، فساطلب من سيدنا أن يعفيك من الفلقة والسوط غداً . ونصرف الصبي فرحاً مرحاً محبوباً . وقال أمين لأمه ألا تنسيني الآن لماذا ضرب سيدنا صالحاً ضرباً مبرحاً حتى أدمى رجليه ولم يضربني أنا إلا عابثاً؟ قالت : لأن صالحاً أضيع الختم وخالف الأمر وانغمس في الماء فكان ذنبه عظيماً يستحق عقاباً عظيماً . فما أنت فقد خرجت عن حدود اللياقة حين قلت أمام أربابك ما قلت في العريف ، فكنت حليفاً ن تلقى عقاباً يسيراً . قال الصبي : وأنا مع ذلك لم أقل إلا الحق ! قالت أمه وهي تضحك : فإن الحق لا يقال في جميع المواطن . قال الصبي : وكيف السبيل لي أن أعرف المواطن التي يقال فيها الحق والمواطن التي يقال فيها الباطل ؟ قالت أمه وهي تضحك : ستعرف هذا كله إذا تقدمت بك الس ، فأما الآن فانصرف إلى حديدك هذا الذي جمعت في راويتك تلك والعيب به ، ونحدث إليه حتى ندعي للعشاء .

وذهب أمين إلى حديده فلعبه ونحدث إليه ، وأحدث من الضجيج والهمج ما شاء الله أن يحدث ، ولكنه انصرف عن حديده وزاويته وسعى إلى أمه يسألها : ما بال صالح لا يحمل إلى العريف مثل ما يحمل إليه غيره من الشرف والهدايا ؟ قالت أمه : لأن صالحاً فقير معدم لا يجد ما يقوت به نفسه فصلا عن أن يجد ما يهدي إلى العريف . قال أمين : ولماذا كان صالح فقيراً معدماً لا يجد ما يقوت به نفسه وما يدفع به شر العريف ؟ قالت أمه وقد أخذت نصيح بالخاصة : لقد عدت إلى ثروتك قامض لشأنك ولا تثقل على . ولكن الصبي لم يعمش لشأنه وإنما مضى في الإقبال على أمه ، فلم تتخلص منه إلا حين نهزت له الغضب وأنذرت إنداراً كاد يسكي له ، ثم رحمته فوضعت في يده قطعة

من النقد وهي تقول : اذهب فاشتر بهذا شيئاً من الحلوى . قال الصبي مبتهجاً : سأشترى بنصفه شيئاً من الحلوى وسأدفع لنصفه الآخر إلى صالح ليؤديه لي العريف إذا كان الغد . ثم انصرف يعدو وقد ارتفع صوته بالغناء .

ولكن أميناً لم يدفع نصف القرش إلى صالح ، لأن صالحاً لم يذهب إلى الكتاب من غده . وقد وقع في نفس الصبي شيء من الغيظ ثم من الحزن حين التمس رفيقه فلم يجده ، وحين انتظر مقدمه فلم يقبل حتى ارتفع الضحى ، وحين استيقن أن صالحاً لن يلم بالكتاب من يومه ، ثم لم يلبث أن تسلى عن صالح وغيبته بمداعبة الرفاق والآثاب . ثم لم يكد يفرغ من غداؤه بين سيدنا الضرب وعريفه البصير حتى خرج ليشهد صلاة الظهر فيما زعم ، ولكنه اشترى بنصف القرش بعض هذا السخف الذي يحبه الصبية وعبث مع أثابه حول المسجد ، وعاد معهم إلى الكتاب وما يشك سيدنا وما يشك العريف في أنه قد شهد الصلاة .

وانقطع صالح عن الكتاب يوماً ويوماً ، ثم قبل عليه ذات صباح كثيباً محزوناً لا يكاد قد يستقيم من الضعف . ونظر أمين فإذا هو في ثوبه ذلك البالي القدر . وقد تلقى أمين رفيقه مبتسماً له حفيماً به مستنبئاً عن غيبته تلك التي طالت . وهم صالح أن يجيب ولكن صوته احتبس في حلقه وجرت على خديه دموع منسجمة غزار ، فهت أمين لأنه لم يعرف البكاء الصامت قط ، ولم يقدر أن الصبية يمكن أن يبكوا دون أن يحسهم سوط سيدنا أو دون أن يعنف بهم الآباء والأمهات ليؤدبهم بالأيدي حيناً وبالكلام أحياناً . ثم استبان لأمين من أمر رفيقه ما ملأ قلبه حزناً ودفعه إلى كثير من الحيرة والشك والاضطراب . فقد كان الثوب الذي أهده أمه إلى رفيقه مصدر شقاء عظيم وضر ملح لهذا الرفيق البائس . خرج صالح بثوبه الجديد مسروراً محبوراً تكاد ساقاه تسبقان الريح عدواً ، ويكاد صوته المرتفع بالغناء يسكت الطير التي كانت ترقص على أغصان التوت وتنتشر في الجو ألحانها العذاب . وانغمس في القناة كأحسن ما تعلم أن ينغمس ، وعام في القناة كأحسن ما تعود أن يعوم ، فبذ الآثاب وتفوق على الرفاق ، وخرج من القناة فرحاً مرحاً مبتهجاً مغتبطاً ، قد امتلأت نفسه رضاء وامتلاً قلبه سعادة ، وفاض من نفسه الراضية وقلبه السعيد على جسمه حمل

عريب لفت إليه أصحابه وأترابه ، وقال بعضهم لبعض : ما رأينا صالحاً كما نراه اليوم ، حسن المنظر رائع الطلعة قد امتلأ قوة وحياء ونشاطاً . ثم دخل في ثوبه الجديد وكاد السرور أن يدفعه إلى شيء من الغرور ، ولكن الحياء صطره إلى بعض القصد وأمسكه في بعض الاعتدال ، فرضى عن نفسه في دخيلة ضميره ، وارتفعت إليه أبصار أصحابه بألوان من الغبطة والحسد ومن العطف والبغض .

وعاد مع مغرب الشمس إلى داره يكاد يخطر في ثوبه الجديد ، وقد ضوى ثوبه البالي القذر وحمله بين ذراعه وجنبه متأذياً متكرهاً لاحتاله ، ولو استطاع لتركه في بعض الطريق ، ولكنه كان أذكي من ذلك قلباً وأصدق من ذلك فطنة ، فاحتمل ثوبه ذلك البالي إلى امرأة أبيه لعلها تستطيع أن تصنع منه شيئاً .

وما أشك في أن القاري سيقف عند هذا الموضوع من الحديث ، وسيسأل نفسه ولو استطاع لسألتني أنا : ألم يكن من الخير أن نعرف من أول القصة أن صالحاً قد فقد أمه وأنه كان يعيش يتيمًا ينعم بما يحتلس من حب أبيه سرّاً ويشقى جهرة بما ينصب عليه من بغض هذه الضرة التي قامت مقام أمه في البيت ؟

ولست أشك في أن القاري سيضيف إلى هذا السؤال ملاحظة فيها شيء من قسوة والسخرية والغیظ ، فيقول في نفسه : لو أن الكاتب سلك في قصته طرق الممهدة والسبل المعبدة التي رسمها النقاد للقصة لعرّف إلينا صالحاً في أول حديثه ولأنبأنا بموت أمه وتزوج أبيه ، ولأعفانا من هذه المفاجأة التي لم نكن في حاجة إليها . ولكنني أعيد على القاري ما قلته آنفاً من أني لا أضع قصة ، وإنما أسوق حديثاً ، وأضيف إلى ذلك أن الذين يسوقون الأحاديث لا يقدمون بين يديها هذه المقدمات التي يبينون فيها الموطن والبيئة والأمر والزمان والمكان إلى آخر هذا الكلام الكثير الفارغ الذي يلهج به النقاد . ولو أني بدأت هذا الحديث برسم واضح دقيق لشخصية صالح وأمين ومن يتصل بصالح وأمين من الناس ، لضاق القراء بهذه المقدمات أشد الضيق ، ولقال بعضهم : تجاوز حدّ حديث الطوفان ووصل إلى غايته فلستنا من الغباء والغفلة بحيث نحتاج إلى كل هذا التمهيد .

وبعد فمن أنبأ القاري أن صالحاً يتيم وبأن أمه قد ماتت ؟ الشيء

الذي لا شك فيه ولا ينبغي أن يشك فيه القارىء هو أن صالحاً لم يكن يني ، وأن أمه لم تكن ميتة ، وإنما كانت حية أكثر مما ينبغي أن يحيا الناس ، إن صح أن تكثر الحياة وتقل . وسوء رضى القارىء أم لم يرض فقد كانت أم صالح حية من غير شك لأنى أنا أريد ذلك ، وليس يعيننى ما يريد غيرى من الناس ، فأنا الذى اخترع صالحاً من لاشئ ، أو أخذ صالحاً من عرض الطريق لأن صالحاً موجود ولأنه غير موجود . موجود فى حقيقة الأمر ، لأننا نراه فى كل ساعة وفى كل مكان ، وغير موجود فى حقيقة الأمر أيضاً لأنه يملأ المدن والقرى ويسرف على نفسه وعلى الناس فى الوجود ، والشئ إذا زاد عن حده انقلب إلى ضده ، كما يقال . فأنا إذا وحدى - كما كان يقال أيضاً - أعرف من أمر صالح ما لا يعرف غيرى من الناس ، وأقرر أن أمه لم تترك الدار لأنها ماتت ، وإنما ركت الدار لأنها طلقت . وأنا أستطيع أن أصنع دأمة بعد هذا الطلاق ما أشاء : أستطيع أن ادعها مطلقة تعمل خادماً فى بعض الدور ، وأستطيع أن أجدها زوجة تعيش معه سعيدة موفورة ، وأستطيع أن أسخرها لعمل من هذه الأعمال لى يعيش معها أمثالها من البائسات ، فقد أسخرها لبيع الخضر ، وقد أسخرها لبيع الفاكهة ، وقد أكلفها أن تصنع الخبز فى بيوت الأغنياء وأوساط الناس ، وقد أكلفها أن تغسل الثياب فى هذه البيوت ، وقد أجدها ما أشاء من الأعمال سر هذا كله ؛ لأنى حر فيما أحب أن أسوق إلى القارىء من حديث ، ولأن القارىء يضطر إلى أن يتلقى حديثي كما أسوقه إليه ، ثم هو حر بعد ذلك فى أن يقبله أو يرفضه ، وفى أن يرضى عنه أو يسخط عليه .

والواقع من الأمر أنى لا أكلف أم صالح شيئاً من هذه الأعمال التى ذكرتها ولا أفرض عليها شيئاً من هذه الخطط التى رسمتها ؛ لأنى على حريتي فى أن أصنع بها ما أشاء ، أوثر الأمانة فى رواية التاريخ . وقد حدثنى التاريخ بأن خديجة م صالح قد كانت شاذة الخلق سيئة العشرة ، وبأن الحاج علياً أبا صالح لم يكن طاماً ولا جائراً حين طلقها بعد أن ولدت له صالحاً بعام أو عامين . فقد كان هذا الرجل طيب القلب سليم النفس ، لا يحب شيئاً كما يحب الدعة والهدوء . وكانت امرأته خديجة أم صالح منكراً الخلق بغیضة العشرة كثيرة الكلام شديدة الصبح ، لا ترضى شئ ولا ترضى عن شئ ، فاضطر هذا الرجل البائس إلى فرقتها ، واستبقى ابنه صالحاً فى كنفه . وحاول أن يفرغ له ويقوم على تربيته فلم يستطع

لأن خطوب الحياة تكلف أمثاله أن يعملوا ليعيشوا . ولم يكن من الممكن أن يعمل الرجل لكسب القوت وأن يفرغ لتربية ابنه . وهو بعد ذلك رجل من الناس لا يستطيع أن يعيش إلا كما يعيش الناس ، فاضطر إذاً أن يتخذ لنفسه امرأة تربي له صالحاً وتمنحه غيره من الولد . واتخذت خديجة لنفسها زوجاً يعينها على الحياة ويعوضها من صالح هذا الذي احتجزه أبوه لأنه اشترى القاضي بطلال من البن . ومذا تريد أن أصنع وقد كانت الحياة تجري على هذا النحو في ذلك العهد القديم ! وليس أدل على أن أبا صالح قد كان معذوراً حين فارق امرأته من أن خديجة قد اضطرت زوجها الثاني إلى أن يطلقها بعد أن وهبت له غلاماً أسماه سميداً ، وهو قد فارقها لنفس الأسباب التي فارقها من أجلها زوجها الأول ؛ وقد كانت سيئة العشرة بغيضة الخلق كثيرة الكلام مرتفعة الصياح لا ترضى بشيء ولا ترضى عن شيء . ولكن حظها في هذا الطلاق الثاني كان حسناً أو سيئاً لا أدري ! فما أكثر ما تختلط أمور الناس على الأذكاء حتى لا يفرقوا بين الخير والشر ، فكيف بمن كان مثني قليل الحظ من الذكاء لا يفرق بين سمادة والشقاء ! والشيء المحقق هو أن خديجة لم تكذب تطلق حتى مات زوجها وترك لها ابنها سميداً تربيته كما تشاء أو كما تستطيع . ولم تربيته كما شاءت أو كما استطاعت ، وإنما ربيته الطبيعة كما أحببت . وقد زهد الأزواج في هذه المرأة ذات العشرة السيئة والخلق البغيض ، وثقلت الحياة على هذه المرأة ذات الحيلة السليقة والعقل الكليل ، فباعته الفجأة حيناً والتمس حيناً آخر ، ثم اختلط الأمر عليها فحسنت جنوباً هادئاً رفيقاً ، عطف عليها القلوب وأخاف منها الناس ، سميت « خديجة المفعرة » وعاشت من إحسان المحسنين . وبينما كان ابنها سميد ينمو في ظل هذا الجنون الهادئ المخيف كان ابنها صالح ينشأ في ظل هذه عسرة التي أظهرت حباً له وعظفاً عليه ، ثم رزقت البنين والبنات فأظهرت بفضاً له وصيقاً به . وكذلك نشأ أحد الأخوين في حماية البعوض العاقل ، ونشأ الآخر في رعاية الحب المجنون .

حدثني أيها القارئ العزيز أكان من الخير أن أعرض عليك تفصيل هذا كله في أول هذا الحديث فتضيق بي وبصالح وبأمين وبالجملة التي تحمل إليك هذا الحديث ، أم كان الخير أن أذهب إلى المذهب اليسير الذي اخترته وأن أحدثك بكل شيء حين يحين التحدث به إليك ؟ أنا أعرف أنك ستعاند وستتأري ،

وسمذهب في عنادك ومرائك مذاهب مختلفة ، فأت وما تشاء . أما أنا فقد ذهبت المذهب الذي اخترته ، وحدثتك بالامر على النحو الذي آثرته ، وانتهيت منقاً حين إلى أن صالحاً قد استحم في القناة ودخل في ثوبه الجديد وعاد إلى امرأة أبيه مسروراً بهذا الثوب الذي لبسه مهدياً ثوبه القديم لذي ضمه بين ذراعيه وجنبه . ولكن امرأة أبيه نظرت إليه من رأسه إلى قدمه فرأت ثوبه الجديد ورضيت عنه ورأت ثوبه القديم وضافت به ، ثم دارت بصرها في الحجرة فرأت ابنها وبنتها قد اتخذا ثوبين باليين كذلك الثوب القديم يبديان عن الكتفين كما يبديان عن الظهور والصدور ، ثم ردت النظر إلى صالح في ثوبه الجديد ، ثم أعادت لنظر إلى ابنها في ثوبيهما القديمين ، ثم ارتدت عيناها إليها وقد ارتسمت في نفسها الخطة واضحة جليلة ولكنها بشعة بغيضة ، فإن هذا الثوب الجديد لم يخلق لصالح ، وإنما خلق لابنها محمود . ولم يشرق الصبح من غد حتى كان صالح قد لقي من أبيه ومن امرأة أبيه نكراً ، فضرب ضرباً مبرحاً مرض له أياماً ، وجرد من ثوبه الجديد الحيل ورُدَّ إلى ثوبه القديم البالي ، وعجز الفتى عن الذهاب إلى الكتاب من غده ، وأقام في الدار كئيباً في زاوية من زواياها يهمل في ازدراء ويمرض في عنف ، حتى إذا استطاع أن يمشي على قدميه سمي إلى الكتاب ليشتق فيه ببعض العريف وقسوة سيدنا ، ولينعم فيه بعشرة أمين .

كذلك عرف أمين قصة رفيقه البائس ، فلم يدر عقله الناشئ كيف يتقضى في هذه القصة . لو أنه لم يتحدث إلى أمه عن ذلك الثوب البالي الذي كان صالحاً يلبسه لما أهدت أمه إلى صالح ذلك الثوب الجديد ، ولمضت مور صالحاً على ذلك البؤس الهادي المطرد . فهو إذاً قد أراد أن يحسن إلى رفيقه فأساء إليه . أيلوم نفسه في ذلك أم يلتمس لها المعاذير ؟ والحق أنه لم يلزم نفسه أو يعذرهما ، وإنما فرغ لصاحبه يعزيه ويسليه ، وحدث نفسه بأن أمه الكريمة الرحيمة قد تحدثت إليه ثوباً آخر تكسوه به رفيقه المسكين . ولكن القارئ يخطئ شدة الخطأ إن ظن أن الحياة تجري دائماً على هذا النحو المألوف من المنطق وتلائم دائماً ما ألف الناس من التفكير والتقدير . فليست الحياة قُلْ مني ثورة على الأصول الموصوعة والقواعد المرسومة والخطط المدبورة ، وإنما الحياة تمضي كما تردهى لا كما يريد الناس . وقد راح صالح وأمين من الكتاب مساء ذلك اليوم . فلم يروهما حين بلغا ذلك المكان الذي تمتد فيه الخطوط الحديدية من الشمال إلى

الجنوب ومن الجنوب إلى الشمال إلا جماعة مزدحمة تتصايح ويدعو بعضهم بعضاً ولم يبلغا هذه الجماعة حتى رأيا منظرأ راعهما وروعهما : جثة قد شطرت شطرين وألقى عليها ثوب غليظ يستر بشاعتها عن العيون ، وامرأة قائمة تلطم وجهها وتضرب صدرها وتسفح دمعها وتنشر في الفضاء ضحكا عريضا . فأما الجثة فكانت جثة سعيد أكلها القطار . كما كان يقال في تلك الأيام . وأما المرأة فكانت خديجة تدفعها الغريزة إلى الجزع ويدفعها الجنون إلى الضحك . وأما صالح فنظر إلى أخيه ونظر إلى أمه وهم أن يقف ولكنه آثر أن يمضي مع رفيقه كأنه لم ير شيئا . ولست أدري ما صنع الرفيقان ، ولكني أعلم أن أبا أمين راح إلى أهله حين تقدم الليل وهو يقول محزوناً : لقد كانت القطر شرهة منذ اليوم ، أكل أحدها سعيداً مع الظهر ، وكل الآخر صالحاً مع الليل ، وفقدت « خديجة لمعفرته » ابنيها في يوم واحد . ثم التفت فرأى ابنه أمينا مذعوراً يكاد ينقد من البكاء ، فسح على رأسه وقبّل بين عينيه وقال له في صوت رقيق : لن تغدو على الكتاب إذا كان الصبح ، لأنك ستذهب إلى المدرسة الابتدائية في عاصمة الإقليم .

قال أمين بعد أن تقدمت به السن وأصبح رجلاً ذا خطر : ما زلت أرى تلك الجثة قد ألقى عليها ثوب غليظ ، ولكني أنظر إلى وجهها فلا أرى وجه سعيد وإنما أرى وجه صالح ، ومع ذلك فلم أر صالحاً حين أكله القطار .

له صبي

السياسة والتعليم

[ألقى هذا الحديث في مؤتمر التعليم الذي انعقد في الجمعية
الجغرافية في ١٨ وديار إلى ٢٠]

يكره بعض الناس السياسة وَيَلْجَأُونَ السياسة وياقون عليها التبعة
فيما يفسد الحياة العامة من أكراد وأوزار . فالسياسة في اعتبارهم حمت
ودهاء ، ونفاق ورياء ، وحقد وجفاء ، وطمع وانعتداء ، وحرب هوجاء ،
وحزبية صارخة حمقاء ، ونتائجها بالطبع شر في شر وبلاء في بلاء .

وهؤلاء في نظرهم هذه إلى السياسة معذورون . فهكذا أراد الساسة أن
تكون السياسة في أكثر أقطار الأرض وأغلب أدوار التاريخ .

ولكننا لو أنصفنا لخالفناهم ونظرنا إلى السياسة بغير العين التي نظروا
إليها، فبأنها مما يصفون . فالسياسة في حقيقة الأمر غير ما يظنون . ولا دس
إذا ضل الساسة وتكبدوا سواء السبيل .

السياسة تصريف المسائل العامة ورعاية المصالح العامة . والأصل أن
نصرفها وأن نرعاها بما يرضى الله والضمير . ولو فعلنا لكانت السياسة في
مظهرها أفضل المهن وأشرفها وأعظمها شأنًا وأكثرها نفعًا
وأبعدها أثرًا في سعادة الناس .

والسياسة بهذا التعريف تدخل في كل شأن من شؤون الحياة وتلعب فيه
دورها الخطير . ومن هنا تتجلى لكم العلاقة الوثيقة بينها وبين التعليم ، من
لعل علاقتها به أقرب وأوثق من علاقتها بأي شأن سواه .

فالتعليم غذاء العقول والنفوس والأرواح ، ضروري كغذاء الأبدان ، لازم
كأغواء الحياة للإنسان ، حيوي في تأكيد الفرق بينه وبين الحيوان . وقد سمع
من أهميته أن أوصانا النبي الكريم عليه الصلاة والسلام بأن نطلبه من المهد

إلى اللحد ، وأن نطلبه ولو في الصين . فلا عجب إذن أن تسعى السياسة أكثر العناية بشؤون التعليم ، وأن تعتمد عليه أعظم اعتماد فيما ترمى إليه من رعاية مصالح الناس وتحسين مصائرهم .

والتعليم من جانبه يستطيع إذا فهم رسالته على وجهها وأذاها حق أدائها أن يخطو أوسع الخطوات ويقدم أجل الخدمات في هذا السبيل .

على أن للسياسة معنى أضيق تميل إليه في البلاد التي شاء لها القدر القاسي أن تتحكم غيرها في أقدارها ومصايرها وأبت همة أبنائها إلا أن ينهضوا لاسترداد الحق المهضوم . ففي هذه البلاد تخرج معاني السياسة وتختلط مراميها بالمبادئ الوطنية والمطالب القومية والجهاد في سبيل الحرية والكرامة والاستقلال . وإلى هذه الأهداف النبيلة ينفى أيضاً أن تتجه مرامي التعليم .

ولا يتسع المقام أيها السادة للإسهاب في علاقة التعليم بالسياسة وضرب الأمثلة عليها وتحرمها عند غيرنا من الأمم لنقارنها بما عندنا . فأكتفي بأن أشير إليها في تاريخ مصر الحديث إشارة عابرة فيها مصداق ما أقول ، وفيها ذكر وعبرة وتقع للمؤمنين .

في أيام المماليك وأيام الحملة الفرنسية قامت في مصر نهضة وعى قومي وشعور وطني ، حمل لواءها العلماء وفي طليعتهم نقيب الأشراف السيد عمر مكرم الذي استحق أن يلقبه بعض المؤرخين برئيس الرؤساء وزعيم الزعماء . وساهمت تلك النهضة الوطنية في تنصيب المغفور له محمد علي باشا مؤسس الأسرة المالكة الكريمة ومنشئ مصر والياً على مصر . جلس على عرشها باسم الشعب المصري وبتأييد باطن من المصريين . وكان هذا الوالي الكريم من عباقرة البنائين ، فلم يفته ما للتعايم من الأهمية الكبرى في تأسيس الدولة المصرية وتوطيد أركانها ، فأولاه أشد العناية وأبلغ الاهتمام .

وكان التعليم القائم تعليماً دينياً ، يحمل أكبر عبئه الأزهر الشريف ، فلم يهمله الوالي ولكنه قام إلى جانبه صرح التعليم المدني الحديث ، فأنشأ المدارس الابتدائية والتجهيزية والحربية والبحرية والخصوصية والفنية والصناعية ، ولم يسر مدارس البنات ، وفد البعث العلمية ، وعنى بترجمة الكتب الأجنبية ونظم هيئة الإشراف على شؤون التعليم فأنشأ شورى المدارس فديوان المدارس ووضع اللوائح ، وأصدر القرارات بنظم الدراسة وبرامجها وخطط الإدارة

وتفصيلاتها . وعلى الحملة قد حلق من العدم نهضة تعليمية حديثة واضحة المعالم مستوفية الكيان .

ويجب أن نعترف بأن محمد علي باشا مزج التعلم بالجندية إلى حد كبير ، وكان يسخره لأغراضه الحربية واعتباراته الحكومية ويرمى به إلى تعزيز الجيش والضباط والأطباء والمهندسين والأسلحة والعتاد ، وتعزيز هيئة الحكومة بالموظفين المصريين والمتكمن من الاستغناء عن الموظفين الأجانب الذين اضطروا إلى استخدامهم . ولم يكن يعنى في نهضته التعليمية إلا قليلاً بتهديب عامة الشعب ورفع مستواه الثقافي . ولكنى لا أحسب ذلك عيباً كبيراً ؛ فقد كان يشئ من العدم وبماشى روح العصر ، ووفق مع ذلك إلى تحقيق الكثير من الأغراض القومية التى لخصها الأستاذ أحمد عزت عبد الكريم في كتابه القيم عن التعليم في عصر محمد علي باشا على الوجه الآتى :

- ١ — توجيه البلاد وجهة التعليم الحديث
 - ٢ — نشر الثقافة الغربية إلى جانب نشر الثقافة العربية
 - ٣ — بث الروح القومية
 - ٤ — توطيد زعامة مصر في الشرق العربي
 - ٥ — النهضة باللغة العربية
 - ٦ — فتح الباب لدعم أركان النهضة التعليمية فيما يلي من العصور .
- غير أن خلفاء محمد علي لم يعنوا عنايته بالتعليم ، فخبث جدونه كما خبت جذوة غيره من النهضة حتى كان عهد إسماعيل العظيم .

وإسماعيل بعد جده الكبير منشئ مصر الحديثة وصاحب الأيادى البيضاء ، فى يقظتها والعامل الدائب على أن تصبح مصر جزءاً من أوربا فى رقيها وتقدمها . فعادت نهضة التعليم على يديه سيرتها فى عهد جده ، وأدخل عليها الكثير من التعديلات والتحسينات وبخاصة فى الروح والنظام والأهداف ، ففتحت المدارس الأهلية ونشر التعليم فى الأقاليم ، وأنشئت مدرسة دار العلوم لتخريج المعلمين الصالحين ، ورتبت المحاضرات والدروس العامة ، وانتشرت الجرائد السيارة وتنوعت موضوعات الكتابة فيها . وعنى على وجه خاص بالموضوعات القومية والوطنية والبهديبية والإصلاحية . واهتم إسماعيل بالفنون الجميلة على اختلاف

أولها، فكان أول راع لها في التاريخ المصري الحديث . ومن هذا كله ترون أن إسماعيل خرج بالتعليم المدني من دائرة الضيقة دائرة إعداد الضباط والموظفين إلى دائرة أوسع وأفق أسمى ، فأصبح من مرامي التعليم تهذيب عامة الشعب ورفع مستوى الثقافة عند الأمة كلها وتكوين رأي وطني عام يفكر في مصاير الوطن ويحرص على مصالحه العليا .

ووافق ذلك نهضة موارد في أفق التعليم الأزهرى على يد الزعيم الروحي الكبير السيد جمال الدين الأفغانى ، فكانت هاتان النهضتان العميتان الروحيتان أساس كل نهضة قومية وحركة وطنية قامت بعد ذلك في مصر ، وإليهما تنتسب روح الثورة العربية التي أوقدت العنصر المصرية لإنصاف المصريين ، ولم يقم بها رجال الجيش وحدهم بل حمل عبئها معهم كثير من أهل الرأي وقادة الفكر وحمله الأقلام ، وفي طليعتهم محمد عبده ، وعبد الله نديم ، وسعد زغلول .

ثم منيت مصر بالاحتلال المشؤم ، وعنى رجاله عناية فائقة بوضع اليد على شؤون التعليم وتوجيهها في خدمة الاحتلال ، وافتن مستشار المعارف المشهور لمستر دلوب في وضع الخطط المؤدية إلى تلك الغاية ، فأصبح الغرض من المدارس إعداد موظفين يفكرون بروح الاحتلال ويخدمون أغراض الاحتلال . وضيق دائرة التعليم وحورت المجانية فيه بل ألغيت إلغاء تاماً ، وهبط نوعه ومستواه . خول الكثير من المدارس الابتدائية إلى كتاتيب ، وصرفت العناية إلى هذه لكتاتيب على حساب التعليم العالى . وفرضت اللغة الانجليزية فرضاً لا على حساب اللغة الفرنسية وحدها ولكن على حساب اللغة العربية أيضاً . وترتب على فرضها فرض المعلمين الانجليز على دور العلم وإن جهلوا في بعض الأحيان ما يعلمون .

وغنى عن البيان أن الشعب المصرى لم يطق صبراً في يوم من الأيام على الاحتلال بل كاخفه منذ اليوم الأول وحاربه دون هوادة . وتوالت آيات هذا لكفاح وتعددت مظاهره ، وكلها تمت بسبب مباشر أو غير مباشر إلى التعليم .

فهذا هو الزعيم الوطنى الشاب مصطفى كامل وصاحبه النبيل الأمين محمد فريد وأنصارها من صفوة المثقفين ونخبة المفكرين يرفعون راية الوطنية ويقودون الحركة الاستقلالية بما أوتوا من تفوق علمى وتحرر عقلى ملأ نفوسهم بحب

الوطن ونفعم رؤوسهم بحق الوطن ، وحب إليهم في سبيل الوطن احتمال أقدح
الأرزاء وبذل أكرم القداء .

وهذا هو سعد زغلول ابن الثورة العراقية أولا ، وأبو الثورة الاستقلالية
أخيراً ، يشاء الله أحكم الحاكمين أن يتولى نظارة المعارف العمومية والاحتلال في
أشد جبروته ، فما يبالي جبروت الاحتلال ولكن يبذر في أرض المعارف الخصة
بذور الحرية والاستقلال ، فيبادر من أول لحظة بوضع الحد لطفيلان المستر
دلوب ويفهمه في صراحة وجلاء أن الأمر في نظارة المعارف أمر الناظر
المصري لا أمر المستشار الإنجليزي . ثم لا يزال بشؤون التعليم يطر فيها بعين
مصرية ويداويها بروح وطنية ويمنى عنها أغراض الاحتلال حتى يستقيم
لها أساس وطني سليم . فهو بعيد المجانية وبخاصة لدوى الاستعداد من
المتفوقين الذين لا تسمح لهم الحال بمواصلة التعليم . وهو يعنى بالدراسة العاليه
والبعوث العلميه ، وهو يحل اللغة العربية محل اللغة الإنجليزية فينصف لعه
البلاد ويرفع كرامتها ، وييسر العلم للطلاب ، ويفتح لعلهم المصري موصد
الأبواب .

وهذا هو قاسم أمين يعرف بسليم فطرته وثاقب فكرته وواسع ثقافته
مكانة المرأة في المجتمع ، فيدعو دعونه إلى تحريرها وتعليمها لتنهض مع لرحل
بواجبها في تحرير الوطن ورفع شأنه بين الأوطان . بل هذه هي مصر الراقية كلها
تضيق ذرعاً بما يلقاه أبناؤها من تضيق في التعليم العالي ، فيتنادى عليه
مفكرها ونخبه مصلحيها وينادون غيرهم لإنشاء جامعة أهلية ينمو في كمها
التفكير الحر والشعور الوطني الصميم ، وتتقدم الباذلين لإنشاء هذه الجامعة
الأميرة الجليلة فاطمة بنت اسماعيل فتجود بالحبوس والحلى والنقود . ويرأس
المشروع الأمير الجليل فؤاد بن اسماعيل ، فيبذل أكرم الجهود حتى تستوى
الجامعة الأهلية مثابة لحرية الفكر ونور العلم ، ونواة لأول جامعة حكوميه
تنوِّج الثقافة المصرية وترفع رأسها في الآفاق .

ولقد كانت حتماً مقضياً أن تقضى هذه الحركات الوطنية الرائعة والبهتة
العلمية المتتابعة إلى الثورة القومية الجامعة التي عمت مصر في سنة ١٩١٩ وقد
رمامها ناظر المعارف القديم سعد زغلول وكان طلاب العلم جنودها المخلصين .
ثم توتى هذه الثورة أكلها مزدوحاً طيباً ، فتحظى مصر بالدستور ويعترف

هذا الاستقلال وتخلص شؤون التعليم في ظلها للحكومة المصرية تحت إشراف البرلمان

أيها السادة

هذا عرض مختصر لتطورات تعليم في مصر من عهد محمد علي إلى اليوم. ومنه ترون أية علاقة وثيقة تربط التعليم بالسياسة وتربط السياسة بالتعليم، حتى لكاد تكون علاقة اندماج وامتزاج. وإذا قلنا في مصر السياسة فكأنما نقول الوطنية. فالوطنية المصرية كانت توقد شعلة التعليم وكان التعليم يوقد شعلة الوطنية، وكان لصفوة المثقفون هم قواد الحركات القومية، وكان طلاب العلم هم طلاب الحرية والاستقلال.

والآن وقد خلصت شؤون التعليم للحكومة المصرية كما أسلفنا فإنكم تدركون ولا ريب أية مسئولية خطيرة تقع علينا للنهوض بهذه الشؤون كي تسلم مصر في هذا المعترك الدولي المتلاطم بالعلوم والمعارف والأخلاق الفاضلة فتستطيع أن تحمي سيادتها الناشئة وأن تأخذ مكائدها اللاتقة بين الأمم في خدمة الإنسانية والعمران.

وإذا جاز لمثلي أن يبدى رايه فيما صارت إليه شؤون لتعليم بح الإدارة الوطنية فأني لا أحسبنا جد بعيدين عن سواء السبيل.

فتحن ننكر الآن أن يكون الغرض من التعليم إعداد الموظفين، ونحرص على أن نتجه به إلى تكوين المواطن الصالح والإنسان الصالح القدير على خدمة وطنه والإنسانية ومواجهة مشاكل الحياة ومسئولياتها بما يرفع من قدر حياة الفردية والعائلية والاجتماعية والوطنية ويحقق السعادة للفرد والمجتمع جهد الإمكان.

ونحن نعرف أن أفضل الوسائل لإدراك هذه الغاية هي صرف العناية إلى شخصية الطالب وتمهدها بالتربية الجسمية والعقلية والنفسية والروحية والخلقية، والكشف عن ميولها ومواهبها، لمعاونتها على الظهور والنمو وتوجيهها وجهة المصلحة والخير.

ونحن نفهم أن أحسن التربية ما كان أساسه غرس الثقة بالنفس والاعتماد عليها وتنمية روح الإيتار والتضحية في سبيل الصالح العام.

ونحن نحاول دئب في دوائرنا التعليمية رسمية وغير رسمية أن نأخذ بهذه الوسائل ونحقق هذه الغايات .

ونحن نتجه إلى تعميم العلم وتيسيره للجميع بمات وبين وأغنياء وفقراء على السواء . وقد خطونا في هذا السبيل الديمقراطي الوطني خطوة طيبة بتميم المجانية في التعليم الابتدائي القائم وتوسيعها في التعليمين الثانوي والعمد والأخذ بمدأ تكافؤ الفرص لأبناء الوطن أجمعين .

ولكن يجب أن نعلم أننا لم نقطع إلا شوطاً قصيراً، وما زال أمامنا شوماء بعيد . وإن النتائج على وجه خاص لا تدعو إلى الإسراف في التفاؤل؛ إذ بالرغم من المحاولات المتتابة لتصحيح أهداف التعليم وتحسين قواعده ووسائله لا يزال أكثر المتعلمين ينجحون إلى وظائف الحكومة ويجعلونها همهم الناصب في الحياة فإذا اتجه البعض إلى الأعمال الحرة فكثيراً ما يلاحظ عليه التقصير ونقص الاستعداد .

ثم إن الطلاب بوجه عام في أشد الحاجة إلى روح الطاعة والنظام ونوق الرؤساء واحترام أولياء الأمور . ويلاحظ على أكثرهم ضعف الشخصية وقصور الهمة والعجز عن احتمال التبعات ومواجهة المسئوليات .

وهذه النتائج السيئة جدرة بأن تلفت أنظارنا إلى ما لا يزال يعلق بأنفسنا التعليمية من العيوب والشوائب ، وبأن تحفزنا إلى التماس ما يجب لها من الطب والدواء . وتلك مهمتكم معشر القائمين بأمور التعليم . وكل ما يستطيعه صديق مثلي هو أن ينصح بالآناة والترث واستيفاء البحث والدرس قبل المنع والتبديل . فنظامنا التعليمي بحاجة إلى الاطمئنان والاستقرار بمقدار ما يحتاج إلى التحسين والإصلاح .

وهناك عيوب أخرى يجب أن أشير إليها في هذا المقام ولكنها ليست من عيوب التعليم بل هي من عيوب السياسة التي يمكن أن نصلحها بالتعميم . فقد أصبح جونا السياسي مليئاً بالآثرة والانانية والحققد والكراهية والمهاترات والخصومات ، وكادت المصالح الحزبية والشخصية تفرق المصالح الوطنية في الجاه ، وتفرقت الكلمة أيدي سباً ونحن أشد ما نكون حاجة إلى تضافر الجهود واتئلاف القلوب .

وأخشي ما أخشاه أن تنتقل هذه الآفات من السياسة المدبرين إلى لسان

الناشئين وأن تغرو نفوس الشباب وهم دحر الوطن في الملمات وعدته للنائبات
وأمل الحاضر الحزين في مستقبل سعيد أمين .

ما حذروا معشر المعلمين هذه العاقبة النكراء ، وجنبوا مصر شرورها ؛ ففي
دمتكم أخلاق الشباب . ومن كانت أخلاق الشباب في ذمته في ذمته مصير البلاد
نشئهم على إنكار الذات وإيثار المواطنين .

علمهم حب الوطن والتضحية في سبيله بما يملكون .

واغرسوا فيهم روح التضافر القومي والتكافل الأخوى ليكونوا برأ
وسلاماً على إخوانهم في الوطنية وباراً حاميه على المغتصبين .

ولا تخشوا أن يقال قحموا السياسة في التعلم ، فالسياسة لمنكرة في معاهد
العلم هي سياسة الحرية والتفريق ؛ أما دعوة الإخاء والوطنية فمأجدر أن تكون
عندنا كما هي عند غيرنا أول الأسس في سياسة التعاليم .

محمد صادق الدين

في أفق السياسة العالمية

مشكلة إسكندرونة

في ربيع عام ٣٣٤ قبل الميلاد عبر الإسكندر الأكبر مضيق « الهلبونوت » بين أوربا وآسيا على رأس جيش مدرب من المقدونيين والإغريق ، وطلع به فوق هضاب آسيا الصغرى ، ثم سار في محاذاة ساحل البحر قاصداً فتح الشرق وتقويض دولة الفرس . وبعد نزال وجلاد مع جنود الفرس الذين كانوا يحتلون تلك البلاد رتد الفرس نحو الشرق ، واستمر الإسكندر بزحف شرقاً ويحتل في طريقه مدن والأقاليم التي يجلو عنها العدو حتى التقي (بدارا الثالث) ملك الفرس الذي جاء يقود جيشاً عرمرماً تجمعت كتائبه من أطراف إمبراطوريته الواسعة وتقابلوا في موقعة « أسوس » عند رأس الخليج الذي يفصل بين حمال الطورس وسهول سوريا ، وهناك انتصر الإسكندر على الفرس انتصاراً حاسماً فتح له الطريق إلى سوريا وفلسطين ومصر . ثم عاد الإسكندر يضارء دارا شرقاً ، ومارال به حتى دانت له بلاد ميديا وبابل وما بين النهرين وبلاد فارس نفسها وشمالي الهند إلى ما وراء نهر السند شرقاً .

وقد تم للإسكندر هذا النصر العريض الذي امتدت به فتوحه من البحر الأدرياتي غرباً إلى نهر السند شرقاً والذي فاق به الأوائل والآخر من الفاتحين في مدى لا يتجاوز عشر سنوات ، كان فيها الإسكندر كالشهاب الثاقب لم يكده يصىء ويبهز أنظار العالم الشرقي باسمه وبأسه وفتوحه حتى هوى واختطفته الحمى وهو في الثالثة والثلاثين من عمره ؛ فلا عجب إذا كان العالم على اختلاف أجناسه وأديانه قد خلده اسم الإسكندر في قصصه وأساطيره وكتبه وآثاره . ومن الآثار التي بقيت على الزمن تلك المدن التي اختطها الإسكندر نفسه أو التي أقامها خلفاؤه تخليداً لذكري فتوحه وانتصاراته . وقد أطلقوا عليها جميعاً

اسم الإسكندر أو نسبوها إليه نسبة صحيحة أو محرفة على اختلاف الهمجات اللسانية التي كانت تنطق بها الشعوب التي أخضعها الإسكندر .
وعلى الساحل الشرقي للبحر الأبيض المتوسط قامت مدينتان تحمل كل منهما اسم الإسكندر : الإسكندرية التي أسسها الإسكندر نفسه على مصب النهر الغربي للنيل ، والتي لم تلبث أن أصبحت أهم الموانئ التجارية في البحر الأبيض المتوسط ، « واسكندرونة » التي أنشئت على قرب من المكان الذي وقعت فيه معركة « أسوس » . ولما كانت الإسكندرية أعظم شأنًا وأقرب منا إلى الغرب فقد عرفوا الإسكندرونة بصيغة التصغير فقالوا Alexandretta وعرفها الأروام والأتراك « ياسكندرونة » .



وليس لي من المعرفة بعلم الصرف ما يجعلني أقرر ماذا يقال في اللغة العربية لتفسير الإسكندرية . ولكن الشيء الذي أعرفه يقيناً أن اسم «اسكندرونة» قد زال الآن أو كاد من المعاجم والخرائط الحديثة ؛ فقد أغنتنا تركيا أخيراً عن

البحث عن قياس عربي لتصغير أسماء المدن والبلدان ، تحت الاسم كله محواً وأطلقت على المكان اسماً آخر قديماً هو « هاتاي Hatay » ليعيدوا — أولاً — إلى أذهان الناس مجد « الحيطيين » القدماء الذين ينتسب إليهم الأتراك والذين استوطنوا آسيا الصغرى وفيها ازدهرت مدينتهم قبل عهد الإسكندر بألف عام . وثانياً — ليزيلوا كل أثر عربي أو إغريقي قد يعلق باسم الميناء أو الإقليم أو السجق بعد أن نزلت عنه فرنسا لتركيا في سنة ١٩٣٩ . ولا ننسى أن الأتراك الكماليين قد غيروا اسم القسطنطينية وأبدلوا به اسم اسطنبول التركي ، حتى يقضوا نهائياً على الخرافة القائلة بإعادة الدولة البيزنطية زعامة الإغريق ، أو غيرهم .

ولكن حق الأتراك في التمسك باسطنبول يقوم على العوامل الجغرافية والتاريخية . وهذه العوامل نفسها هي التي تحول دون « تترك » الاسكندرونة ، وإليها يستند السوريون في المطالبة ردها إليهم ؛ فهي داخلة جغرافياً في حدود سوريا الشمالية ، وهي الميناء الطبيعي لمدينة حلب ، وهي المدينة السورية التي تلي دمشق في الأهمية .

ولقد كانت إسكندرونة ذات أهمية تجارية عظيمة القدر بالنسبة إلى سوريا قبل فتح قناة السويس حين كان طريق التجارة البري بين آسيا وأوروبا يمر بمضيق فارس والبصرة ونهر الفرات وحلب وإسكندرونة ومنها إلى موانئ أوروبا . ثم سادت لها أهميتها على أثر جهود الألمان قبل الحرب العالمية الأولى في إنشاء الخط الحديدي الذي كان سيصل برلين ببغداد . فقد مد الألمان خطاً فرعياً ربط إسكندرونة بالخط الأصلي في الأناضول ، أبرزت مكائدها فجأة بعد أن تدهورت على أثر حفر القناة .

ثم نشبت الحرب فقصت على أحلام الألمان ، وقامت الثورة العربية ضد الأتراك حلفاء ألمانيا يقودها أنجل الشريف حسين وتوازروهم قوات الحلفاء . حتى إذا كانت سنة ١٩١٧ — ١٩١٨ زحف القائد الإنجليزي اللنبي ففتح فلسطين وأخذت المدن السورية ترفع أعلام النهضة وتفتح أبوابها للقاتحين من العرب والإنجليز ، وكانت اسكندرونة من هذه المدن جري عليها ما جرى على الأقاليم العربية التي كانت تابعة لتركيا وتحورت في نهاية الحرب . ويظهر أن فرنسا كانت تطمع في ضم سوريا ولبنان إلى إمبراطوريتها الواسعة في حوض البحر الأبيض المتوسط . فلما خاب أملها في الضم ولم تفز إلا بالانتداب على هذين الإقليمين

عولت على أن تنبع في حكم هذه البلاد سياسة عقيمة أرهقت بها الأهالي إلى حوجة هزت أصدقاءها قبل أعدائها .

ومع أن نظام الانتداب قد غير الأساس الذي كان يقوم عليه الاستعمار قديماً فجعل واجب الدولة صاحبة الانتداب هو العمل على مساعدة الشعب المنتدبة له وإرشاده وتوجيهه حتى يتهيأ لحكم نفسه ، فإن فرنسا سارت في سوريا ولبنان وفق سياستها الاستعمارية التقليدية عاملة على إسعاد الفرنسيين بالوظائف والمكاسب وإضعاف الوطنيين سياسياً واقتصادياً بكل الطرق .

وكان مبدأ التفرقة بين الطوائف والجماعات الوطنية أول معول استخدمته فرنسا لقتل الروح الوطنية القومية بين أهل البلاد . وجعلوا أساس التفرقة المذهب الديني ليزداد التجافي والتشاحن بين الأهالي ولتظفر فرنسا بمغزلة الحكم المتسلط عنهم جميعاً . وعلى هذه القاعدة أوجدوا دويلات محلية اصطناعية جعلوها مستقلة عن سوريا وكجبل الدروز في الجنوب ، وإقليم العلويين وسنجق اسكندرونة في الشمال الغربي .

وتبلغ مساحة هذا السنجق ١٩٣٠ ميلاً مربعاً ، وعدد سكانه ٢٢٨.٠٠٠ منهم ٨٥.٠٠٠ تركي و ٢٣.٠٠٠ من المسلمين السنيين و ٦٢.٠٠٠ من العلويين و ٤٩.٠٠٠ من المسيحيين على اختلاف مذاهبهم . وتدحل في هذا السنجق مدينة أنطاكية ذات الشهرة التاريخية .



وإنما دفع فرنسا إلى اشتهاج هذه السياسة عامها بأن الشعور القومي بين الأهالي كان قوياً ، وأن السوريين كانوا في طليعة المجاهدين الذين لبوا نداء الثورة العربية وكافوا وبذلوا أرواحهم في سبيل الاستقلال والوحدة العربية - تلك الوحدة التي كانت تقض مضجع فرنسا فتقاومها ما استطاعت ؛ إذ كان نجاحها خطراً على النفوذ الفرنسي لافي شرق البحر المتوسط فحسب بل في جنوبيه وغربيه حيث أهل المغرب والجزائر وتونس الذين تربطهم وشائج نسب وقربى بالعرب في مختلف الأقطار .

ولم يكف فرنسا أنها قطعت أوصال سوريا وسدت عليها منافذ البحر إذ وسعت العرقه بينها وبين لبنان وبه ثغر بيروت العظيم ، وقد ضمت إليه ثغر طرابلس ،

وبما اخترعت من استقلال إقليم العلويين وبه ميثاء اللاذقية ، وسحق سكندرونة وبه ميناءه الكبير — لم يكفها هذا فراحت تحاول محاولة أخرى ، حين رأت نجاح الحركة الكمالية في تركيا وبهرها ما أصابه الكماليون من تفوق وصر مطرد على اليونانيين وتوقعت أن يكون لتركيا الجديدة من السطوة والسؤدد في البلقان والشرق الأوسط ما يدعوها إلى اكتساب مودتها ، فسارعت ورسلت إلى تركي مندوباً من قبائلها هو « فرنكلين بويون » ليلمع الحكومة الجديدة في أقره اعتراف فرنسا بها ورغبتها في توثيق أواصر المودة بينهما . وكأن فرنسا قد خشيت أن يتجه الكماليون وعم في نشوة النصر نحو الجنوب فيستردوا بعض ما فقدوه في سوريا ، فأسرعت بالتزول لهم عن بعض الأراضي على الحدود بين سوريا والناضول . ولم يكن لفرنسا بمقتضى ذلك الانتداب أن تنزل لدولة أخرى عن شيء من أرض البلاد التي انتدبت لها إلا بموافقة العصبة . ثم جاء مؤتمر لوراز سنة ١٩٢٣ لتصفية ما بين الحلفاء وتركيا فأقر حدود تركيا الجديدة واعتبرت تركيا بزوال سيادتها عن الأقاليم العربية التي كانت تحت حكمها ومنها سحق اسكندرونة .

واستمر إقليم اسكندرونة يعاني مع باقي الأجزاء السورية متاعب الانتداب الفرنسي وما تبعه من ثورات وحروب وزمات إلى عام ١٩٣٥ — ١٩٣٦ وبه تلبذ الجو الدولي السياسي في أوروبا واضطربت أحوال العالم جميعه من جراء عدوان إيطاليا على الحبشة وتحمديها بريطانيا ومعها لكثرة العظمى من الدول الممثلة في عصبة الأمم . وكان أول ما ظهر من بوادر هذه الاضطرابات في الشرق قيام حركة وطنية في مصر انتهت بتكوين الجبهة الوطنية المصرية وعقد محامه الصداقة مع بريطانيا سنة ١٩٣٦

ومن مصر انتقلت شرارة الثورة إلى فلسطين ثم إلى سوريا . وكانت الحال في أوروبا قد ازدادت حرجاً ، فاندلعت الثورة الأهلية في أسبانيا ورفعت الماركة في ألمانيا رأسها تهدد أوروبا بشر مستطير ، وتوالت نذر الحرب العالمية الثانية ، حينئذ لم تجد فرنسا إلا أن تقبل تنظيم علاقاتها مع سوريا ولبنان على أساس استقلالهما وارتباط كل منهما بفرنسا بمعاهدة تشبه المعاهدة التي ربطت بريطانيا بالعراق أو بمصر .

وكان أول مقومات هذا الاستقلال أن تعود الدويلات التي اقتطعتها فرنسا

من جسم سوريا إليها ، وأن تتعاون سوريا وإنسان على المصالح المشتركة بينهما بشرط احترام استقلال لبنان وعدول سوريا عما يسمى بمشروع سوريا الكبرى .
وفعلا تضامنت الحكومتان مخلصتين في سياستهما الوطنية إزاء الدولة المنتدبة ، وأخذ البلدان يعملان لإدراك أهدافهما الوطنية . وحملت فرنسا تعلى حيناً وتمنع أحياناً ، وتجود وتبخل ، وتعجل وتبطئ ، وأبى البرلمان الفرنسي إتمام المعاهدة ولم تزل في تردد لها هذا حتى اكفهر الجو الدولي واستهدف العالم الملك الحرب الطاحنة .



وفي هذه الأثناء قامت الاضطرابات في أنطاكية ، وعز على تركيا أن يؤدي استقلال سوريا وانتهاء الانتداب الفرنسي إلى عودة إسكندرونة إلى سوريا مع أن الجالية التركية في هذا الإقليم تناهز ٤٠ ٪ من سكانه وهم من أقوى العناصر التي استوطنت الإقليم ، فقام الأتراك يطالبون باستقلال إسكندرونة وفصلها عن سوريا توطئة لضمها إلى تركيا في الوقت المناسب .

عند ذلك رأت فرنسا أن مصالحها الحقيقية تحملها على تحقيق رغبات تركيا ، على حين تبنى عليها هذه المصالح أن تساعد على تقوية الجامعة العربية لضم إسكندرونة إليها ، فقررت عرض الموضوع على مجلس عصبة الأمم ، وندبت العصبة لجنة لبحث الحالة في إسكندرونة ، ثم كانت النتيجة أن قررت العصبة أن توافق الحكومتان على احترام استقلال إسكندرونة الذاتي تحت إشراف العصبة ، وصدر المجلس قانوناً ينظم حكومة السنجق ، فتتولى السلطة التشريعية جمعية منتخبة بطريق التصويت العام على درجتين ، ويمثل القوة التنفيذية منتدب فرنسي تعاونه قوة بوليسية مؤلفة من ١٥٠٠ فرنسي ويده حق « الفيتو » ووقف تنفيذ القوانين التي لا يوافق عليها . وعلى ذلك تقررت حيدة إسكندرونة وصيحت اللغتان العربية والتركية فيها رسميتين .

ولكن هذا النظام لم يرق في نظر العرب ولا في نظر تركيا ، فاتصلت فرنسا بتركيا رأساً دون وساطة العصبة وانفقنا في أغسطس سنة ١٩٣٨ على أن يكون لتركيا في إسكندرونة قوة مساوية للقوة الفرنسية . وعلى هذا عقدت بين الحكومتين معاهدة صداقة وتعاون ، وأجريت الانتخابات للجمعية التشريعية

بعد أن مهدت لها تركيا ، فنال الأتراك ٢٢ مقعداً من ٤٠ واجتمعت الجمعية الوطنية في أنطاكية في ٢ سبتمبر سنة ١٩٣٨ وقررت إطلاق اسم « هاتاي » على السنجق ، وانتخبت رئيساً تركيا للدولة الجديدة ، كما اختارت الجمعية رئيسها ورئيس الوزراء كليهما من الأتراك . واتخذت الجمعية علماً للسنجق لا يختلف عن العلم التركي إلا في النجم الذي يتوسط الهلال ، فجعله نجماً مفرغاً لا يغطيه البياض ولكن تحيط به خطوطه . ومنذ ذلك الوقت بدأ الأتراك « يتحركون » المنطقة ، فجعلوا اللغة التركية وحدها اللغة الرسمية ، ولفسة التعليم ، وأبعدوا الموظفين العرب سواء منهم المسمون والمسيحيون . وهاجر من المنطقة عدد كبير من الأرمن أنشؤا لهم قرية بين بيروت ودمشق أوى إليها نحو ألفين منهم . وفي يونيه سنة ١٩٣٩ وقد ظهرت بوادر الحرب تخلت فرنسا لتركيا عن إسكندرونة من تلقاء نفسها ومن غير أن تستشير سوريا . ومنذ ذلك اليوم أصبحت إسكندرونة جزءاً من تركيا . وقد عزّ على سوريا أن يقطع منها هذا الإقليم على غير رضا منها ، فنقم السوريون على فرنسا تصرفها في أرض لا تملكها ، وحملوا يترقبون الفرص لاسترداد حقوقهم في هذا الإقليم .



ولقد أبرزت الحرب الأخيرة لصفة خاصة أهمية إسكندرونة لا من الوجهة الاستراتيجية فحسب حيث تقوم إسكندرونة على رأس خليج عميق الغور تحيط به الجبال فتكون له حصناً يقيه هجمات الأعداء وهبوب الرياح الشمالية الباردة ، بل من الوجهة الاقتصادية أيضاً فقد وجد في المنطقة معدن الكروم وزيت البترول ، فأصبح الخلاف بشأنها شديداً ، وبلغ كفاح السوريين من أجله منتهى القوة . وقد سبق لنا القول إن إسكندرونة لاغنى لسوريا عنها لأنها تمد بها العوض عن تغري بيروت وطرابلس الشام ، ولأنها البناء الطبيعي لجزء مهم من الشام وهو قسم حلب . وليست حاجة تركيا إليها بأشد من حاجة سوريا الحيوية وإذا كان الأتراك يقرعون حجة السوريين بحجة أخرى هي أن جاليتهم كبيرة في هذا الإقليم وعددهم يزيد على من عدائهم من الطوائف الأخرى فإن مجموع العرب - إذا أضفنا المسلمين السنيين إلى العلويين والمسيحيين - يفوق عدد الأتراك فضلاً عن الشواهد الجغرافية والتاريخية التي تؤيد دعوى السوريين .

والآن تقف إسكندرونة حجر عثرة في سبيل الاتفاق بين العرب من جهة وتركيا من جهة أخرى؛ إذ لا يخفى أن هناك ميثاق «سعد آباد» السياسي الذي أبرم سنة ١٩٣٧ وه ارتبطت تركيا والعراق وأفغانستان وإيران بالتشاور والتعاون معاً. وأعضاء هذا الميثاق يهمهم وقد انتهت الحرب أن يجددوه وأن يعززوه بانضمام الدول العربية الأخرى إليه، وليس هذا مستطاعاً مادامت مشكلة إسكندرونة قائمة.

ولو أن الموضوع عرض على هيئة دولية فلسنا نفلن أن روسيا تؤيد تركيا في طلبها، كما يغلب على الظن أن بريطانيا ستؤيد قضية سوريا فلا يبقى إلى جانب تركيا إلا فرنسا التي خلقت هذا المشكل من أول الأمر. أما الولايات المتحدة وكبر الطن أنها تقف على الحياد من هذا النزاع (ولا يبعد أن يقترح بعضهم جعلها قاعدة استراتيجية دولية). ويبقى في النهاية الجامعة العربية التي ستقف حتماً إلى جانب سوريا. وقد تقترح الجامعة على الدول — كما اقترحت بشأن ليبيا — إجراء استفتاء شعبي محايد في المنطقة. وحسناً تفعل الجامعة ويفعل مؤتمر الدول وتفعل هيئة الأمم المتحدة إذا لجأت جميعاً في حل مشكلاتها الإقليمية إلى احترام إرادة الشعوب، وخاصة إذا اقترن ذلك بالضمانات الكافية للتعبير عن هذه الإرادة بالصراحة والحرية الكاملتين. وكان يقال في الماضي إن الملوك والبابوات لا يخطئون، وقد جاء الوقت الذي ينبغي أن يعترف فيه الجميع بأن حق الشعوب في تقرير مصيرها هو حق لا يغلبه باطل القوة، وأن صوت الشعوب من صوت الله.

محمد رفعت

تأميم البنوك في فرنسا

من خواص الفرنسي أنه يجمع بين إحساس الفردية والذرع إلى مطالبات الحكومة بالكثير من المهام ، فهو يغار على شخصيته أن تفنى في شخصيات الآخرين ، وهو يحرص على ماله أن يتدخل في طريقة توظيفه أحد بل أن يسأله عنه إسان ، وهو في الوقت نفسه يلتقي على الحكومة تبعة كل ما يصيبه ويطالبها بتحقيق كل ما يمتعه . ولعل هذا الازدواج هو الذي جعل تاريخ النظام الاقتصادي في فرنسا متردداً بين الفردية *individualisme* والدولية *étatisme* متراوحتاً بين الأخذ بنظرية استثمار الأفراد والشركات لكثير من المرافق العامة ، والأخذ بفكرة امتلاك الدولة لهذه المرافق جميعاً . ولعل السبب الحديدي وسائر وسائل النقل هي لمثل لتقليدي الذي يصح فيه تدليلاً على ذلك التراوح ، فقد كانت أول الأمر ملكاً للدولة ثم صارت استثمار الشركات ، ثم ظل بعضها ملكاً للدولة وبعضها الآخر ملكاً لشركات ، ثم انتسج إلى جانب النوعين نوع ثالث يساهم في استثماره الحكومة والشركات معاً ، ثم أنشئت لأنواع جميعاً هيئة قومية تشرف وتنسق وتوزع الأرباح وتسد الخسائر .

وأوقع أن تمر « التأميم » في فرنسا كان محل شغل قومي لا يختص به حزب معين ولا تلوكة الألسنة في فترة معينة ؛ لأن الفرنسي صاحب نظمه تواق إلى النقد والشكوى ، يدفعه نقده إلى المقابلة بين مختلف الأساليب مترحماً على ما هو مستبشراً بما سيحيى . ملقياً دائماً تبعات ما يحل به وبفرنسا على النظام القائم الذي يتولاه عادة إثر السكوارث بالتعديل والتبديل . ولذلك فما إن قامت في فرنسا « لجنة المقاومة الأهلية » تناضل في سبيل دفع المدوان عليها ورفع أعباء الكارثة عن كواهلها حتى ضمنت « ميثاقها القومي » بنداً يقضى « بتأميم البنوك ومصادرة الائتمانات ومنايع القوى والطاقت » *Nationalisation du crédit et des sources d'énergie* وما إن وضعت « الحركة الجمهورية الشعبية » — وهي

بعد الثلاثة الأحزاب الفرنسية الكبرى — برنابجها في اليوم الثامن من شهر
نوفمبر الماضي حتى ضمنتها ، على غرار ما هو وارد من قبل في وماتشي الحزب
الشيوعي والحزب الاشتراكي ، في فصل من فصل إيه الثاني الخاص بالدبوقراطية
الاقتصادية والاجتماعية ، مبدأ التأميم ، « وسائل التأميم من وسائل
وضع الاقتصاد في خدمة الأمة وإقامة الديوقراطية الاقتصادية » . وقد جاء في
تفصيل أحكام هذا الفصل أن التأميم المصرفي الائتمان والعملية يستدعي ثلاثة
أنواع من الإصلاح : أولاً « إنشاء مجلس أعلى للائتمان والاستثمار برأسه وزير
الاقتصاد القومي ويكلف مهمة تحديد وسائل تمويل الإنتاج العام للإنتاج وإعادة
الإنشاء ، وتكون له الهيمنة على مجموع انظم المصرفي » . وثانياً « التأميم
البنك لفرنسا بزع ملكية رأس ماله مع التعويض عنها وإعادة تنظيم معاهد
الائتمان العامة » . وثالثاً « تأميم النظم المصرفي الخاص تدريجياً بحيث تكون
خطوته الأولى إصدار تشريع يفرض على المصارف احتواء التوجيهات التي يقررها
مجلس الائتمان الأعلى ، ومراقبة جميع أنواع النشاط المصرفي وتنظيم طرق لادجار
والتوزيع بكل الوسائل وبمينا ادغام المصارف ومحو الفروع والوكالات » .
وأخيراً « مراقبة توافر عنصرى الكفاءة والكرامة لدى رؤساء مجالس الإدارة
والمديرين » . وفي ذلك الفصل كذلك ذكر لأنواع أخرى من التأميم تشمل
وسائل النقل ومناجم الطاقة كالفحم والغاز والكهرباء والبتروك ، والمواد
الاولية الضرورية ، والأسمدة ، والصناعات الثقيلة ، كما تشمل « المرافق العامة
التي يجب أن تسحب امتيازات استثمارها كي تعود إلى هيئات التي منحت هذه
الامتيازات » .

فما جرى الاستفتاء وحزت الايخانات وسفرت عنهما « الجمعية التأسيسية »
وانبعت منها اوزارة الفرنسية الملبوية لأن الحكم ، كان أول التشريعات التي
تقدمت بها هو التشريع الخاص بتأميم « وسائل الائتمان » عرضته على الجمعية
تأسيسية — وهى الهيئة التشريعية الحالية في فرنسا — فتداولته لجنتها المالية
السر والتخصيص ، وتلقت خلال درسيها وتمحيصها مئة اقتراح بتعديل وستة ،
وقدم له المقرر بالاشارة إلى الدور الذى لعبته المصارف خلال السنوات الأخيرة
« ثلاث » « إنها قد ذهبت إلى حد التدخل طرأ في سياسة البلاد وساهمت
في ألعيب البورصة حول قراضيس الدولة ، وضمت حركة تصدير رؤوس الأموال

وإن بنوك الأعمال منها قد وجهت مناورات ضد الدولة في الداخل وفي الخارج ، وهي تشرف على كثير من المنشآت الاستعمارية ، خملت جميعها نصيبها من المسؤولية عن مصائبنا ، ومضيفاً : « أن مؤسسات الائتمان قد وسعت نفوذها في خدمة المحتل ، وقد آن لنا بعد أن تحررت فرنسا من العدو أن نتحرر - لضمان إعادة بنائها - من سلطان المال » .

وانتهت الجمعية التأسيسية إلى إقرار التشريع في اليوم الثالث من شهر ديسمبر لسنة ١٩٤٥ بموافقة ٥٢١ صوتاً من ٥٥٦ ، وهو قانون من اثنتين وعشرين مادة ، تقضى الأولى منها بتأميم « بنك فرنسا » عن طريق تحويل أسهمه إلى ملكية الدولة ، وإنهاء أعمال مستشاريه ومراقبيه (وهم مديروه) في اليوم الأخير من شهر ديسمبر لسنة ١٩٤٥ . وتعالج المادة الثانية أمر تعويض حملة الأسهم فتقضى بإعطائهم مقابل أسهمهم « سندات اسمية قابلة للتداول » يعين وزير المالية بقرار منه خواصها وشروط استهلاكها في بحر خمسين سنة على الأكثر دون أن تزيد الفوائد التي تدفع لها على اثنتين في المئة من قيمتها التي تحددها لجنة ، بحيث لا تتجاوز عن متوسط سعر الأسهم الأصلية فيما بين أول سبتمبر سنة ١٩٤٤ و٣١ أغسطس سنة ١٩٤٥ . وتنص المادة الثالثة على أن تأليف مجلس إدارة البنك ونظام موظفيه والضرائب التي يخضع لها يحددها قانون خاص يصدر قبل اليوم الثامن والعشرين من شهر فبراير لسنة ١٩٤٦ .

أما سائر المواد فتتصل بغير بنك فرنسا من مؤسسات الائتمان الفرنسي . وهي تقضى بتقسيم هذه المؤسسات إلى ثلاثة أقسام يجب أن ينتمى كل مصرف قائم إلى واحد معين منها : وهي بنوك الودائع ، وبنوك الأعمال ، وبنوك التسليف طويل الأجل أو قصيره ، كما يجب أن يعلن اتناؤه هذا إلى لجنة مراقبة البنوك في بحر الثلاثة الأشهر التالية لصدور القانون . كما تقضى بتأميم بنوك الودائع الأربعة الكبرى ، وهي بنك « كريدي ليوني » و « سوسيتي جنرال » و « كوتتوار ناسيونال » و « كوميرس أي أندوستري » ابتداء من أول يناير لسنة ١٩٤٦ ، وبتعويض حملة أسهمها عن طريق إعطائهم حصصاً اسمية يكون لها نصيب في الأرباح بنسبة تحدد في كل سنة وبحيث تعود الحكومة فتشتري جزءاً من خمسين من هذه الحصص في كل عام ابتداء من أول يناير لسنة ١٩٤٧ يسعر يكون هو متوسط أسعار الأسهم الأصلية في بورصة باريس بين أول

تأميم البنوك في فرنسا

سبتمبر سنة ١٩٤٤ وآخر أغسطس سنة ١٩٤٥ ويعهد بإدارة هذه البنوك « المؤتممة » — غير بنك فرنسا — إلى مجالس إدارة تؤلف من عشرة أعضاء ويختار وزير المالية أربعة منهم ووزير الاقتصاد القومي اثنين ويختار المنظمات نقابية الكبرى الأربعة الباقين ولا يكون بينهم أى عضو من أعضاء البرلمان . أما بنوك الأعمال فيقضى القانون الجديد بمحصر كل منها بمندوب حكومى يعينه وزير المالية والاقتصاد القومى ليشرف على إدارته ويعاونه فيها مجلس مراقبة مؤلف من ثلاثة يمثل أحدهم المنظمات التجارية والصناعية ، ويمثل ثانيهم مؤسسات نقابات العمال الكبرى ، ويمثل ثالثهم المؤسسات المالية العامة أو الشبيهة بها .

وأما بنوك التسليف فينظم القانون الجديد لتوجيهها والإشراف عليها مجلساً يرأسه وزير تعيينه الحكومة ويوب عنه محافظ بنك فرنسا ، ويشترك فيه ثمانية وثلثون عضواً يمثل سبعة عشر منهم « القوى النشيطة في البلاد » تقترح سبعة منهم منظمات العمال الكبرى ، ويعين وزير المالية سبعة ، ويمثل سبعة آخرون سائر الوزارات ذات الصبغة الاقتصادية كما يمثل السبعة الباقون المنظمات المالية العامة أو شبيهتها .

وتتولى سائر نصوص القانون تنظيم شؤون توزيع السلف ذات الآجال الطويلة ، وتهيئة السلف اللازمة لشر التجارة الخارجية ، ولعرض للجمعيات العامة للبنوك « المؤتممة » عن سنة ١٩٤٥ وما تصدره من قرارات . وهكذا مضت فرنسا قدماً فى سبيل « تأميم » بنوكها وسيتلوها تأميم سائر أرافقها تحقيقاً للاتجاه الذى كرسته « لجنة المقاومة الأهلية » فى ميثاقها ، واتحدت عليه كلمة الأمة العليا .

نعمود عزمى

دجلة في الحريف

بَكَرَ الحَرِيفُ فَرَاخَ يُوعِدُهُ
وَبَدَتْ مِنْ «الْأَرْمَاتِ» طَائِفَةٌ
وَكَأَنَّ مِنْ زَيْدِ الرَّمَالِ عَلَى
وَأَسْتَقِلَّ النَّوْتَى مَجْدَفُهُ
وَتَحْفَزَتْ ثُمَّ الْجِيَالُ لَهُ
ظَلَّتْ تَعُدُّ خَطَاهُ تَرْقِيهِ
جَرْدَاءَ وَهُوَ يَضْجُ مَلْعَبِهِ
خَرَسَاءَ وَالْأَنْفَامُ تُرْقِصُهُ
تَتَعَثَّرُ الْأَجْيَالُ خَالِدَةً
«دَاوُدَ» بِالْمَزْمَارِ يُوقِظُهُ
و «إِلْهِيمَ» تَخْزِنُهُ وَتَنْهِيهِ
أَلْقَتْ إِلَيْهِ مِنْ مَفَاتِيحِهَا
وَرَمَتْ لَهُ يَقْظَانَ مِنْ مُتَعَرِّجِ
و «النَّجْمِ» حَارِسَهَا وَحَارِسَهُ
الْآنَ أَدْرِكْ سِرَّ زَقَرَتِهِ
فَلْفَقْدِهِ «نَفْسًا» تَنْفُسُهُ
يَتَعَقَّبُ الْمَسْكِينُ مَوْجَتَهَا
لَمْ يَدْرِ حَتَّى الْآنَ شَيْءٌ يَمْتَنَاهَا
أَمْسَرَ اسْتَطَابَتْ فِيهِ مَقْصِدَهَا

✱

لَوْ يَسْتَطِيعُ لَرَدَّ خَفَرَتَهُ
وَبَرَّغَمَهُ أَنْ «حُبَّ» خَابِطُهُ
وَبَرَّغَمَ مَسْفَحِيهِ تَوَرَدَهُ
لَلزَارِعِينَ وَ ذُمَّ مَوْرَدَهُ

ما يبره
 ربات غير يشهد لها
 من من حش صولة . . .
 من الشمال يد فتنه
 كالاس للحنرات مرجعه
 وحسونه - كحسونه أبدأ -
 والفصل دون « الفصل » ينعه
 لغيب ، فلا « الإسماء » يوسعه
 النجم أعمى لا يرافقه :
 متحير ، لا يستجيم به
 وكان محتشد الضباب به
 والشمس قارة تذكره
 أيام تنفخ في قرارته
 ونيم يحلف لا يبارحها
 والبدر حتى البدر يوحشه
 هذا الذي ما كان مثلها
 كانا يرتان الغرام معاً

❖

لم يبق من هرج الربع به
 ومن « العريش » على شواطئه
 ركب تحمل عنه « ناشطه »
 و السامرون انقض عرسهم
 حجل الغراب على مواقد
 ومن الحمام أظله « زجل »
 صك المسفة يدني عطشاً
 منائلاً : لم حال ريقه
 وعلى الضفاف البط منكمش

إلا الذي قد فات أجوده
 إلا خشيات تحدد
 وأقام « عاجزه » و « مقعده »
 لا رجده أغنى ولا دد
 وعلى الرماد بها يبيده
 كلف بلحن « الصيف » ينشده
 وتوئج الآذني يبعده
 عن حرّ لوني كان يعمه
 لام بدوى التبت يعصده

شعث النيل كأنَّ مابسةً
ما الصيف سبط من جدائله
يأدى الخول يؤوده عنق
وكأنه إذ خيف مسبحه
أترى يعود غداً للعبه
وتهيم النوى زورقه
يقتات من كسر جنبها

مجنونة راحت تمده
جاء الحريف له يجمده
في أمس من زهو يمدده
مترب قد سدَّ «معبده»
أم لا يكون كأنسه غده
بـ«القار» - بعد الغيد - يحشده
في «الوح» أو «جبل» يمسده

*

لم أدر لو لم تُنَيِّنِي سُرجُ
ومضتُ، فقلت: النوم أعوزه
وخبتُ فقلت: غفا وإن صدَّى
وكأنَّ تابوتاً يمدُّ له
وحسبتُ مزماراً يُشَيِّعهُ
وتجاوَبَ الأجرار قافيةً

في شاطئيه: أين مرقده
وجفونه رُمُداً تسهده
في السمع من زفر يصعده
«ملاحه» فما ينضده
للقبر، مساراً يشلده
محماء باكية تحجده

*

يا صامتاً عيًّا ومنطقه
تهفو فرائد عقده جزعاً
وتثير فيه الذكريات شجي
وموكلاً بالدهر، يزرعه
يا «شط» أنتَ أعز منقلباً
وكذا الطبيعة: في عناصرها
نرتاد جامدها تفجـره
فلعل ذا: ولعلها لـه
ولربما ضحكت «بسائها»

متفجر «الينبوع» مرده
من سرها، وتهيم شرده
يعيا به، فيخور أيداه
في شاطئيه، ثم يحصده
في «الناطقين» بما تخلده
«جن» حبيس الروح مجده
و«عقـيم» غامضها تولده
من غير ما جرس نعوده
هزواً بنا مما تمقه

بين القدماء والمحدثين

مشرحة الضفادع لأرستوفان

إن قيل إن تاريخ الأحداث يعيد نفسه فوجدنا ما يصدق هذا القول من الأحداث المعاصرة ، فتاريخ الأدب يعيد نفسه عادة أدق وصدق . والأدلة على أمانة هذه الإعادة لا محتاج إلى بحث أو إشارة ، وإنما يكفي فيها أن نطلع عليها . فهذا النزاع بين القدماء والمحدثين منذ وجد في تاريخ الآداب يكاد يعيد نفسه في التفاصيل الدقيقة في كل أدب وفي كل زمان ، وحق المحدثين وبناماتهم كحجج القدماء وبناماتهم هي هم لا تكاد تتغير بتغير الأزمان والأمم والآداب .

ولعل مسرحية أرستوفان التي سماها الضفادع والتي كتبها آخر القرون الخامس قبل الميلاد ، تصور لنا النزاع كما نراه اليوم يتفق في كل هام ، ولا يكاد يترق إلا في التافه والأقل . ولا تفتار تلك المسرحية بأنها أقدم صورة وصلتنا لهذا النزاع ، بل إنها أدقها وأكملها وربما كانت أجملها . فلقد صور لنا النزاع مسرحية شعرية أضاف إليها خيال الشاعر ونبوغه في فن المسرح حركة وحياة لا يجدها فيما قد صور لنا من هذا النزاع في كتب تاريخ الأدب أو أخباره . أكثر من هذا أن المسرحية هزلية خففت السخريّة المرة فيها من جفوة المتنازعين وحاستهم وجعلت العقل يمر بخطوات النزاع مروراً يسيراً خفيفاً لم يقلل يسره من عمقه ولا خفته من صدقه .

هذا أرستوفان عاش في أثنينا أواخر القرن الخامس وأوائل الرابع قبل الميلاد ، فشهد في جمهور المسرح صورة مصغرة من التحلل الذي بدأ يدب في كيان الأمة اليونانية . وهؤلاء شعراء المسرح ، أو معلمو الشباب كما يسميهم ، لا يفعلون أكثر من أن يمهّدوا لهذا الانحلال سبيله بما يقدمون للناس من

مسرحيات . وكانهم لم يكتفوا بما فعل السفسفاثيون وما أدخلوه من صنعة على الأدب والمتأدين ، فيها إفساد لعقول اشباب وملكايم فراحوا يقدمون ه أيضاً نصيبهم من هذا الإفساد مسرحيات لا تحفز على عظمه ولا تحسن على قبل ، بل لا تدل على خير .

إن المسرح الاثيني لم يكن كسارح اليوم يقف بابه من يقرز الداخلين ، ولا يسمح إلا لمن دفع الثمن بالدخول . كلا ! إنه مسرح حر يؤتمه الاثينيون أجمعون لا فرق بين غنى وفقير . كل من أراد دخله ولا يكلمه الدخول شيئاً . لست كان خطره أشد وافساده للناس أعمد مدى . كل أثيني عرضة لهذا الإفساد ومذا الذي كان يعيش في القرن الخامس قبل الميلاد في أثينا ولا يحب المسرح يدخله كما سنحت له الفرصة . وهؤلاء كتاب المسرح بدءوا ويتملقون شعور النظارة بما يقدمون إليهم من نكاح سمحة وموضوعات سهلة والجمهور يقتل ، والأدب الرخيص يؤلف في سرعة ، وعوامل الإفساد والاختلال تقوى وتشتد .

هذه هي الظروف التي مهدت لهذا النزاع أن يقوم في شدة وقوة ، فما تختلف تلك النذر عما ألفنا أن نجد كل قومة لهذا النزاع في تاريخ الآداب على اختلافها ؟

وهذا عميد شعراء المؤسسة الشاعر العبقرى أوريبيد الذي فتن به الأثينيون فرفعوه إلى عرش الفن ، وراحوا يقدمون له من إعجابهم قرباناً . وتشجع الشاعر وراح يؤلف ويؤلف ، ونظر أرسطوفان في أدب أوريبيد فلم يحسد في فيه الجديد حملاً على ما فيه من روعة ، وكل ما أحسه الشاعر هو أن هذا الجديد حامل قوى فيما أصاب الاثينيين في خلقهم ، فليصب حام غضبه على هذا الشاعر لأنه رمز التجديد ، بل هو في نظره رمز الإفساد باسم التجديد . وراح يؤلف المسرحية تتلوها الأخرى ، كلها في نقد هذا الشاعر ، والخط من مركزه . ولكن النتيجة التي يعرفها كل قارئ لتاريخ أى أدب من الآداب هو أن الجديد يجدد بحديثه ، وأن الجديد وإن يكن عاملاً من عوامل الإفساد هو صورة حميدة للواقع الذي لا نستطيع أن نبرأ منه . فإن تكن مسرحيات أوريبيد في نظر أرسطوفان قد أفسدت الخلق الاثيني كما أراد هو ، فلقد نقش فيه من قوة الشخصية وحب الحقيقة ما لم يكن لمثل أرسطوفان أن يقدره . وليس المجد الأخرى

أو السياسي ، للأسف ، هو الخفيس الذي تقاس به حصارة الأمة . فبنى ضعفت
ثمة سياسياً في هذا القرن ، لقد بنى في الحصارة أوجها في نفس هذا القرن
الذي سحق فيه على الاثنينيين أمثال أرستوفان . ولكن أرستوفان وفلاطون
من بعده وغيرهما لم يريدوا أن يروا شيئاً من هذا ، فليصبتوا سحقهم على الشعر
والشعراء وليكن النجاح الذي صادفه أوريبيد حافزاً على الحقده عليه والإمعان
في الخط من شأنه .

ومسرحية الضفادع ما هي إلا واحدة من تلك التي ألّفها أرستوفان هجاء
أوريبيد وإن تكن أجملها . فقد تفنن فيها خياله فجعلها هزلية بارعة حقاً . هذا
أوريبيد يقل التجديد . وبحث أرستوفان عن ممثل للقديم فلم يجد أفضل من
شاعر المساة العتيذ اسخيلوس بطل المساة القديمة وحامل لواء الأدب التقليدي ،
هذا الأدب الذي لا يتحدث إلا عن الحيل ولا يحض إلا على الشجاعة والإقدام
ولا يبصر إلا بالخيرات الطيبات . هذا هو المعلم الحق ، وأوريبيد هو المفسد
الحق . فلتكن المسرحية امتحاناً لهم أو ميزاناً يوزنان به ، فيرى النظارة إلى من
تكون الغلبة .

ولكن النظارة تحب أوريبيد ولقد نسيت اسخيلوس . وأرستوفان ناقد
مرّ يرى الجمل حيث هو ولا يتعمى عنه في سبيل ما يجب من مثل عليا للخلق
الآتي . ولقد خفف موت أوريبيد كثيراً عما كان بينهما من حقد وعداوة .
فلهذا الجديد إذا في هذا الميزان شيء من القيمة تجعل الامتحان شيق النتيجة ،
بهو متحان حق تعاق فيه قلوب المطارة وأسماعهم تنهف لسماع القول الفصل في
شعرين لكل منهما مزاياه . ترى تكون الغلبة للجديد أم للقديم ؟ لما قد قدسوه
ولما قد أحبوه ؟ فلننظر إذا في هذا الذي فعله أرستوفان .

تبدأ المسرحية بأن إله اللذة والفن والبهو قد برم بالحياة بعد موت شاعر
ثمة القذ أوريبيد ، وهو يريد أن يعيده إلى الحياة بأي ثمن . لقد ذهب إلى
نفاق الأرض بحكم الموت ، ولكن هرقل قد رحل من قبل رحلته المعروفة في
غيب الموت وعاد منها ، فها هو هذا الإله إذا حاول محولة هرقل فنزل إلى الجحيم
يستخلص روح أوريبيد ويعود به إلى ظاه الأرض ، إلى الحياة من جديد !
هيا يا عبد احمل حمولتك ولنذهب إلى طامات الجحيم نستخلص روح من كان
يسعدنا ويلهينا . ويقوم العبد وما يحمل ليتبع سيده ، ويتنكر السيد في زي

هرقل ، فاعل في هذا ما يساعد على اقتحام هذه الموت . وتمت الرحلة . ومطر
إله الفن في زى المطل الحربي العظيم مبعث ضحك منذ افتتاح المسرحية . ويلتقي
السيد وعبد بهذا وداك وكلهم يأتينها عن الطريق بأخبار ، وإداهما أمام بحيرة
الموت التي لا بد من عمورها ، ولا بد من رشوة النوتى بدناير معدودات
معلومات ، وإداهما بالورق الصغير يعبر بهما البحيرة والصنادع يعلو تقيقتها ويعبر
حتى يتصدع من صوتها الإله ويصبح ضجراً . ولكنها تقضى في نقيقتها الذي
يشبه شعر الشعراء الغنائيين ، فيما يقول النقاد في ذلك العصر ، يصدع ولا ينتهي
وأخيراً يصل إله الفن وعبدته وقد أمرضهما المتيق إلى شاطئ الموت والجحيم .
والإله في زى هرقل يريد أن يخيف أهل الجحيم بشجاعته ، ولكنه ما يكاد يصل
إلى قصر إله الجحيم حتى يضطرب ويخاف . وهذا عبده يشجعه ساخراً ، فيشجع
ويطرق الباب ، فيخرج إليه حارس القصر في جلال وهيبة وصوت يدوي كإله عد
يسأل من الطارق ، فيقول إنه هرقل . فيخرج إليه يريد أن ينقم منه مما فسد
في الجحيم يوم جاء إليها . ويخاف إله الفن ويحاوره ويفافله ليستبدل مع عبده
لباسه ، حتى يتأتى العبد ما قد قدر له من ضرب وتعذيب . ويقبل لعبد وإداه
المارون به والخارجون من القصر يحلون على أنه الإله هرقل ، فيفتاظ سيده
ويطلب إليه أن يعود إلى لباسه من جديد . ولكن الحارس يخرج من القصر
يريد أن ينفذ فيه العقوبة ، فيغافله مرة أخرى ويعود إلى لباس العبد ، وهكذا
حتى يحارقيهما الحارس . ولعبد إذا مادنا العذاب صاح أن سيده هو الإله وأنه
هو العبد ، وإذا كان وقت التوحيد والإحلال أصر على أنه هو الإله ونهر سيده
على أنه العبد ، بل سخر منه من السخرية . ولا يجد حارس القصر حلاً . إلا أن
يشبعهما ضرباً ليعرف أيهما الإله لأن الإله لن يؤذى بالضرب . والعجيب أن
العبد وسيده يثبتان لهذا الامتحان فلا يعرف الحارس أيهما السيد وأيهما
العبد . وأخيراً يقول ادخلا القصر ورب القصر سيعرف الإله من العبد ، فالأله
لا شك متعارفة . فيقول العبد : حل جيم لا عيب فيه إلا أنه أتى بعد أن شبع
ضرباً . ويدخلان القصر .

وقبل أن نرى ماذا حدث لهما داخل القصر لابد لنا من وقفة بهذا المنظر
الذي طال بين الإله وعبدته وتبادلها اللباس . فما قيمة هذا المنظر في الفكرة
العامة ؟ يقول النقاد إنه إشارة من الكاتب إلى ما كان من الأحداث لسياسة

في ثياب إذ ذاك . فمقدت الدولة زعيما من الرعماء الذين أخلصوا الأثينا ، فمرز
للكاس بالآله في هدا المنظر إلى أثينا ، وبالعبد المخلص إلى هذا الرعيم ، يتبادلان
اللباس ، فلم تكن أثينا وزعيمها إلا شيئاً واحداً في الواقع . ويصيب أثينا الخير
إذ سلمت نفسها إلى الرعيم كما يصيب العبد الخير إذا ما ألبسه سيده لباسه ،
وهما على كل حال أمام الخير والشر وحدة لا يضاران إذ ، ما اتفقا ، وكل منهما
قوى شجاع يستطيع أن يخوض الشدائد غير هيب ولا وجل .

وأوقع أن كتاب المسرح بل دباء أثينا عامة لم يكونوا ليستطيعوا ، وخاصة
في هذا العصر الذي ازدهرت فيه الديمقراطية ، أما ازدهار ، إلا أن يشيروا إلى
الاحداث السياسية التي كان الأثينيون يحبونها وكأنها حياتهم الخاصة ، يطربون
لخيرها ويحزنون من شرها كما يطربون ويحزنون لخير حياتهم الخاصة وشرها .
ولعله مما يقوى هذا الفرض أيضاً ما أتى به الشاعر في شأن هذا الرعيم نفسه في
المسرحية في امتحان الشعارين فقد سماه الشاعر بالذات ، وكان إبداء الرأي فيه
من أسئلة امتحان الشعارين . ولكن أقصّد الشاعر حقاً إلى هذا ، أم هو أراد
مجرد إضحاك الناظرين من هذا العبد الذي ظل محور الفكاهة في أكثر من
صف المسرحية ؟ إن طريقة هذا الإصحك والتماذي في تكراره تجعل لهذا
امرض الأخير شيئاً من القيمة وتشكك المرء على الأقل في أن يكون الشاعر قد
أراد بهذا الفصل جداً أو سياسة .

وعلو الصوصاء في قصر إله الجحيم ، ويسأل إله الفن عن الأمر فيخبر . بن
حدثاً قد وقع في هذا القصر العظيم . فعلى عيين الإله عرش احتفظ به لملك
لمسرح من المؤلفين . وشغل العرش لزمان طويل شاعر أثينا الأحمج أسخيلوس .
سكن الموت حمل إليهم حديثاً شاعراً مجيداً هو أوريبيد ، فجاء هذا وحاول أن
ترل أسخيلوس عن عرشه ليحل مكانه ، وأبى ذاك أن يتنحى له ، فقامت المعركة .
اقترح إله الجحيم إقامة مباراة بين الشعارين ، من فاز منهما جلس على العرش .
وهذا إله الفن والهواثي ليستخلص أوريبيد ، فما ضره لو نظر هذه المباراة
وجمل معه إلى الدار الدنيا من هو أحق بالإحياء من الشعارين . وبدعو إله
الجحيم إله الفن ليحكم في هذه المباراة التي احتشد إليها رهط الجحيم كلهم
متحمسين مترقبين . وتبدأ المباراة .

وفي هذه المباراة يصور لنا النزاع بين القديم والحديث ، فأسخيلوس شاعر

القدماء ، وأوريبيد شاعر المحدثين . ويقف أوريبيد معتدًا بنفسه إن جمهور أثينا معه ، هم الذين يصبوه على عرش المسرح في الحياة ، وهم الذين نسوا أسخيلوس وشعره . هم الذين اهتزت قلوبهم لما ألف لهم من شعر ، فالجمهور معه كما هو مع المحدثين في كل نزاع قام بينهم وبين القدماء . ومن طريف ما يقول الشاعر المحدث لخصمه القديم عند ما يدعى إلى تلك المباراة قوله : إنه لا يتفق مع الشاعر القديم على قدم المساواة في مثل تلك المباراة . وما سأل الإله لماذا ؟ قال : لأن شعر أسخيلوس معه هما في الطمات لأنه مات معه ، أما شعري أنا فليس معي لأنه حي هناك على الأرض .

إن يكن النظر في تفاصيل هذه المباراة عسيراً لأنه يشير إلى أيات بعينها ومواقف من مسرحيات معروفة لدى جمهور أثينا فإن جوهر الإشارات واحد . فالحديث يعيب على القديم تكلفه وبعده عن الواقع . والقديم يعيب على الحديث نزوله عما يجب له من جلال في سبيل تخلق شعور العامة حيناً وتصوير الواقع الدقيق على ما في الواقع من معاييب يجب أن تخفى حيناً آخر . والحديث يعيب على القديم صناعته المنطوية ، فيقول أوريبيد لأسخيلوس إنك لم تستعمل قط لغة بسيطة ، ولما ساءتني إله الشعر كان مرر كشاً مزخرفاً يبع من منظره الذوق السام فحرصت على أن أخلع عليه جمال البساطة والذوق الرفيع . والقديم يعيب على الحديث ألفاظه المبثثة وتصويره لعامة الشعب بل جعله الملوك كعامتهم . يقول أسخيلوس لأوريبيد : إيت لبست الأمراء والبلاء لباس الشحاذين فظهروا في خرق مهينة ليستندروا عطف الجمهور ، وأسأت استعمال الكلام فلم تستعمل إلا كل عامي عادي مبتذل .

ويجى بينهما النقاش وتثار قضية الأخلاق التي تثار في كل نزاع بين حديث وقديم . ويسأل الإله عما يفصل به الشاعر شاعراً ، فيجيب أوريبيد : بمايت في نفوس الناس من فضيلة وما يزرع في عقولهم من حكمة . وهنا تروح كنة القديم هذا الذي تناسى الواقع ليرسم المثل الأعلى فلا يرى الشعب إلا كل جميل وكل كامل مهذب على مسرحهم . وحجة الحديث تلك الحجة الأدبية في مثل هذا النزاع هي أنه إنما كان يصور الواقع والحقيقة . وحجة القديم أن من توقع ما يجب ستره في سبيل الأخلاق ، وحجة الحديث أن الحقيقة أولى من التمسك . ويأتي الفصل الأخير حيث يهزأ السكاتب من السفطائيين في عصره

وصناعتهم الكلامية المصنعة ، فيؤتى بمران يقف كل شاعر منهما أمام كفة من كفتيه ليقول أثقل بيت من أبياته فيحكم الإله أيهما كان أثقل ميزاناً . يقول أريبيد مثلاً : « إن الكلام معمد الإقناع ومذبحه » . ويقول أسخيلوس « إن الموت إله لا يقل الضحية » . ويوزن البيتان فترجح كفة أسخيلوس . فإذا سئل الإله لماذا ؛ قال : إنه ذكر في بيته الموت والموت أثقل المصائب فكيف لا ترجح كفته . وهكذا لعب بالالفاظ صريح ترجح فيه كفة الشاعر القديم أبداً . ويأتى امتحان آخر يقوى فكرة الرمز السياسى فى الفصل لئى تبادل فيه الإله والعبد الماسهما ، وهو سؤال صريح عن هذا الزعيم المنفى من أجاب عنه إجابة حيراً من صاحبه ففسد ناز ، فيجيبان ويظل الإله حائراً . ويتطور السؤال من رأى فى زعيم إلى سؤال عما يراه الشاعر وسيلة لإرجاع أثينا إلى ما كانت عليه من مجد ومن ورجاء ، فيجيب الشاعران وكان الشاعر الحديث أحسن إجابة ؛ يقول قديم لأنه أحدث عهداً بالمدينة وأحوالها . ويأتى ميعاد النتيجة والكل منصف على سماعها وخاصة أن الإله قد وعد أن يأخذ معه إلى أثينا الشاعر الفائز . وينسكت الإله فى التفضيل . إنه يشعر بما نشعر به جميعاً نحو القديم والحديث بما شعر به الناس فى كل العصور نحو المتنازعين فى هذا النزاع الأبدى . إن أحدهما يعجب والآخر يئذ ويضطرب ، فأيهما أفضل ؟ وأخيراً يفضل الإله الشاعر القديم . والطريف حجته فى ذلك إذ يقول : « ذاك تى أميل إليه » . وكأنما الذوق شخصى هو كلمة الفصل فى النقد . وهنا يثور الشاعر الحديث وقد جزع أن الإله سיתركه لموت فيقول له « يا قاسى القلب أتتخلى عني للموت ! » فيجيبه الإله بأسوبه البهك الذى لازمه طوال المباراة : « ولم لا فلعل الموت خير من الحياة ولعل فى الموت حياة وفى الحياة الموت » . وقبل أن يغادر إله الفن خجيم مع شاعره يقام له حفل يكرم فيه هو وشاعره وبذلك تنتهى المسرحية . لم يكن أرسطوفان أول من ابتدع صورة هذا النزاع بين الشعراء محكمة أو مسررة بين القديم والحديث ؛ فلقد سبقه الشعراء وغير الشعراء إلى ذلك وإن يكن ما فعلوه فى هذا المضمار لم يصلنا إلا ناقصاً مشوهاً ، ولكنه على نقصه وشوبه يدل دلالة واضحة على هذه الصورة . ولعل النزاع بين أسخيلوس وسوفوكليس كان قريب عهد بأرسطوفان . ولم يميز أرسطوفان بأنه صور لنا الإله فى سداجة فكهة كانت روح الإضحك فى المسرحية وخاصة عند ما ينهب الشعراء

إلى مواطن الجنال والقميح في مسرحياتهم فيوافق عليها في سذاجة من قد أحسها فعلا من قبل ولم يستطع أن يعبر عنها بل خاصة فيما صورته من عدم الكلفة الصريحة بين الإله وأبطل المسرحية مما جعل تلقيبه بالمغفل أو الجاهل أبسط ما يوجه إليه من الفاظ ، فقد فعل الشعراء ذلك من قبل في آلهتهم ، إذ أن تلك كانت أهم مميزات شعور الاثني القديم الديني نحو آلهته في المعبد وفي الحياة الخاصة . كل ما امتاز به أرسطوفان هو النظرة لنافذة ، نظرة الناقد الحق في الشعر وما يجب له ، وفي شعر هذين الشاعرين بالذات ، نظرة جعلت تصوير هذا النزاع على قدمه قويا كاملا ، قد أكسبه الفن المسرحي روعة وجمالا . وبذلك تند تلك المسرحية أقدم ما نعرف من صورة لهذا النزاع يصورها ناقد حق ، ولعلنا لا نكون مغالين إذا أضفنا : وأجمل صورة له أيضا .

مترجم القناع

أبو الطيب المتنبي

بين الغرور والطموح والحزن

روى في بعض أساطير الجان أن ملكاً من ملوك الجان كان يمتقت الغرور ويغالى في كراهة المزهوين بأنفسهم الشاخصين بأنوفهم . وأراد أن يعبر عن هذه الكراهة في شكل يسترعى الأنظار ، ويملاً الأسماع ، ويبقى ذكره على الأيام ، وأعلن أنه لا يزوج ابنته الحسنة إلا من الرجل الذي يثبت أنه أقل الناس نصيباً من الغرور ، وأبعدهم عن الزهو والخيلاء ، وأن هذا الرجل — إذا وجد — سيكون وارث عرشه المسكين وملكه الواسع وجلّ ماله . ولتحقيق هذه الغاية نصب امرأة كبيرة على الطريق الرئيسى المفضى إلى قصره ، وأخذ يراقب السابلة ، فكان كل من يمر بالطريق يسجّه ببصره إلى المرأة ليطلّع فيها صورته المحبوبة ، ويصلح من هندامه ، وبخاصة الذين كانوا يقدمون لخطوبة كريمته الحسنة ، فقد كانوا يحرصون على أن يكون لمنظرهم الرائع وزينهم الفخم الأثر المرغوب والوقع الحسن الذى يعين على قبول الخطوبة ويذلل العقبات . وطال الزمن ، وملّ الملك لحيل المراقبة والتنظر ، ودب إليه اليأس ، وإذا برجل عادى المنظر يمر إلى حاسب المرأة مستغرقاً في التفكير فلا يلتقى عليها نظرة عجلى ، ولا يعيرها لفتة غائرة ، وقد عرته الدهشة واستولى عليه الدهول حينما حمل إلى الملك للتمول بين يديه قائراً منتصراً . وكان هذا الرجل السعيد شاعراً ينحت القوافى ويقرض شعر ، واتفق في أثناء مرووره بالمرأة أنه كان ينظم إحدى القصائد ويروض قوافيها فألهاه ذلك عن النظر إلى المرأة وأظفره بيد ابنة الملك ، ووارثه املاك والسلطان والجاه والمال .

وواضح أن هذا الشاعر المجذود لم يبصر المرأة ، ولو كان رآها لما مربها غير حاس ولا مكترث ، ولكان له أمامها وقفة يتأمل فيها طلّعه وقوامه ، ويسوى

من رزته وهندمه . على أن هذه الأسطورة تنطوى على سخرية القدر القاسية
بهذه المذات الهام ، لأن الشاعر السعيد لو كان لحظ المرأة وعرض عنها لكان ذلك
دليل على غروره وافتتانه بنفسه لاشتغاله بتأمل نفسه في مرآته الداخلية الخفية
وهو لون من الغرور أقوى مراساً وأبعد أعراقاً من غرور المزهوين الكلفين
بالنظر إلى ملاحظتهم الخارجية البارزة في صقال المرأة . والواقع أن أي إنسان يتاح
له مخالطة الشعراء وسائر أصحاب القرائع الفنية يدهشه إدلالهم بمواهبهم وفطر
ندلهم بأنفسهم وخيالاتهم التي قد يعجز عن احتمالها أشد الناس إعجاباً بهم
وأعظمهم تقديراً لفنهم ، ويعجب لاشفاقهم من النقد الرفيق والملاحظة اليسيرة .
وحذار أن يخدع الإنسان في ادعائهم الترحيب بالنقد وتقبل الملاحظة ؛ فليس هذا
النوع من الصبر والاحتفال في طوقهم ، وليس الغرور بوجه عام مقصوداً على
أصحاب الأمزجة الفنية فإنه من الخلائق الشائعة بين الناس . فكل منا يخال نفسه
محور الوجود ، وغرس الحياة ، وأنه أنفذ الناس بصيرة ، وأصحهم إدراكاً ، وأن
العالم لا يستغنى عنه ، ولا يصلح بدونه . وهذا الغرور الملازم للطبيعة الإنسانية
هو الذي يهون علينا احتمال الحياة في أقصى الظروف وأسوأ الحالات ، وهو
الذي يشد من عزمنا ويعيننا على لقاء عثرات الحظ ونوبات التخاذل واليأس
وكل منا يحاول في حياته اليومية التألوة أن يتجمل للناس ، ويصانهم
ويتظاهر لهم بالتواضع ، وخفض الجناح ، وتوطئة الأكناف ، فإذا ما أجنه الليل
وحقت به الوحدة خلا إلى نايتة ودخل محرابه المقدس الذي لا يسمح لأحد
أن يظأ أرضه أو يدس حرمة ، وناجى غروره وقدم القرائين إلى كبرائه
المتوارية وزهوه المستور . وأكثرنا في العالم الخارجي يخلع رداء الغرور ويتناسى
الكبرياء ويمثل دور التواضع ويحاول أن يكون حليقاً بقول أبي تمام في رثاء
صاحبه الطوسي :

فتى كان عذب الروح لا عن غضاضة ولكن كبراً أن يقال به كبر

فالزهو والغرور وتوهم العظمة والمغالاة بقيمة الإنسان داء يعشى الناس جميعاً
ويلقثهم في غياهبه ، ولا معدى لهم عنه ، ولا خلاص لهم منه . ورجال الفنون ،
سواء المبرزون منهم وغير المبرزين أكثر استهدافاً لهذا الداء المتفشى وأشد
قابلية لإيواء جرائمه وإتمامها . وهم مطبوعون على الصراحة وحب الحرية والرغبة

في التعبير عن النفس والتحدث عن ميولها واتجاهاتها في غير موارد ولا جحمة ،
ولا قدرة لهم على التحفظ والمداواة والمفاق الذي تلقه الناس ليستروا هواحسهم
وهواتف نفوسهم . ولذا يبدو غرورهم واضحاً ، وتتجلى أنانيتهم ساقرة . وهم
يتجرعون من جراء ذلك الغصص ويلقون المقاومة والعداء . وفرط ثقة الفنان
بنفسه وإسرافه في حبها وكثرة تعلقه بأهدابها يقابلها من ناحية أخرى رغبة
منافسية وأنداده وحساده الجنونية الطاغية في انتقاص قيمته ، وإنكار فضله ،
وتشويه محاسنه ، وإذاعة مثالبه ، والحرص على النيل منه وهدم بنائه . ومن
دأب الانسان أنه كلما غالى بعرفان نفسه ، وارتقى بها رفيع الذرى ، هانت عليه
أقدار الناس وقضاء لوا في عينه . والفنان الذي ينتشى من خمر حبه لنفسه وهوس
إعجابه بنفسه قد يصل إلى حالة كنتلك الحالة التي وصفها دُعَيْل الخزاعي في قوله :

إني لأفتح عيني حين أفتحها على كثير ولكن لا أرى أحداً

فالناس حوله كثيرون ولكنه يشرف عليهم من أبراحه العالية فهو لا يكاد
يراهم ، وإذا شغل نفسه بهم ودقق في النظر إليهم رآهم كالحشرات التي تزحف على
أديم الأرض !

وفي اعتقادي أن شاعرنا الخالد العظيم أبا الطيب المتنبي كان من أشد شعراء
لعالم غروراً بنفسه وثقة بها ، وأكثرهم إدلالاً بقدرته . وقد ذهبت به الخيلاء
بعد المذاهب حتى أوفى على الغاية في الكبرياء والتنفج ، ولازمه ذلك في شتى
دوار حياته من إبان نشأته وشبابه حتى قبيل مصرعه ومماته .
فهو في صباه ومطالع شبابه يقول :

أى عمل أرتقى . أى عظيم أتقى
وكل ما قد خلق الله وما لم يخلق
محتقر في همى كشجرة في مفترق

وفرط الغرور — مهما كانت مواهب الانسان — من الأشياء السمجة
المكروهة وإن كانت لا تخلو في بعض الأحيان من عنصر الفكاهة وإثارة
الضحك . وقد يحتمل الناس غرور المغتر بنفسه لتوقد ذكائه وغزارة اطلاعه
ولكنهم لا يستطيعون أن يحتملوه طويلاً . ولذا قد يكون للغرور أتباع

وأصار يحملون عرشه ، ولكنه لا يكون له أصدقاء يبادلونه العطف . والظاهر أن بعض أصحاب المتنبي نعى عليه غروره وإمعانه في التيه فاعتذر عن ذلك بقوله يسوغ غروره :

إن أكن معجباً فمعجب عجيب لم يجد فوق نفسه من مزيد

وأكد الملح أن أصحابه يؤسوا بعد ذلك منه وتركوه يحتمل مغبة إسرافه في الغرور والتعالى . وقد أخذت أبا العلاء المعري نوبة من نوبات الادعاء العريض والغرور الثقيل ، فنظم تلك اللامية المعروفة التي يقول في مطلعها :

ألا في سبيل المجد ما أنا فاعل عفاف وإقدام وحزم ونائل

ولكن هذا النوع من الفخر الأجوف كان لا يلائم مزاج أبا العلاء ولا يتفق مع نظريته إلى الطبيعة الإنسانية وفلسفة حياته . ولذا سرعان ما انتقل إلى النقيض فكان يكثر من لوم نفسه وتعنيفها وانتقاص قدرها . ومن أمثال ذلك قوله .

دعيت أبا العلاء وذاك مين ولكن الصحيح أبو النزول

وقوله — وهو غاية في التواضع — :

ولو كنت ملقى بظاهر الطريق لم يلتقط مثلي اللافت

وفد كان أبو العلاء من كبار شعراء العالم الساخرين ، ولذا فطن لما في شعر الفخر والحماسة من ادعاء صارخ ، وغنترية مضحكة ، ونفخة كاذبة . وصنف ملكة الفكاهة في المتنبي هي التي أذهلت عن إدراك سخف كثرة امتداحه لنفسه ومغالاته بقدرته . والذي يقلب صفحات ديوان المتنبي يخيل إليه أن هذا الرجل الجاد الفاضل لم يضحك سوى مرة واحدة في حياته الطويلة أو المتوسطة ، وذلك حين مر في شبابه برجاين قد قتلا جرذاً وأبرزاه يعجبان الناس من كبره ، فأضحك هذا المنظر شاعرنا الكبير وأثار حاسة الفكاهة الراقدة في نفسه ، فنظم هذه الأبيات :

لقد أصبح الجرذ المستغير أسير المنايا نصريع العطب
رماه الكتمانى والعامرى وتلاه للوجه فعل العرب

كلا الرجلين أثلى قتله فأيكما غلّ حر السلب ؟
وأيكما كان من خلفه ؟ فإن به عضة في الذنب

وهجؤه لكافور تندر فيه الفكهة المستخرقة ، وأكثره إقذاع وسباب يدل
على جفوة الطبع وشدة الحقد واتقاد الغضب والغیظ . ولقد قال فيه :

فإن كنت لا خيراً أفدت فإننى أفدت بلحظى مشفريك الملاحيا

ولكن الحقيقة أنه بلحظه مشفري كافور لم يمد الملاحى وإنما أضاف
لكثير إلى أدب القذف والسباب والشتم والإسفاف . ومعروف أن كافوراً
ملّ كبرياء المتنبي وتعالیه ، وضاق بفروره وإدلاله ، كما ضاق به قبله سيف الدولة
على إعجابه بالمتنبي وعظيم تقديره لأدبه . والعجيب أن المتنبي كان فى بعض
مدحه لكافور الذى يمتطوى على شئ من السخرية الخفية أطف روحاً وأخف
تلا . فمن منا لا يقف عند هذا البيت ويعجب وربما يرتسم على وجهه
الابتسام :

تمسح الشمس كلما ذرت الشمس بشمس منيرة سوداء

أليست هذه الشمس المنيرة برغم ما يعلوها من السواد — والى هى كافور
لأحشيدى — وهى مع ذلك تحجل الشمس وتفضحها وتزرى بها وتكسفها
وتعمرها رغم سوادها الذى يشرق منه الضوء المافذ ، أليست هى من الأشياء
مجبية التى لم يكن لها نظير إلا فى مخيلة المتنبي ؟

والظاهر أن المتنبي بعد أن نظم هذا البيت ولحظ ما فيه من الإسراف فى
المغالطة وطلب المحال وما يشى به من الملق والمداهنة ، أدركته كبريؤه وعأوده
غروره ، فتم القصيدة بقوله :

وفؤادى من « الملك » وإن كا ن لسانى يرى من الشعراء

فهو يعزى نفسه بأن فؤاده من الملك ولكن لسانه المسكين الولوع بالمبالغة
والمغالطة والمداهنة من الشعراء !

ولعل مدحه لكافور المشوب بالسخرية الخفية كان أوضح في القصيدة
النونية التي يقول فيها مخاطباً كافوراً :

ومالك تعنى بالأسنة والقنبا وحذك ضعتان تغير سمان
أردى جيلاً جددت أو لم تجد به فإنك ما أحدث في ثانی

والضربات الصاعدة والألفاظ الجارحة التي كالمها المتنبي لكافور لم نصحك
منه ، وإنما جعلتنا نعتب على المتنبي لإشهاره هذا السلاح الرهيب سلاح الهباء
في غير لباقة مستحبة ، ولا فكاهة مستعذبة ، وإنما في شيء كثير من القحة
والمساحة وثقل الدم وجفوة الروح . وأقطع من هجائه لكافور تلك القصيدة
البائية التي مطلعها :

ما أنصف القوم ضبته وأمسه الطرطبه

فقد فاق فيها المتنبي نفسه سوء أدب وقلة حياء وانحدر فيها إلى الخسيس
الأوهـد . ومهما قرأ الانسان عن تناقض أخلاق العقيرين وتفاوت طباعهم
وآثارهم فإنه لا يسمعه إلا التعجب من مصرع هذا العقل الجبار في تلك القصيدة
المشئومة ، وتهافت هذه العبقرية الراححة ، وكيف أسف هذا النسر المخلق في
عالي الفضاء على الجيف والأقذار ، وتورط في الحزون والأوعار . وقد كانت هذه
القصيدة على سخافتها وركاكتها سلب قتله وقتل ابنه وغلماؤه وذهاب ماله
ودمه هدراً .

وفي بعض الأحيان كان يتلاقى في نفسه الغرور والطموح ، أو يستحيل الغرور
طموحاً وينقلب طلباً لعظيمات الأمور وحماً بالمجد ، كما في قوله :

تحقر عندي همتي كل مطلب وتقص في عيني المدى المتناول
ومن يبع ما أبغى من المجد والملا تساوى المحايا عنده والمقاتل

ويزين له هذا الغرور والولع بالمجد أنه سيصنع الصنائع ويفعل الأفاعيل
ويقتل الناس والملوك ويشار لنفسه ويسترد حقه المنصوب فيقول :

ميعاد كل رقيق الشفرتين غدا ومن عصى من ملوك العرب والمعجم
فإن أجابوا فما قصدي بها لهم وإن تولوا فما أرضى بها هم

وقد يصل به المعاصر ، والمتحسد ، والتظاهر بالقوة إلى حد السحق .
تأمل قوله :

يحاذرنى حتى متى حتمه وتنكرنى الأفعى فيقتلها متى
تلوال الرذيبات يقصنها دمي وينفض السريحيات يقطعها لحي

وغريب أمر هذا الرجل الذى يكون حتماً حتمه ، والذي تنكره الحية فلا يؤثر فيه سمها وإنما يقتل سمه الحية ! وولمه بالجر هو الذى أغراه بادعاء هذه الحالة المضحكة وقد يأخذ غروره وادعاءه العظيمة صورة التطلع إلى الإحرام وسفك الدماء ، كما فى قوله :

أفكر فى معاقرة المنايا وقود الخيل مشرفة البوادي
زعيم للقسا الخطى عزمي بسفك دم الحواضر والبوادي

وفى سبيل ماذا يسفك دم الحواضر والبوادي ؟ فى سبيل طلب المعالي فصاحبنا إذن يريد أن يكون من طراز أتتلا وجيكيز خان وتيمور لك . ونحمد الله لأن الأيام أخلقت ظنه ولم تحقق له أمنيته .

وباعد غروره ما بينه وبين الناس ، وأفسد علاقته بهم ، فصار يشعر بعزله وعزله ، ويعزى نفسه بمثل قوله : « إن النفيس غريب حيثما كانا » . والاحتفاظ بالغرور ، والكلف الشديد بالنفس ، والتفكير الدائم فيها يثير فى النفس شعوراً آخر وهو الشعور بالاضطهاد والظلم والاعتقاد الراسخ بأن هناك من ليس لهم عمل فى الحياة والدنيا سوى أن يكيدوا لنا ، وينصبوا فى طريقنا الأشرار والفخاخ ، ويعملوا على هدمنا دائماً والقضاء على حياتنا . ومن ثم هذه الشكوى الدائمة فى شعر المتنبي من حسد الخسوس وكيد الكائدين ولذا أحب أن أعترف لأبي الطيب عن شكى فى قوله :

أنا ملء عيونى عن شوردها ويسهر الخلق حراها ويختصم

فالرجل الذى يكثر من ذكر حساده ومنافسيه لا بد أنه كثير التفكير فيهم . حريصاً على إغاظتهم ورد كيدهم . وقد وصف لنا إحداق الأعداء به من كل

جانب حتى آثر مجاورة الوحوش الضارية والأسود العادية في قوله لما مر بالفرايس
من أرض قنسرين وسمع زئير الأسد :

أجارك يا اسد الفرايس مُكثَرَمٌ فتسكن نفسي أم مهان فسلم
ورائي وفدائي عُداة كثيرة أحاذر من لص ومنك ومنهم
فهل لك في حلفي على ما أريده فإني بأسباب المعيشة أعلم
إذا لأتاك الرزق من كل وجهة وأثريت مما تغمين وأغرم

ولم يستطع المتنبي أن يواجه هذه الحقيقة ، وهي أن معظم من يكرهونه
كانوا يضمرون له البغضاء لإمعانه في الكبرياء . ففي « الصبح المتنبي » أن صاحب
ابن عبّاد طمع في زيارة المتنبي إياه بأصفهان وهو إذ ذاك شاب ولم يكن استور
بعد ، فكتب يلاطفه في استدعائه ويضمن له مشاطرته جميع ماله ، فلم يقيم المتنبي
وزناً ولم يجبه عن كتابه ، ولم يكتب بذلك بل قال لأصحابه « إن غليماً معذراً
بالى يريد أن أزوره وأمدحه ولا سبيل إلى ذلك » . فصيّرهُ صاحب غرض
يرشقه بسهامه ويتعقب سقطاته في شعره وينعى عليه سيئاته . وكان المتنبي
يستطيع أن يعتذر عن الذهاب إلى هذا الشاب الطموح في شيء من الرفق واللين .
ولكن كبرياء المتنبي تنأى به عن اتباع هذه السياسة . وهو لا يلائن الناس
ولا يحاسنهم إلا إذا كان مضطراً إلى ذلك ولم يجد عنه مندوحة ، فما سحر
لائهامه بادعاء النبوة وإحداث الشعب لم يجد مانعاً من أن يكتب إلى والي حمص
من قصيدة ينفي بها عن نفسه التهمة قائلاً :

أمالك « رقي » ومن شأنه هبات اللجين و « عتق العبيد »

وهذا هو حال أكثر التباهين المتكبرين ؛ فإنهم لا يشبتون طويلاً لمنداه
النواب ومقارعة الخطوب .

وقد كانت هذه العظيمة المتوهمة التي تسحبها المتنبي حول نفسه لوناً من ألوان
العوض عما أصابه في طفولته وابتداء نشأته من الإهانات وأنواع الإساءة
والتحقير بسبب فقره ويطمه وضعة أصله . ومعظم الذين عرفوا بالكبرياء
والزهو استهدفوا في حياتهم لا امتحانات قاسية وتقذات مهينة وامتحانات جارحة
وقد لوحظ أن شدة شعور الإنسان بناحية خاصة من نواحي النقص تحدوه على

متغاء المجد وطلب العظام . و« أدلر » العالم النفسى المعروف يردّ كل موهبة
إساية سامية إلى الرغبة فى التعويض عن لون أصيل من ألوان النقص والعيب .
وقد لا يصدق رأيه فى كل موقف ، ولا يفسر كل حالة من الحالات النفسية ،
ولكن لا راع فى أن الشعور بناحية من نواحي النقص يحفز النفس إلى
ستدراك هذا العيب واستكمال ذلك النقص . وتوهم العظمة عريق فى نفوسنا
الطامع يتلهف على أن يكون صخفاً فارعاً ، ويود أن ينمو ويكبر فى مثل غمص
العين ورجعة الطرف .

وطموح المتنبي المتراعى القلاب ، وحلمه بالمجد المؤثّل والملك الشاسع ،
وعتقاده بأن له حقاً سيطلبه بمشايع « كأنهم من طول ما تشموا مرد » من
قوى بواعث هذه الشكوى المرة التى تطلعننا فى شعره والحزن الولاى الذى
مصح به قصائده . ومن أهد الأمل وأسرف فى الطمع كان خليقاً أن يعود
الحرمان ، ويبوء بالخسار . ولا عجب أن يكون المتنبي وهو أعظم شعراء
عربية طموحاً ، وأضحهم أملاً هو نفسه الذى يقول :

ذافنى زمى بلوى شرقت بها لو ذاقها لكى ما عاش وانتجبا

ويتحدث عن الخطوب التى أنشبت فيه مخالبها فيقول :

وحدثنى ووجدن حزناً واحداً متناهيّاً فجعلنه لى صاحباً
وبصننى غرض الرماة تصينى محن أحداً من السيوف مضارماً
نمتنى الديا لما جئتها مستقيماً مطرت على مصائبها

ولما نالته الحى بمصر خاطبها بقوله :

أنت الدهر عدى كل بنت فأن وصلت أنت من الإحام
جرحت مجروحاً لم يبق فيه مكان للسيوف ولا السهام

وفى رثائه المؤثر البديع لام سيف الدولة يقول عن نفسه :

رمانى الدهر بالأرزاء حتى فؤادى فى غشاء من نبال
فصرت إذا أصابتى سهام تكمرت النصال على النصال

فطموح المتنبي هو باعث حزنه، وكبرياؤه هي سبب كثرة خصومه وأعدائه،
وافراطه في طلب الدنيا هو سبب ما يروى عنه من الشح والبخل . ولقد أعد
المتنبي الهدف ، وغالى في الطلب ، فلم يلق سوى الحزن وخيبة الأمل . والدرس
الذى تتعلمه من حياته هو أن نعتدل ونقتصد في طلباتنا ، نبغى الأهداف
المعقولة . وقد كان المتنبي بعيداً عن الزهد والقناعة والترفع عن المطامع فظل في
حياته محزوناً شقياً . وكان كلما أخفق في نيل بغيته ، وأحس بمعزته ، لاد
كبريائه وتدرع بغروره ، وملاً ما ضغيه بالافتخار المسرف مرة ، وبالشكوى
المرّة مرة أخرى . ولم يستطع طوال حياته أن يوازن بين أمله وقدرته ، وظل
طفلاً يطمع في الملك ويحلم بالنفوذ والسلطان وضرب أعناق الملوك قبل السوق
وكان يسمع إطرء المعجبين بأدبه المأخوذين بشعره فيزداد ثقة بنفسه وإعجاباً
بمواهبه إلى حد أن يرى نفسه «عجيباً في عيون المعجبين» . ويمكن أن نعزو إلى
تأثير أدب المتنبي الإكثار من شعر الفخر الأجوف الذى ملأ دواوين الشعراء
بعد عهد المتنبي . ومن أمثال ذلك تلك القصيدة الخرافية التى نظمها ابن سناء
الملك ومطلعها :

سواى بهاب الموت أو يرهب الردى وغيرى يهوى أن يعيش غلداً

ولولا تأثير المتنبي السيء — فى هذه الباحية — لكان شاعر متزن مثل
البارودى أوفر عقلاً وأصح مراجعاً من أن يرسل مثل هذا البيت العتري
السخيف :

إذا استل مناسيد غرب سيفه تفرّعت الأفلاك والتفت الدهر

على أدهم

التعقيد في شعر المتنبي

قرأت في مجلة « الكاتب المصري » مقالا للأستاذ الدكتور محمد كامل حسين (١)، ثم فيه التعقيد في شعر المتنبي، وحوال أن يردّه إلى أسبابه الأصلية في نفس الشاعر، ولكنه فيما نخيل إلى - لم يبلغ ما أراد، بل لعله أن يكون قد مال عنه؛ لأنه سعى إليه من غير وجهه. فالتعقيد لم يكن عند المتنبي طبيعة راسخة، ولا صفة ملازمة؛ فتتصل بنفسه، وتستمد منها الوجود والثبات، ولكنه كان عرضاً طارئاً تقتضيه أسباب موقوتة؛ فبقى ما بقيت، يمحى على أثرها حين تزول. وليس المتنبي في هذا بدءاً ولا وحيداً؛ فما من شاعر ولا كاتب إلا له منه حظ قليل أو كثير. غير أن منهم من يحذر النقاد، ويحفل بالرأي الأدبي العام؛ فينجي على معتداته بالتهديد أو الحذف، فلا يصدر عنه إلا الواضح السمع، أو الأخذ من الوصوح والسماحة بنصيب. ومنهم من لا يقيم وزناً للنقاد ولا للرأي الأدبي العام؛ فيصدر عنه كل ما يقع له، لا يبالي بتعقيد ولا سخفاً ولا إسفافاً. وإذا كان حظ الشاعر من التعقيد أكبر فلائمه بتقيد في الشعر بكثير مما لا بتقيد به الكاتب في النثر. وأسباب لتعقيد كثيرة، يرجع بعضها إلى الشاعر نفسه: كنفوس طمعه، وقصور حسه، ولعل، أو عياء، أو اختلال مزاج، أو نحو ذلك. ويرجع بعضها الآخر إلى الموضوع الذي يعالجه كعذته، ودقة مسالكة، وصعوبة تناوله، واستنباط حقائقه، وما يشه ذلك. وليس يعني على كل حال أن تتبع هنا أسباب التعقيد بالاحصاء والبيان؛ فلسنا منها الآن سبيل إلا على قدر ما يتطلب الموضوع؛ فلنتنصر على هذا القدر: لا تتوسع ولا تزيد.

والأستاذ الدكتور يرى أن التعقيد في شعر المتنبي يرجع بعضه إلى حرص كان عنده، ويرجع بعضه الآخر إلى أمل كان يرجوه، ولكنه أخفق فيه.

فأما الحرص فلست أدري على التحقيق ما مراده به؟ أتراه يريد أن يقول مع القائلين إن المتنبي كان بخيلاً، يحب المال، ويحرص على جمعه وأدخاره، ثم يزيد حضرته أن هذا البخل كان متمكناً منه، وشديداً إلحاحاً عليه، حتى لقد كان له عمل في فنه، وسلطان على مواهبه؟ أتراه يريد أن الشاعر كان لشعره محباً، وبه مفتوناً، وأن ذلك كان يقريه بالبقاء عليه، والضم بكل ما ينتج منه، دون تفريق بين المعقد وغير المعقد؟ وأياماً يكن المراد الذي يقصد إليه الأستاذ الدكتور، فلا شك أن البخل بالمال أو الحرص على الشعر لا يملل التعقيد نفسه، ولا يكشف عن سر التورط فيه، ولكنه يملل الاعتزاز بالشعر المعقد، ويكشف عن سر الإبقاء عليه.

ونبي آخر : أن البحر يملأ ، أو الحرص على الشعر لا يستطيع وحده أن يهون التعبد على الشاعر ، ويرخص له في اصطناعه وإذاعته في الناس ؛ فقد يحب المرء آثاره الأدبية ويود حاشداً لو أتيح له الإبقاء عليها كلها ، ولكن يمنه من ذلك خوف التقاد ، أو الرع في استرضاء القراء .

ولم يكن المتنبي بعد هذا كما يصوره بعض الرواة - شجاعاً ، جماعاً للمال ، يستند في همه والحرص عليه ، ولا يرى بأساً أن يفرط في سببه بعض مالا يجعل بالرجل الأبى الكريم^(١) يفرط فيه ؛ فبس في المروء من سلوكه ما يؤيد ذلك أو يشير إليه ، وإنما تلك فيما اعتد به من افتراءها عليه بعض حصومه والمنافسين له ، كما افتروا عليه غيرها من العيوب - فالحق الذي يترع منازع المطعة ، ويتشبه في خروجه بأصحاب السلطان ، فلا يركب إلا في موكب من المليك ، يحفون من حوله وهم مدحجون بالسلاح (١) . والرجل الذي يفسد على فداد يذهب بنفسه عن مدح الوزير المهلب ؛ لاشتهاره بالسف ، وتولمه بالحماة والمزل (٢) ، يتودد إليه سري من تحارها الأدباء ؛ فيخدمه ، ويكره متواه عبي أن يمدحه ، فلا يفعل . يقول له في الاعتذار من ذلك : لو كنت مادحاً ترحأ لمدحتك (٣) ، ثم يسأله أو يسحق الصابي أن يمدحه بقصيدتين ، ويجعل له عليهما خمسة آلاف درهم ، ويوسط بينهما في ذلك رجلاً من وحوه التحار ؛ فيقول له : قل لأبي إسحق : ما رأيت بالمرأق من يستحق المدح عيرك ، ولا أوجب على في هذه البلاد أحد من الحق ما أوجبت ، وإن أما مدحتك شكر لك الوزير المهلب ، وتغير عليك ؛ لأنني لم أمدحه . فان كنت لا تبالي هذه الحال فأنا أحييك في التمسك ، وما أريد منك منالا ، ولا عن شعري عوضاً (٤) . والرجل الذي يدعوه الصاحب ابن عباد إلى زيارته ، ومدحه أن يشاطره جميع ماله ؛ فلا يستجيب له ، ولا يرد عليه كتابه (٥) ، والرجل الذي يستزيه عضد الدولة وهو عند ابن العميد ؛ فيأني ، ويرغبه ابن العميد في المس إليه ، بما يصف له من سخاء الملك وجزالة عطاياه للكفاء وأصحاب المواهب ؛ فيقول له : إن لدى أجود به على الملوك من الشعر خير مما يوجدون به على من المال ؛ لأن شعري خالد . وماهم زائل ، ثم يقول : إن امرؤ ضجر ملول ، وأريد أن يكون إلى الأمر في الأوه والظن ، لكن الملوك يستبدون بي ، ويأبون على الخروج حين أريد ؛ فأضطر إلى مدحهم والرجل عنهم على أقبح الوحوه ، ثم لا يزال مصرأ متششاً ، حتى يكتب ابن العميد في ذلك إلى الملك ، ويرد جواب الملك أن الشاعر حر ؛ يقيم ما شاء ، ويرحل متى شاء (٦) .

والاحقاق في الأمل لا أرى له كذلك أثرأ في التعبد عند المتنبي ؛ فالمفهوم أن الأمل له هام به ، وشق في طلبه ، وأطال الحديث عنه منذ كان شاباً بافماً ، إنما كان ولاية لسلطان والمعروف كذلك أنه لم يستشس منه ؛ وينصرف عنه إلى غير رجة إلا عند عضد الدولة بن بويه . وقد أشار إليه في مدح دليز وابن العميد إشارة مهمة . لكنها تدل على كل حال أنه حتى ذلك

(١) الصبح المنبي ١ : ١١٣ (٢) خزنة الأدب لعميدادى ٢ : ٣١٠ (٣) النعمان الزاهرة ٤ : ١٧٣

(٤) مجمع الأمه ١ : ٣٤٦ (٥) الصبح المنبي ١ : ١٨٠ (٦) خزنة الأدب ٢ : ٣١١

التعقيد في شعر المتنبي

• فت كان رأيا يكره . ويكره فيه . ويحدث عنه . فان من قصيدته في مدح دلفيز .

نرى أن ما لا ينال من الملا قصب الملا في الصب والسهل في النمل
نريد لقيان المصالي رخصة ولا يد دون الشهد من إير النحل
حدرت علينا الموت والحيل تلقى ولم تعلمي عن أي عاقبة تجلي

وقال من قصيدة في مدح أبي العبيد :

سفت السوار لأي كف بمرت بأبي العبيد وأي عبد كبرا
إن لم تثنى خيله وسلاحه فثق أقود إلى الأعداء عسكرا ؟

فكان للاعناق من في تعقيد شعره كما يقول الأستاذ الدكتور لوجب أن يكون لتعقيد شعره عند عصر الدولة أكثر منه في شعره قبل أن يرسل إليه ، وقد أصبح له منذ ذلك الحين ملان انسان بدل عمل واحد . أحدهما ثابت ملازم ، وهو الحرص أو البخل . والآخر صري حديد . وهو الاعناق في ولاية السلطان . لكما يدرج إليه لا ترى فيه شيئا من تعقيد . مع اختلاف نوعه . وتعدد موسوعاته ، وكثرة مقاداره بالإضافة إلى المدة القصيرة التي قيل فيها . وقد نظم وهو عند عصر الدولة ست قصائد طولا إحداهما أرجوزة ، ونظم سيدة سامة في سعة أبيات ، وتناول فيها من الأغراض النزل ، والمدح ، والتعزية . والحكمة والوداع ، والوصف للشعوب الموضوعات .

ماذا عسى إذا أن يكون سبب التعقيد في شعر المتنبي ؟ الذي يدور في أن سببه عنده هو سببه عند غيره . لا تمايز هناك ولا شذوذ . وإذا كان حفظ شعر المتنبي مهكبا فلائنه كان سبب نفسه ، ويمتد بتواضعه ، حتى ما يكاد يكرر في جمهوره ، أو يحفل بنقاده ، كما يمثل في تعاريف التي كانت تدور بينه وبينهم بعض الأحيان ، وكما يقول في بيته المشهور :

• أنام مله جفوني عن شواردها ويسر الخلق جراها ويختمهم

م إنه كبيره من شعراء العقل والحكمة كان يطلب للمعان العميقة . التي لا تنال بغير مصارة والكد . ولا تستقيم إلا بعد مداورة وطول الاحتيا . وكان إلى جانب ذلك يحرص على أن تكون عبارته حقة ، وألفاظه حذرة ، وموسيقاه محللة ، فيها قوة ولها رنين . ويرى الأستاذ الدكتور بعد ذلك أن المتنبي من أحدث الناس خيالاً ، وأقلهم تصويراً . هو رأى لا توافق عليه ، ولا ترى في شعر الشاعر ما يميزه . ولست أعني هنا شعر الوصف . يشبه مما يكون للتجليل فيه حال مسيح . ولكنني أعني مع ذلك شعر الحكمة أيضا ، حيث سب التفكير المجرد ، ويأخذ الغرض على تط بقل به تصبغ الحيات . فهو في هذا الغرض مثله في نية الأغراض ، مصور موهوب . حبس الحيات . ثقب الدهن ، واسع الإحاطة ، بارع الملاحظة ، عميق الفكرة ، دأبه في الابانة والتعبير أن يث الحياة والحركة في كل ما يتناول من معنى . وكل ما يؤلف من مشهد ، حتى إذا است مواءه ، وحاش ساكبه ، وتحرك جامده .

التعبد في شعر المتنبي

أدار وحداته على ما تقتضيه الساعة ، ويوحه السق وحسن الاقتان ، فإذا الأشاء تلاقى
والأضداد تتأمر ، والبعد يدنو ، والمائب يتمثل ، والمواظف تتراءى ، والشائع يتميز ،
ينوارد هناك من أمثال ، ويتلاحق من تشابه ، ويعمل من حدود ، ويقوم من موازين .
وإذا نحن نحاه معرض عوج تشاهد حية من الشعر انتعسف أو الفلفة الشاعرة ، تستأثر
بالاتباء ، وتحرك للشاعر ، وتفتح العقل والوجدان معا ، وهذا مثلاً قوله من قصيدة توبة
لعنن الدولة :

لا بد للإنسان من ضجعة	لا تقلب المضجع عن جنبه
ينسى بها ما كان من عجه	وما أذاق الموت من كره
نحن بنو الموتى فما بالنا	نصاف ما لا بد من شره
تبخل أيدينا بأرواحنا	على زمان هي من كبه
ضده الأرواح من جوه	وهذه الأجسام من تهره
لو فكر الصائق في منتهى	حسن الذي يسيه لم يسه
لم ير قرن الشمس في شرفه	فتككت الأنفس في غره
يموت راعي الضأن في جهه	موتة جاليلوس في طبه
وربما زاد على عمره	وزاد في الأمن على سره
وغاية المفرط في سلمه	كفاية المفرط في حربه
فلا قضى حاجته طالب	مؤاده يحقق من ربه

ومثل آخر من قصيدة يمزى فيها سيف الدولة :

خطبة للحمام ليس لها رد	وإن كانت للسماء شكلا
وإذا لم تجد من الناس كفوا	ذات خدر أرادت الموت بهلا
ولذيذ الحياة أنفس في الف	س وأشهى من أن يحل وأحلى
وإذا الشيخ قال أف فامل	حياة وربما الضرب ملا
آلة العيش صحة وشباب	فإذا وليا عن المره ولي
أبدأ استرد ما تبب الد	يا فياليت جودها كان بخلا
فكفت كون فرحة تورث الفم	وخل يفادر الوجد خلا
وهي معشوقة على القدر لا تح	فظ عهداً ولا تتم وصلا
كل دمع يسيل منها عليها	وبفك اليدن عنها تحلى
شيم الفانيات فيها فلا أد	رى لذا أبت اسمها الناس أم لا

فمع اتحاد القصبتين في الموضوع ، واتحاد المقطعتين في الغرض — استطاع أبو الطير أن
يمرض علينا هنا وهناك طائفة موعة من الصور الحية رأينا فيها الحياة في صبيها ، والانس
في تشبه بها ، وغفقت عن أحداثها ، وعن المعير الذي لا بد أن ينتهي إليه في يومه الوعود
وعندى أن هذه الحياة التي ينعمها المتنبي في شعره . وتوشك أن تكون حصبة من حصن

مه الكبرى هي اهم أسرار خلوده وسيرورة شعره في الناس . فكثيراً ما يتناول المعنى الشائع أو المعنى الذي سبق إليه في فيصمه على طريقته . ويطبعه بطابعه ، ثم يرسله فيتردد على كل لسان ، ويدخل إلى كل مكان .

أما أن الأستاذ الدكتور يفتيق بطول القراءة في شعره ، ولا يأنس إلا بفراقه منه ، فإظن أن الناس ولا كثيراً منهم يشاطره هذا الشعور ؛ فالرأى في شعر المتنبي متعالم مشهور ، والاعجاب به أو بحملته يوشك أن يكون مجعاً عليه . وما أعرف شاعراً من شعراء العربية القدماء والمحدثين نال من سعة الشهرة ، وحقاوة الدرس والنقد مثل ما نال المتنبي . لقد سيطر على الحياة الأدبية حياته ، وطغى مسيطراً عليها بعد موته حتى حلفه أبو العلاء . وتوفر الأدباء والنقاد على درسه ونقده ؛ فأكثروا الدرس والنقد . وذهبوا فيه مذاهب شتى ، وكتبوا عنه من البحوث والمؤلفات ما لا يحصى مثله لغير عظيم من عظماء التاريخ . ولا يزال البحث الأدبي إلى الآن حقيقاً به ، ماضياً في استخراج دحاثره ، واكتناه مذاهبه ، وسبيل مذكوراً أبداً ما بقى العربية والثقافة والأدب وجود . على أن صيق القارئ بشعر الشاعر ، أو انبساطه له — لا يعنى حتماً أن الشعر مميح أو سليم من العيب ؛ فقد يبنى كذلك أن ثمة توافقاً أو تحللاً بين الشعر ومزاجه ، أو بينه وبين ثقافته ، وفهمه للشعر ، وتصوره له ، ومطالبه منه . بل إن يصبح أن يحمل الشعر وحده ثمة صيق القارئ به ، ولا أن يستأثر وحده كذلك بفعل الانبساط له . وطول الأقال عليه . فكلا الاحساسين لا ينبعث من جانب واحد . ولكنه نتاج المجاورة أو التناظر بين الشعر وقارئه . وهذا الاحساس الفرد الخاص لا يصلح على كل حال أن يكون مقياساً عاماً لتقدير الأشعار والمفاضلة بينها والحكم لها أو عليها مهما يكن له من القيمة والشأن .

ألا رحم الله أبا الطيب المتنبي كفاء ما أسدى إلى العربية والثقافة من صنيع . لقد انتفع الناس بشعره كله نفعا كبيراً ؛ فاتخذوا من حيدته ذخيرة لفوية عالية نقية ، وغذاء فيما عمتا لشغل والوجدان ، ومادة صالحة للرواية والتأمل والاستشهاد ، واتخذ العلماء من رديته أمتة يحرصونها في دراسة البلاغة ؛ لتأصيل التواعد ، وتوضيح الفوارق ، وإقامة الموازين .

على النجدي ناصف

السهولة في شعر المتنبي

كان المتنبي يرى في لحظ المييب أن أه العلاء المعري سيطر إلى أدبه بعد مائة من السنين ولعله كان يرى في ذلك اللحظ أيضاً أن الطبيب محمد كامل حسين سوف ينظر إلى شعره بعد ألف من السنين . وكان رسالات النيب تداولها يريد الالهام ، فكان أن دافع المعري عن المتنبي فمد الطبيب حين قال :

عجبي للطبيب يلحد الحيا . لق من بعد درسه التشريحا

، لم يكن طبيباً ملحداً في الخالق من بعد درسه تشريح العظام ، وإنما كان ملحداً في شعر المتنبي ، فتجهم له وتحنى عليه ، وساق الدليل من ذوقه الخاص على أن هذا الشعر عقلى محض حال من الخيال ، وليس في صورته المتنوعة ما يهز نفوسنا أو يرفع من إحساننا شيئاً . لقد أمدن الطبيب في شعر أبي الطيب طعناً وتحريراً ، لا تحجيصاً وتثريحاً ، فقال إنه معقد عقيم ، بين التصف والتكلف ، فتق في ألياته وقصائده ولا تنقب علماء البلاغة الذين سكبوا كل مدادهم على الورق في سبيل التنقير على التعميد اللفظي والمعوى في شعر الشعراء ، وخاصة في شعر المتنبي . وكان المتنبي مالى الدنيا وشاغع الناس حتى يومنا هذا . فمن لطيفنا الأدب محمد كامل حسين أن يعود إلى شعر أبي الطيب كاشفاً عن سيوه التي رآها دليلاً على صغار وشح في نفس المتنبي وقصور في همته وكمايته ، وقد عراه من كل خصلة في رقة الشموخ والسليقة وسمو الطبع والطموح ، وحذر المؤلفين من تقديم المتنبي للشباب على أنه مثل يحتذى . ودعم رأيه بكلمة للشاعر الفرنسي بول هاليري . وقد سعى حفظه الله أنه يستشهد على مقاله في تعقيد أبي الطيب بإمام العقدين في الشعر العربي المعاصر .

وإنه ليطول بي المعجب ، إذ أرى إلى حفض المتنبي ، فأحد فريقاً من نقاده دأبهم النفس من شعره والكشف عن مساوئه ، دون ذكر محاسنه ، حتى ألفت من شعر أبي الطيب وفي عمره أناس كثنأ في قدح هذا الشعر وتبيان معراته ومثالبه ، وكان العاجل من عباد زعم تلك العصبية المعادية للفن الموهوب ، حتى قبض الله له أنا حيان ملته اشتد على ما قدم من مدح إلى شعر أبي الطيب . ولست عمر من السلق والاشتد . وربما أود أن أفتح طيفنا الذي قد نمد كامل حسين برياحين الشاعر أحمد بن الحسين .

إن من شعر أبي الطيب يدوب سهولة ورقة ، وبقيس سلاسة ووسوحاً مثل قوله .

إذا كانت شم الروح أدنى لتربك
فلا برحتي روضة وقبول
وما شرق بالساء إلا تذكراً
لساء به أهل الحبيب تؤول

أنه ، بعبى قصائده واحدة بواحدة ، فأطرح منها أياناً فرادى قلائق ، زعم النقاد أنها معتقدة متعبة ، حتى إذا خلا هذا الشعر منها بدأ سهلاً جليلاً .

أراد الطبيب الأديب أن يشدق أبا الطيب من حلق مجده ، فزاع عن شعره كل صورة تشبه النفس بروعتها وروعتها . وأحسبه لو تبصر في شعر المتنبي نعيم الرضا لأحجم عن إردئه ، منهياً من بيت فيه تهديد ووعيد كان أبو الطيب قاله كذلك في لحظ الغيب إذ حطرت له أن عهداً سيأتي عليه فينظر الناس فيه إلى شعره . نقاداً ومحبين ، فكان مما قال في هذا البيت إن مفضله يفوق أبا الباحث عنه وليقل أبو الطيب ما يشاء من تهديد ووعيد ، فإن من هم على شعره بعدة كثير محصوه ، وبينوا غث قصائده من سميتها . ولو أنه كان يملك رجسه إلى حساب نأقديه لكان له شأن أي شأن في قصائد يمدح بها الدكتور طه حسين لتأليه كتبه فيه « مع المتنبي » وقصائده ثمانية بتوقاها أستاذنا الدكتور سعد أن نقد قصيدته السيرة حتى قلده شئ في شأنه فكانت عنده محضراً لتكليف الماني وسخف الماني .

وإني إن من محبة هذا الشاعر — إن كان الفن يعرف بمجاملة — أن يصنع المصريون من أبي الطيب ، ويتجاوزوا عن هفواته ، إذ كان حل بين ظهرانيهم ضيقاً ، ثم ركب الليل حملاً ، يجترس من كامور بعد أن حابت زورته . وكان أمد تكريماً للنتني لو أن طبيب العظام ودنو بأخيه الشاعر إلى كلية الطب فبدوى عظامه التي أحرقتها الحما حين جاء بلده فراح يده عن حمى البرداء :

تزلت بأرض مصر فلا ورائي	مخيب في اللطى ولا أمانى
ضعيف الجسم ممتنع القيام	شديد السكر من غير اللدمان
وزائقي كأن بها حياء	فليس تزور إلا في الظلام
بذلت لها المطارف والحشايا	فقاتها وبأت في عظامي

فإذا أنصف طبيب مصر الذي لم تحمل مباحضه ومساوئه دون تذوق الأدب والفرس بنقده ، وجد أن في شعر المتنبي تعقيداً قليلاً وسهولة كثيرة يعيا الاستفهام بها . وأى شاعر في قديم الدهر وحديثه خلا شعره من مكان الركل وموضع الضعف والاسفاف .

وداد سلاطين

تاريخ

يا ضلال التاريخ، إن كان هذا لغو، تاريخنا، وهذى المسافر
تبَّت الكتب، يا حياة، وويل، للسجلات، من رُاعفِ المحابر
ألقم النار، هذه الكتب، وأعض، عند نعليك، ثروات الدفاتر
كلها بهرج، وكل صدئ ميت، وكل رور، وكل ما كر
مؤهت واقع الحياة، وشادت، بالخطام الأساح، عرش أطواهر
وأطل البيان، فاخترج الميت، وأسرى، كالطيب، نئن المقابر

*

أنا يا كتب، كافر بك، بالتاريخ طرأ، والأسانيد ساخر
كلما أومات سطورك للصبح، تنابت للصباح الداجر
وتناولت حفنة من دحان، صبغ الریح، وأصلك الحاجر
وترأى الدرب الغريب، خضيباً، تأمياً، في مسارب الدهر، حائر
بين عينيه، من جراح الليلى، نافصات، ومن غبار المقادر
قلت: يا صبح... وانحنيت احتراماً، لضحايا، ولجود العوائر!

*

تعب الدرب، يا جراح، فنامى، فى رفيف من زخرف الحلم، ناضر
واغسلى بالسراب عينيك، يغفين، ويذهبن فى السراب الطائر

*

أيها الماضى، بخرج فى الكتب، ويفتن بالظلال السواحر
حسب غشاً، إني عرفتك يا ماضى. أما أنت صورة للحاضر

كلما ترجم الزمان (عظيماً) مثل الشئ إلى (عظيماً) معارضة
فتض نحي، وروعم الشك، ثم التف، وانحل، واضح الرقيب، سافر
ونساحت للمهار، وانسابت ظلال من الأسي، في المحاجر

*

الكتاب الحى، الصحيح، وجوه الناس، فأقرأ هذا الكتاب الداهر
وسأل الحاضر الذى انت فيه، تصر الأمس، وانزلق في الضائر
فأدى بقرا الوجوه، ولا يعميل فكرياً، في ما تكن السرائر
كأدى يقرأ الكتاب سطوراً، يتساوى أغرارها، والعبقر

*

أروع الكتب، أيها النفس، طل، ذاهل، منك - حائل اللون، عابر
أنا، يانفس، مؤمن بك، مفتون، فأنت الأولى، وأنت الآخر

*

إيه، دنيا الكتاب، قولي لغيري، ما تشائين، إننى عنك سادى
قد خبرت الحياة، حتى كأتى، فى ضمير الحياة، والدهر، ناظر
(البطولات) و (الوفاء) أساطير عذاب، و (الحق)، حلم شاعر
و (المروءات) و (العنى) لمح بله، وأم (الأعجاذ)، يا مجد، عاقر
و (الزعامات)، - در بظرفك، تبصر، خير أنموذج، وأجلى (مساطرا)

*

إيه، يانفس، كنفكفى، من يراعى، عريد الشعر، وأستهل النار
أتركي لاقطع، دنياه، ينعم، مطمئناً، بالعشب، والعشب ناضر
إن السوط فى كدم العبد، جرساً، ناغماً، كالصدى، وراء المزاهر
كلما هزنى الحنين، فأشفقت، فأندرت، قيل: أنت الكافر!

[حمص، سوريه]

وصفى فرغلي

مصر ومصير المستعمرات الإيطالية

كانت مسألة المستعمرات الإيطالية في مقدمة المسائل التي تثار بشأنها الحدل واضطرم حولها الخلاف ، في مؤتمر وزراء خارجية الدول الكبرى ، الذي اجتمع في شهر سبتمبر الماضي ليضع شروط الصلح مع إيطاليا وباقي الدول الصغرى التي كانت محالفة لمحور خلال الحرب . وكانت إيطاليا وما زالت ترقب مصير مستعمراتها في لهفة وجزع ، وقد لححت فيما يبدو بارقة أمل ، من جراء هدنة الخلاف الذي نشب بين الدول الكبرى ، في استرداد مستعمراتها بصورة ما . فهي تعمل اليوم بكل ما وسعت لتحقيق هذه غاية ، وهي تحاول أن تستغل ما بدا من عطف الدول الكبرى عليها وسعيهم إلى التمهيد لقسوطة عضواً في هيئة الأمم المتحدة . وقد بذلت أخيراً في هذا السبيل مجهوداً جديداً تحاول به أن تفتدي مستعمراتها السابقة ببعض لعروض الإقليمية في أوروبا ، فقدمت إلى الحكومة الأمريكية مذكرة تعرض فيها استعدادها للتخلي عن جزر الدودكان إلى اليونان مع وضع جزيرة رودس تحت نظام خاص ، ومنح إقليم التيرول الجنوبي استقلالاً ذاتياً ، وجعل تريستا ميناء دولياً مع بقائها تحت سيادة إيطاليا ، والتخلي ليوغوسلافيا عن ثغرى فيومى وزارا ، ومنح ألبانيا استقلالها التام ، كما عرضت إيطاليا استرضاء لفرنسا تعديل حدودها من ناحية الأل والنزول عن كل مطلب لها في تونس ، وذلك كله على أن تسترد إيطاليا مستعمراتها السابقة ولا سيما طرابلس وأرتريا .

ونحن نذكر خلاصة الآراء والمطالب التي عرضت على مؤتمر وزراء الخارجية بشأن المستعمرات الإيطالية . فقد اقترح البعض أن تقوم بإدارتها هيئة مشتركة من الدول الكبرى تحت إشراف هيئة الأمم المتحدة . واقترح البعض الآخر أن يعهد بهذه الإدارة إلى إيطاليا ذاتها على أن تكون أيضاً تحت إشراف الأمم المتحدة . وفاجأت روسيا المؤتمر بطلبها أن يكون لها هذا الإشراف على مصر

وربما، ورفضت بريطانيا العظمى بالذبح كل هذه الاقتراحات. وشعرت مصر بأن لها في هذه المسألة مصلحة جوهرية فتقدمت إلى المؤتمر بمذكرة تبسط فيها رأيها فيما يتعلق بمسألة لوبية، وهو أن تستنتجها في مصيرهم، فإذا رأت الدول المتحدة أنه لا بد من وضعها تحت الوصاية فصر أولى بهذه الوصاية نظراً لما يراها بها من جوار مباشر وأصر تاريخية وثيقة. وهكذا تضاربت الآراء وتشعبت، وانقض المؤتمر دون أن يقضى بأمر في مشروع الصلح مع إيطاليا أو مصر المستعمرات الإيطالية.

وقد ثار تدخل مصر في مسألة المستعمرات الإيطالية على هذا النحو بعض تعييفات خارجية يمازجها الإنكار والدهشة، وهي تعليقات تنم عن جهل بالحقائق التاريخية ولسياسية والاعتبارات القومية الخطيرة التي أملت على مصر موقفها. والواقع أن مصر توقفتها عند الدخول في مسألة لوبية تقصّر في حق نفسها وتناسى الكثير من حقوقها التاريخية، في إمبراطورية إيطاليا الاستعمارية.

ذلك أن إمبراطورية إيطاليا الاستعمارية لم تقم في شرق إفريقيا إلا بطريق الاعتداء على الأملاك المصرية. فقد كانت مصوِّع التي كانت حجر الزاوية في بناء هذه الإمبراطورية إلى جانب سواكن مقاطعة مصرية ضمن حدود السودان المصري منذ عهد محمد علي، حصل عليهما مجد على أولاً من السلطان بطريق الإيجار باعتبارهما المنفذ الطبيعي للسودان على البحر الأحمر. ثم رأى إسماعيل أن يعمل على ضمهما إلى أملاك مصر نهائياً فاستصدر بذلك فرماناً من السلطان سنة ١٨٦٦ وأصبحنا من ذلك التاريخ من أملاك مصر. وازدهرت مصوِّع في ظل الحكم المصري، ونفقت مصر أموالاً عظيمة في تعميمها وتجهيز ثغرها بالمنشآت البحرية العظيمة، واستمرت تحت الحكم المصري حتى قامت الثورة المهدية في السودان، وأرغمت مصر على إخلاء السودان وملحقاته في سنة ١٨٨٤

وفي سنة ١٨٧٥ استطاع إسماعيل أن يستصدر فرماناً من السلطان بالزول لمصر عن زيلع وبريرة ثغري الصومال الواقعين على البحر الأحمر، وذلك مقابل زيادة في الجزية السنوية التي تؤديها مصر للدولة العثمانية مقدارها خمسة عشر ألف

جنيه عثمانى، وجعل إسرائيل منهما محفطين مصريتين بقيتا تحت حكمه حتى سنة ١٨٨٥ .

وفي تلك الآونة بالدات، وهي الآونة التي حاقت فيها المحن بمصر، وأخذت إمبراطوريتها الإفريقية تنهار تباعاً تحت ضغط السياسة الإنحمرية ومطمع الدول الأوروبية، رت إيطاليا الفرصة سانحة للتزول إلى الميدان الاستعمري. وكانت إيطاليا يومئذ حديثة عهد بالوحدة والحرية والاستقلال، ومع ذلك فقد كانت تضطرم بفرعة استعمارية عنيفة. وكان وزيرها الشهير «كرسي» يحلم أن ينشئ لإيطاليا الفتاة إمبراطورية استعمارية عظيمة على غرار الدول الكبرى وبدأت إيطاليا تنفيذ برنامجها الاستعمري منذ سنة ١٨٨٠ إذ بدأت باحتلال الصومال واستمرت في احتلاله تباعاً. وفي سنة ١٨٨٢ احتلت بقعة في أرتريا ما بين الحبشة ومصوع وأنشأت بها مستعمرة إيطالية صغيرة. ولما اضطرت مصر بضغط السياسة الإنجليزية عقب الثورة المهدية إلى إخلاء نغر مصوع وملحقاته بادرت إيطاليا باحتلاله بموافقة إنجلترا. وهكذا كان حلوها في مصوع عمل اغتصاب غير مشروع لم تقره مصر قط. وانتهزت إنجلترا نفس الفرصة الساححة فاحتلت من جانبها نغرى زيلع وبربرة اللذين أرغمت مصر على إخلائهما في نفس الوقت، وأنشأت إنجلترا منهما ومن الأراضي التابعة لهما مستعمرة الصومال البريطاني.

وأخذت إيطاليا من ذلك الحين تطمح إلى احتلال الحبشة وتجاهر بادعاء حق الحماية عليها. ولكن الحبشة استطاعت بقيادة عاهلها منليك الثاني أن تلقى عليه درساً مؤلماً في موقعة عدوة الشهيرة (سنة ١٨٩٥) التي أصيبت فيها القوات الإيطالية بهزيمة ساحقة، واضطرت إيطاليا أن تعترف بوحدة الحبشة واستقلالها وأن ترجىء مشاريعها الاستعمارية الفادرة إلى حين.

وفي سنة ١٩١١ أعلنت إيطاليا الحرب على تركيا بحجة اعتدائها على حقوق الرعايا الإيطاليين في طرابلس، وأعلنت ضم برقة وطرابلس إليها بعد حرب قصيرة الأمد، واضطرت تركيا أن تصادق على هذا الضم بمقتضى معاهدة أوشى (١٩١٢) لأنها كانت تواجه في ذلك الحين خطر اعتداء الدول البلقانية عليها. بيد أن إيطاليا لم تستطع أن توطد أقدامها في برقة وطرابلس إلا بعد ذلك بنحو عشرين عاماً، إذ لث الشعب الليبي بقاومها بمسالة وحلد ويحصر المستعمرين

المعمرين في المنطقة الساحلية ، ولم يتح لها الاستقرار إلا حينما لجأت الحكومة الفاشستية إلى ساليبها الوحشية العنيفة في سحق مقاومة العرب واغتصاب أراضيهم وأموالهم وأقواتهم .

وفي سنة ١٩٢٥ استطاعت إيطاليا بمؤازرة السياسة الإنجليزية أن تعدل حدودها في برقة على حساب مصر وأن تستولي على واحة جغبوب التي لبثت عصوراً قطعة من الأراضي المصرية .

ثم كانت المرحلة الثانية في توسيع إيطاليا الاستعماري في ظل السياسة الفاشستية العنيفة ، فكان اعتداء إيطاليا على الحبشة في سنة ١٩٣٦ أفضح مثل لسياسة العدوان والغدر التي جرت عليها السياسة الإيطالية الاستعمارية في جميع دوارها . وعقب ذلك اعتداء إيطاليا على ألبانيا واحتلالها سنة ١٩٣٩ .

وقد شاء القدر أن تلقى إيطاليا جزاءها العادل في الحرب العالمية الثانية ، حيث فقدت إمبراطوريتها الاستعمارية وحقت عليها الهزيمة الساحقة ، وأرغمت على أن تستسلم لأعدائها الظافرين دون قيد ولا شرط .

على أن إيطاليا تشعر اليوم أن أعداءها السابقين قد أخذوا يعاملونها بشيء من الرفق لقاء ما قدمته في المرحلة الأخيرة من الحرب من معاونة للحلفاء ضد ألمانيا حليفها السابقة ، وهي لذلك تؤمل أن تكون شروط الصلح التي ستقرض عليها مطبوعة بطابع الاعتدال ، وهي تتطلع فوق ذلك إلى استرداد مستعمراتها السابقة ، وتبذل في هذا السبيل كل ما وسعت من جهود .



تلك هي المراحل والظروف التي حاطت بقيام إمبراطورية إيطاليا الاستعمارية ثم انهيارها .

ومن الواضح أن لمصر وسودانها حقوقاً تاريخية على القسم الشرق من هذه لإمبراطورية التي بدأت باغتصاب الأملاك المصرية في مصوِّع حسباً قدمنا . وهناك غير الحقوق التاريخية اعتبارات قومية وسياسية وعسكرية لا يسع مصر أن تغضي عنها .

ذلك أن المستعمرات الإيطالية السابقة تجاور وادي النيل من الشرق ومن الغرب وقد أثبتت محارب الحرب العالمية الثانية أن وجود دولة معادية حشمة

مثل إيطاليا في هذه المناطق خطر على مصر والسودان ، وأن الاستعمار الإيطالي يعتبر وجوده فيها قواعد للوثوب على ما يجاورها من البلاد . وهذا ما يذنه الحوادث حينما غزت إيطاليا الحبشة ، وحينما حاولت غزو السودان بعد ذلك في الحرب المنقضية .

وأما عن لوبية (برقة ومارابلس) فقد ثبت أن وجود إيطاليا فيها أشد ما يهدد مصر في استقلالها وكيانها . وفي لوبية لبثت إيطاليا الفاشستية أعوام تدبر خطط الاعتداء على مصر وتحشد القوى الجرارة لتنفيذ مشروعها الغادر ومن برقة زحفت القوات الإيطالية لغزو مصر في سبتمبر سنة ١٩٤٠ والقوات الألمانية والإيطالية في صيف سنة ١٩٤٢ ، وشهدت مصر يومئذ مصايرها تهتر في يد لقدر أمام هذا العدوان المدبر . وقد أثبتت تطورات الحرب الحديثة أن لصحراء لم تعد كما كانت في المصور الفابرة درعا يقي مصر شر العدوان المفاجئ . وإذن فليس في وسع مصر ، وقد ثبت جليا أن برقة هي خط الدفاع الأول عن سلامتها ، أن تطمئن إلى وجود أية دولة معادية في تلك المنطقة وخصوصا إيطاليا التي قدمت غير دليل على تجنبها وغدرها المتكرر .

والخلاصة أنه يحق لمصر ، لاعتبارات سياسية وجغرافية وعسكرية واضحة ، أن تشعر بأن مستعمرات إيطاليا السابقة ولا سيما أرتريا ولوبية تقع فيما يمكن أن نسميه منطقة السلامة المصرية . ومن حقها بناء على ذلك أن تبدي اهتمامها بمصير المستعمرات الإيطالية ، ألا تقف جامدة إزاء الجهود التي تبذل لتقرير مصيرها . وقد أحسنت مصر إذ تقدمت بمذكرتها الخاصة بمستقبل لوبية إلى مؤتمر وزراء الخارجية . ونظرية مصر في شأنها بسيطة واضحة ، فهي تطلب إما استفتاء أهل لوبية في مصيرهم تطبيقاً لما نص عليه ميثاق الإطلسي ودستور الأمم المتحدة ، وإما منح الوصاية عليها لمصر إذا رأت هيئة الأمم المتحدة ضرورة وضعها تحت الوصاية ، وذلك لما يربط بين الأمتين من روابط وثيقة في الدين واللغة والجوار المباشر . ومصر لاتصدر في ذلك عن أية نزعة أو غاية استعمارية ، وهي ترمى إلى صون مصالح جيرانها من العرب وصون مصالحها هي أيضاً وتأمين سلامتها التي يهددها عود الاستعمار الإيطالي إلى هذه المنطقة .

غير أن مصر يجب ألا تقف عند هذا الحد المتواضع من الاهتمام بمصير المستعمرات الإيطالية . فهناك مسألة أرتريا وثغر مصوع وهي باعتباره من

أمالك مصر السابقة ومن مدحقات السودان ، ولكونها تعتبر من الناحية الجغرافية منفذ السودان على البحر الأحمر ، يجب أن يسمع فيها صوت مصر أيضاً . وإذا كانت مصر لا تفكر في المطالبة بضم أراض جديدة إليها فإن مقتضيات الإنصاف والعدالة تقضى بأن تُعاد منطقة مصوع إلى السودان كما كانت أيام اسماعيل ، وسلامة السودان ووادي النيل تقضى ألا يعود الاستعمار الإيطالي إلى تلك المنطقة حتى لا يهدد فيها الأمن والسلامة مرة أخرى .



وقد يكون من الغريب المدهش أن تطالب روسيا بالوصاية على لوبية ورتريا وهي بعيدة كل البعد عن هذه المناطق وليست لها فيها أية مصلحة مباشرة ، ثم لا نجد مصر من يصغى إليها من الدول إذا هي تقدمت باقتراحاتها المعقولة في شأن لوبية مع ما يربطها بها من أواصر الجيرة والمصلحة الوثيقة . والمفروض أن مصير المستعمرات الإيطالية سوف ينظر فيه على ضوء النصوص الخاصة بالأقاليم التي توضع تحت الوصاية من دستور هيئة الأمم المتحدة ، وأن هذه المستعمرات تدخل في حكم النوع الثاني من الأقاليم التي تخضع للوصاية ، وهي الأقاليم التي تقتطع من دول الأعداء نتيجة لهزيمتها . غير أنه يبدو من جهة أخرى أن مصير المستعمرات الإيطالية سيكون موضع المساومة بين الدول الكبرى ، وإن كان من المتوقع أن بريطانيا العظمى لا يمكن أن تسمح بأي حال أن تخرج الوصاية على لوبية من يدها . وأما أرتريا فإن مصيرها يبدو أكثر غموضاً . والمفهوم أن للولايات المتحدة اقتراحات خاصة بجعل ثغر مصوع منطقة دولية حرة ، وأنها تؤيد بريطانيا في رفض كل مطالب روسي خاص بأرتريا .

إن البت في مصير المستعمرات الإيطالية سيكون تجربة عملية لتطبيق ناحية من نواحي ميثاق الأمم المتحدة . وسنرى التفسير هذه التجربة عن حلول جديدة تتفق مع ما سجلته الموائيق لدولية من مبادئ الإنصاف والعدالة . على أن أكبر ما نخشاه هو أن نشهد مأساة الاندباب القديمة في صورة جديدة ، وألا يعدو الأمر توزيع الغنائم ولأسلاف بين الدول الاستعمارية .

محمد عبد الله عتانه

تأملات في مسرحية روسية

هل يشع الشعب الروسى من التغنى بتلك الحرب التى شنها نابليون على روسيا حين اجتدح رضاها ودخل عاصمتها القديمة ثم ارتد مدحوراً ، لا أظن . إن اعتبار الروس حتى في هذه الحرب الأخيرة لن ينسيهم ذلك الانتصار المضى . ووقائع تلك الحرب ، والدفاع أمام الإمبراطور الفرنسى هو الذى كان يبعث الآمال في قلب الروس أمام طاغية الألمان حين لم يكذب ببقى شىء من أمل . لذلك أخذ الكتاب والشعراء ووضعوا المسرحيات والقصص في بلاد السوفييت يعالجون وقائع تلك الحرب ويرسمون لأبطالها صوراً ، كي يقووا من عزيمة الشعب الروسى في أيام المحنة ويعلموه معنى الشجاعة والتضحية حتى أمام الخصم الذى لا يكاد يدفع .

هذا القسم من الأدب الروسى لم يعرف كثيراً حتى الآن ، ولم ينقل إلى لغات الأجنبية . فليس من السهل على الأجنبي أن يوازن بين كاتب وكاتب ، وأن يدرس هذا الأدب دراسة فنية . على أنه صادف أن اطلعت أخيراً على قصة مسرحية للكاتب قسطنطين ترنيوف ، وقد توفى أخيراً عن ست وستين سنة . كان ناظر مدرسة ، نشر قصصاً ومقالات عدة قبل الحكم السوفييتى ، ولكنه لم يشتهر ولم يذع صيته فينقطع للتأليف إلا في ظل نظام السوفييت ، إذ مثلت له مسرحية « ليوبوف ياروقايا » التى تحمى حوادثها في الحرب الأهلية ، فأعجب بها الناس ومنح المؤلف جائزة ستالين ، ومثلت الرواية في جميع المسارح في أنحاء روسيا في السنوات العشرين الأخيرة . وتابع هذا النجاح بعدة روايات وطدت من شهرته وجعلته من أوائل المؤلفين المسرحيين .

أما الرواية التى قرأتها فهى عن النضال بين نابليون وروسيا ، واسمها « قائد عظيم » . وليس القائد المشار إليه هو نابليون وإنما هو غريمه « كوبرسوف » قائد الجيوش الروسية في ذلك الوقت .

ما هي مزنة كوتوسوف في هذه القصة وفي عالم الحقيقة أيضاً؟ إنه يقابل عدوه منهم لدى حكم أوربا بأسرها ولم يبق أمامه إلا أن يخضع روسيا لإرادته، يعبله ولدى أحدهما كل معدات النصر من آلات الهلاك المعروفة في ذلك الوقت وهو مستدع المطربات الجديدة في فن الحرب والآخرة قل عدة واستعداداً . ويتوهم هذا النصل العنيف يتقدم فيه الإمبراطور الفرنسي في الأرض الروسية كعادته في كل أرض غزاها ، والقائد الروسي ينثنى ويتقهقر دون أن يسلم ، وهو قوى الثقة في أن الزمن سيساعده ، أو كما يقول في هذه الرواية : « إن الزمن يعمل من أجلنا إذا صملنا من أجله ، والزمن أعقل من الجميع » .

تبدأ حوادث هذه الرواية في ساحة بورودينو حيث جرت تلك الموقعة الدموية التي انتصر فيها نابليون واستطاع بعدها أن يتقدم إلى موسكو ، ولكنه استنصر كلفه كثيراً ، فقد وقف كوتوسوف في طريق الفرنسيين وهو عالم أنه سيضطر إلى التقهقر ، ولكنه عزم أن يثبت بقدر ما يستطيع ، وأن يتزل بالمدو أكبر خسارة . فهو يقسم جنوده في الموقعة بحيث يتحقق له هذا الغرض ، ويجادله قواده بأن هذا التقسيم لا يقوم على أساس من فن الحرب ، ولكنه لا يعبأ بأقوالهم ، ويشرح لبعض المقرئين إليه منهم خطته في إدارة الموقعة . وهكذا تجرى هذه الموقعة الدامية حسب خطة القائد الروسي وما رمى إليه من غرض ، ويتقهقر الجيش الروسي بعدها ، ويترك الميدان للإمبراطور الفرنسي ، ولكنه نصر ربحه الفرنسي بثمن غال ، إذ خسر عدداً هائلاً من رجاله دون أن يستطيع سحق الجيش الروسي .

كان كوتوسوف بالرغم من نقد القواد المساعدين له ومنهم بعض الانجائز والألمان الذين عرفوا الفن الحربي في غرب أوربا ، يفضل هذا التقهقر ويرحب به ، إذ أنه كان على علم بشعور الجنود الروس وشعور الشعب نحو الفرنسيين . وقد علق على هذا الشعور آمالاً كبيرة ، وأرسل الرسل لتنظيم العصابات التي تعمل خلف الجيوش الفرنسية وأمامهم ، وتبث روح المقاومة في قلوب الشعب ، وهي موجودة ولا ينقصها غير التنظيم .

لقد فتح الطريق إلى موسكو أمام نابليون بعد موقعة بورودينو ، فدخلها دخول الظافر ، وظن أنه بلغ نهاية متاعبه ، وخيل إليه أنه بالاستيلاء على تلك العاصمة القديمة سيضع حداً لهذا القتال ، فيسرع القائد أو يسرع القيصر

تأملات في مسرحية روسية

يستلب الصبح . وكيف لا يعتقد ذلك وهو يسكن الآن قصر سكرين مفر
القياصرة الروس وموئلهم ! على أن أحداً لم يتقدم إليه .
فل نابلليون في موسكو خمسة أسابيع ، رابضاً كالحيوان لدى يعمق جراحه .
وقد رأى إذ لم يجئه أحد أن يتقدم هو بعرض الصلح ، إذ أن ما ناله من نصر
ظاهر بدخول موسكو يجعل طلبه للصلح مجرد رغبة في إنهاء القتال لا دليلاً
على ضعفه ، على أنه لم يثلق جواباً لعرضه .

كان نابلليون يظن أنه إذا ما وجد موئلاً في موسكو لجوده سيدفع عن
جيشه على الأقل غائلة الجوع ، إذ هو في مدينة كبيرة تأتي إليها الاطعمة من كل
جانب . ولكن عندما دخل تلك المدينة هرب أهلها ولم يبق منهم إلا عدد
قليل ، وأقفلت المتاجر وعدل الفلاحون عن الذهاب للمدينة وبيع منتجاتهم
فيها ، وحاول الفرنسيون عبثاً أن يجذبوا هؤلاء الفلاحين ، ولكن الفلاحين
يمدلون عن دخول المدينة ولا يجذبهم ميلهم الطبيعي لكسب وهم عالمون
بحاجة الجيش المحتل إلى الطعام . ولم تلبث الحالة أن ازدادت سوءاً ، فالجرائق
تشب نجاة هنا وهناك تأتي على الدور وعلى القليل الباقي من أقوات ، وليست
هنالك وسائل لإطفاء هذه الحرائق . ووجد نابلليون أن مقامه أصبح مستحيلاً ،
فتقرر لديه أن لا بد من الرحيل -

أعلن نابلليون أنه سيترك المدينة إذ هو مضطر للعودة بجيشه إلى ممولنسك
حيث يجد مأوى أصليح لمقاومة شتاء روسيا وبرده . وبدأ الجيش في التراجع .
ولم يكن كوتوسوف ينتظر غير هذه الفرصة ، فجنوده تهاجم الجيوش
الفرنسية المتراجعة ، وعصابات الأهالي تصابقهم بسائر الوسائل ، والقوزق
لا يذيقونهم الراحة ، فهم ينتفضون عليهم نجاة ، ثم يحتفون في الغابات ، والبرد
والجوع يلاحقان هذا الجيش فيسقط الجنود الفرنسيون موتى منهما . وهكذا
لم يرتد نابلليون بجيشه إلى ممولنسك بل ظل يتقهقر إلى الحدود مدحوراً
وذاب هذا الجيش العظيم ولم يعد إلا فلولا . وكانت تلك الحملة بالنسبة لابليون
بداءة النهاية .

لقد أثنى ترنيوف مؤلف هذه القصة المسرحية تصوير الأشخاص لا سيما
بطله كوتوسوف ، ولكنه كان يرمي إلى غرض قريب هو الدعاية وإثارة الحماسة
بين مواطنيه في محنتهم الأخيرة . لذلك نراه قد رسم صورة كريهة لقائد

من الألمان مع أنه يحارب في الجيش الروسي ، ورسم صورة محبوبة لقائد
إنجليزى يحارب في ذلك الجيش ، أما نابليون فصوره قزماً حقيراً اذ هو العاشر
الأكبر .

٥٢

إن أردت أن تقر قصة هذا النضال الخفيف ، وإن أردت أن ترى صورة متقنة
لسكوتوسوف ونابليون فلا تحاول ذلك عند هذا الكاتب ، ولا عند غيره من
كتاب السوفييت الكثيرين الذين طالجوا هذا الموضوع ، بل اقصد كاتباً واحداً
هو تليستوى . لا أعنى الكسى تليستوى الكاتب السوفييتى الذى مات قريباً
وهو من خيارهم ، وإنما أعنى قريبه الكونت ليو تليستوى الروائى والفيلسوف
لعبقري الذى مات فى سنة ١٩١٠ وهو ذلك الكاتب العظيم الذى قال عنه
« هاول » لناقد الأمريكى : « لقد صرت أنظر إلى الأشياء بعد معرفتى بتليستوى
غير نظرتى إليها من قبل » . وليس هذا القول بعيداً عن الحقيقة ، فهذا الذى
لم يتأثر بكتاب من كتبه ! ومنذا الذى لم تترك فى نفسه أثراً تلك الملحمة
لنثرية ، التى تدور حوادثها حول نابليون وهى رواية الحرب والسلام ؟ فى تلك
الرواية تجد دراسة عقل جبار لحرب قام بها جبارة . فانظر مثلاً إلى نبذ من
قوله فى موقعة بورودينو :

« فى موقعة بورودينو لم يطلق نابليون الرصاص على أحد ولم يقتل أحداً ، كل
هذا قام به الجنود ، فليس هو الذى قام بقتل الناس إذن . . .

فالجنود الفرنسيون ذهبوا ليقتلوا ويُقتلوا فى معركة بورودينو لا بسبب
أوامر نابليون ، بل بمحض إرادتهم . وهذه الجيوش المؤلفة من فرنسيين
وإيطاليين وألمان وبولنديين ، وهم جائعون ومهلهلو الثياب من تلك الحملة ،
شعروا أمام جيش سد الطريق أمامهم إلى موسكو أن الحُر قد صبت ويجب أن
تسرب الكأس ولو تحوّل نابليون من مقاتلة الروس لذهبوا إليه وقتلوه ،
فذلك أمر محتوم .

وليس نابليون هو الذى أدار دقة الموقعة إذ لم ينفذ أمر من أوامره ، وكان
فى أثناء الموقعة لا يعرف ما يدور أمامه . . .

يؤكد بعض الكتاب أن رداً أصاه كان سبباً فى أنه لم يحسن رسمه خذ

ثلاث في مسرحية روسية

المعركة كما كان يفعل في المعارك السابقة ، وأن أوامره أثناء الموقعة لم تكن موفقة كما كانت في الظروف السابقة . وهذا القول لا يقوم على أساس .
فإن الخطأ لم تكن أسوأ مما سبقها بل هي خير منها ولكن هذه الخطأ والأوامر تبدو سيئة لأن معركة بورودينو هي أولى المعارك التي لم ينصر نابليون فيها . . .

لقد قام نابليون بواجبه بوصفه ممثلاً للسلطة كما كان يقوم به دائماً بل خيراً مما قام به في معارك أخرى ، فلم يأت بما يضر بسير القتال وكان يميل لأصوب الآراء ، ولم يسبب اضطراباً ، ولم ينافض نفسه ، ولم يستول عليه الذعر ، ولم يفر من ميدان القتال ولكنه في حكمة كبيرة وفي هدوء المجرب للحروب ، وفي وقار ، قام بدوره وهو مظهر الذي يقود .

ومن الطبيعي أن يكون تلتوى نفوراً بهذه الموقعة التي رُئى فيها الروس بدءاً نصرهم على الإمبراطور الفرنسي . ومن الطبيعي أن تكون صورته لكونه سوف من أحب الصور . ولكن اقرأ بحوثه وتعليقاته بين حوادث قصته تجد فيها تحليلاً عميقاً ، جديراً بذهن عبقرى كبير ، فهو بعيد عن أن يصور الإمبراطور الفرنسي قزماً حقيراً ، وهو يحاول أن يخرق حجب حقيقة في تحليل الأشياء : يقول الكثير من المؤرخين إن الفرنسيين أخضعهم النصر في معركة بورودينو لأن نابليون أصابه برد ، ولو أنه لم يصب بهذا البرد ، لكان أوامره قبل المعركة وثناءها ، من طهر جوانب عبقريته ، وتقتضى على روسيا ، وتغير وجه الأرض . فالروس الذين يثنون أن روسيا تكونت بإرادة رجل هو بطرس الأكبر ، وأن فرنسا انتقلت من جمهورية إلى إمبراطورية بإرادة رجل واحد هو نابليون ، يرون مثل هذا الفرض القائل بأن روسيا ضلت قوتها لأن نابليون أصابه برد شديد في ٢٤ أغسطس ، هو فرض مقبول ومحتوم .

لو أن خوض معركة بورودينو أو الامتناع عنها كان متوقفاً على إرادة نابليون ولو أن هذا الإجراء أو ذلك كان متوقفاً على إرادته ، لكن من الواضح أن البرد الذي يؤثر في مظاهر إرادته قد ينقذ روسيا ، وأن الله الذي أهلك في إحضار الحذاء الذي يحول دون تسرب الماء إلى قدميه في ٢٤ أغسطس كان منقذ روسيا .

تذكرني هذه المسرحية ، وتذكرني هذه القصة الخالدة ، بكتاب ثالث كتبه أديب عظيم وشاعر كبير في بلد آخر كان أم البلاد المدهشة لنابليون ، أعني توماس هاردى الأديب الإنجليزي الذي نظم ملحمة في قالب تمثيلي عن نابليون وحروبه سماها « الطامحين لإنشاء العروش » . وقد اتخذ هو أيضاً الفكرة القائلة إن نابليون كان لعبة للأقدار ، وأبرز هذه الفكرة جلياً في ذلك الحوار الذي بدأ به مظلومته بين القوى المسيطرة على أعمال البشر . وبعد هذه المقدمة المتشائمة لساخرة لا نستطيع أن ننظر إلى الإمبراطور الفرنسي إلا على أنه لعبة تتحرك ومصيرها التحطيم بيد طفل عابت .

لقد كانت لفازية القدر كما شرحها تليستوى في تفاؤل بل فرح لأن الأقدار كانت في صف بلاده ، ونظرية القدر كما أوضحها هاردى في تشاؤمه الساخر ، مخرجاً أديباً من خير ما لجأ إليه الأدبيان . ولقد كانت فكرة القدر دائماً من أخصب الآراء في الأدب ، وفي الفن أيضاً . فالإنسانية الطموح التي لا تقف بنفسها عند حد ، تعرف أن لا حيلة لها أمام القدر ، وعندئذ ترى العطف والرثاء يملاً قلوبنا إذا ما تدخل القدر في أمور أحد من بني جنسنا ، ووقف حائلاً في طريقه أو فرض عليه مواقف مزرية . ولقد أخرجت فكرة تسلط القدر آثاراً أدبية وفنية رائعة . ويتبادر لذهني لأول وهلة « أوديب » في مسرحية سوفوكل ، و« لير » في مسرحية شكسبير ، وفي عالم فنر تمثلاً الأسير في « اللوفر » والشفقة في سان بيتر .

العنصر الأساسي في كل هذه الآثار الأدبية والفنية واحد . لنا رتعد لأن أديب فقاً عينيه ، ولا لأنه كشف عن هذا الأمر أو ذاك ، وإنما تهتز مشاعرنا إذ نرى أنه طريق قدر حاتٍ مسيطر ، وأن قوته وسلطانه لا يفيان عنه شيئاً . وذلك هو السر في العطف على لير الذي سقط في يد الأقدار بعد أن عصفت به لشيخوخة . وهذا الشعور نفسه هو الذي يؤثر في نفوسنا كلما رأينا أثرأ فنيًا معبراً عن قوة القدر . فيؤذان الأسيران اللذان أبدعهما ميكالانجيلو ، هذان لشابن القويان الضيخان الجشة ، ويدل كل عضو من أعضائهما العارية على جمال التوة ، ولكن مقبضى يديهم منثنيان إلى الخلف كأنهما مغلولان ، وتلك الأم

المسحنية على ولدها المسحى عن ركبته ، أيس خصوص هو لاء للأقد ر هو الذى
يؤثر في نفوسنا !

وهذا الزعيم الفرنسى الذى صورته بعض الكتاب الروس قرماً ، لم يكن
في فترة من فترات حياته أكبر وقعاً في النفوس وأشد تأثيراً منه وهو في تلك
الجزيرة المائية عاجزاً وبعيداً عن جيوشه ، وعن تلك الأرض التى انتقل بأبنائها
من نصر إلى نصر في ساحات مارنيجو وفجرام ووسترنزوفى ومئات غيرها . من
مواقع ، ونشعر بعظمة الأسير في تلك الجزيرة النائية حين تنقل إلى أرض ذلك
الوطن تلك الجثة الصئيلة التى أنفأها المرض ، وقد استطاعت هذه الجثة أن ترقى
بما لم يستطعه نابليون نفسه في آخر أيامه ، إذ قلبت من نظام فرنسا لثاماً عندئذ .
ومكنت لتزعم حقيقى في آرائه من الجلوس على العرش لجرد أنه يعت إلى صاحب
الجثة الثمانية بالاسم والقرابة .

على أنه ربما كانت للأقدار دخل غير ما قدره الكتاب وغير ما قدره الرجل
لنفسه : ماذا كان يريد نابليون بغزواته ؟ المجد لفرنسا ، وبالآخرى المجد
لنفسه ، هكذا يقول بعض المؤرخين .

المجد ! ما هو المجد ؟ إنه كلمة عامضة . ألم يكن صلح ن تقول إنه آلة
سخرت لنشر تلك الأفكار والآراء التى لا بد لها أن تنتشر ! ولكن حروب
فرنسا ، وحروب نابليون إن شئت ، عجبت من نشر هذه المبادئ لا تغيير نغم
الحكم سريعاً ، بل عجبت بنشرها بين الناس بحيث لم تعد هذه النظم صلح
وملائمة . وهذا التأثير في الناس كان له في روسيا أثر آخر : لم يؤثر نابليون
وجيوشه في الشعب الروسى بهذا المعنى ؛ فالشعب الروسى لم ير منذ البداية في
نابليون صديقاً بل عدواً غازياً وطغى الأرض المقدسة . ولكن أرض من ؟ أرض
الوطن ، لأرض القيصر . هذا هو الشعور الذى استيقظ في روسيا ، فهو شعور
بالوطن لم يستيقظ بفعل السوط والقصر كما كان يفعل بطرس الأكبر في إصلاحاته من
قبل ، بل هو شعور استيقظ تحت وطأة أقدام الغازى ، وهو الذى وجدته
الهبة الكبيرة في القرن التاسع عشر ببلاد روسيا في مختلف المباحى الفكرية
من أدبية وفنية . وكان طبيعياً ومنطقياً أن تنتهى هذه الحركة إلى الثورة
المحتومة ، وهى تغيير نظام الحكم القيصرى الذى لم يعد ملائماً لهذه البيئة

الجامعة العربية ومقوماتها الجغرافية والتاريخية

أنار تكوين الجامعة العربية اهتماماً كبيراً في العالم خلال هذا العام الأخير ، وإن اختلفت وجهات النظر وتباينت البواعث إلى هذا الاهتمام . فقد نظرت كثرة أهل المشرق العربي إلى تأليف الجامعة على أنه أمل تحقق ؛ وتطلع غير قليل ممن يشككون العربية من أهل المغرب الأفريقي وبعض جهات آسيا العربية ذاتهم إلى الانضمام إليها على أنه أمل يرتجى ؛ ووقف العالم الخارجي بين مشجع لهذه الحركة الجديدة ومحبذ لها ، وبين مرتاب في مراميها وأهدافها ، أو محايد يكاد لا يهتم لشأنها بأكثر من أن ينتظر ليرى ما يكون من أمرها في المستقبل .

ولسنا نود هنا أن نعالج موضوع الجامعة من حيث : إنها أمل تحقق أو رجاء يرتجى ، ولا من حيث إنها أمر يشجع أو حادث ترتقب نتائجه وتحشى مضاعفاته ؛ فذلك كله شأن أهل السياسة . وقد يكون من الخير أن ندع ذلك إلى معالجة الموضوع من ناحيته العلمية الخالصة ، التي ترتكن إلى الأسس والمقومات كما يراها نالِب الجغرافيا أو دارس التاريخ . ولعل في هذا النحو من الدراسة ما يلقى سوءاً جديداً على هذه الجامعة الناشئة ، يبرزها في وضعها الصحيح أو فجا بقرب منه ، ويكشف لنا بقدر المستطاع عن قيمتها ومغزى تكوينها بالنسبة لأهلها من جهة ، وبالنسبة للعالم الخارجي من جهة أخرى .

يحتل المشرق العربي موقعاً جغرافياً فذاً في قلب العالم القديم ، تلتقي عنده درات ثلاث هي آسيا وأوروبا وإفريقية ، التي كان لكل منها دورها الخاص في تاريخ البشرية ؛ ويمتد من سواحلها من الشمال بحر قديم كان مهداً لكثير من مظاهر المدنية القديمة والحديثة هو البحر الأبيض المتوسط ، الذي امتاز بهدوء مياهه وانتظام ريحه وانتشار جزره وكثرة تعاريج ساحله وخلجانه ، حيث قامت المرافئ والموانئ منذ أقدم العصور . كذلك يتوغل في هذا المشرق العربي من الجنوب ذراعان للمحيط الهندي والبحر العربي هما البحر الأحمر وخليج فارس ؛ وقد

ارتقت كلا منهما سفن الملاحة آتية من بحار الهند والشرق الآسيوى البعيد ، أو من شرق إفريقيا . ولكن المهم أن الاتصال البحرى لم يكن تاماً بين بحار الجنوب وبحار الشمال ؛ وإنما قطعت بين تلك البحار أرض الجزيرة العربية الشمالية ؛ فكان لزاماً أن تمر المتاجر بالبر فى تلك المرحلة ؛ ومن هنا أصبح لسكان تلك المنطقة التحكم فى المواصلات العلمية منذ القدم . ولو أن الجزيرة العربية كانت جزيرة بالمعنى الجغرافى المعروف ، فأحاطت بها المياه من كل جانب ، واتصل البحر المتوسط ببهار الجنوب لتغير وجه التاريخ تغيراً تاماً ، ولما كانت لشبه جزيرة العرب وما يتصل بها من بلاد وأقطار تلك الأهمية الفريدة فى تاريخ المواصلات العالمية ، وفى علاقات الشرق بالغرب والشمال بالجنوب .

والحق أن هذا الشرق العربى فى جنوب غرب آسيا وشمال شرق إفريقيا قد لعب بموقعه الجغرافى دوراً خطيراً فى تاريخ الاتصالات العالمية وتاريخ البشر بوجه عام . وساعده على ذلك أنه كان مهداً لكثير من الحضارات القديمة فى مصر وبلاد الشام وسومر وبابل وآشور وعمان وبلاد اليمن ؛ كما نشأت فيه عدة إمبراطوريات امتدت نفوذها وسلطانها إلى الشرق والغرب ، أو إلى الاثنين معاً . وكان فوق ذلك مهبط لديانات السماوية الثلاث ، فيه نشأت ، ومنه انتشرت ؛ ومبعث كثير من أنوار الفكر والثقافة العالمية التى بقيت على الزمن . ولو أنب نظرنا إلى تاريخ الإنسانية المكتوب وحسبنا أنه يمتد خلال خمسة آلاف عام أو نحو ذلك ، لكان من الطريف أن نذكر أن هذا الإقليم الذى نحن بصدده — أو أن أجزاء منه على أقل تقدير — كانت مركز القوة السياسية الأولى ومبعث الثقافة والعلم والمعرفة الإنسانية خلال ما يقارب ثلاثة أرباع تلك الفترة . وإذا قيست أهمية قاليم وجه الأرض فى تاريخ البشر لطول الحقبة التى كان فيها كل منها مركز السلطان ومبعث المعرفة ، لكانت لهذا الإقليم المكانة الأولى بين الأقاليم . . . ولعل من الخير والإنصاف أن تتمثل هذه الحقيقة البسيطة أمام أعيننا ، حتى لا يضلنا تغير الظروف والأحوال فى الوقت الحاضر والزمن الذى نعيش فيه ، فلا ندرك أهمية إقليمنا ولا نقدر مكانته العالمية على وجهها التاريخى الصحيح .

ويتألف هذا الشرق العربى فى داخلية من نواة صحراوية وشبه صحراوية ، تقل فيها الأمطار ولا ينتظم سقوطها ، وتتمثل فيها حياة البادية العربية المعروفة ؛

فلا يستقر بها السكان إلا في عدد من الواحات أو حول الآبار . وقد اخترقت تلك النواة منذ فجر التاريخ طرق القوافل ، التي سار عليها حداة الإبل ووسطاء التجارة ، فنقلوا السلع والمتاجر ، وحملوا معهم أنواع الفسك والثقافة ؛ فكان ذلك الاحتكاك المثمر في بعض الواحات ومراكز الاتصال ؛ ولقحت المدنية الخارجية حياة العرب وحضارتهم منذ البداية . كما استطاع البدو وتجارهم أن يبشروا نتائج بثقتهم الفكرية إلى الخارج ؛ وكان هؤلاء التجار فوق ذلك وسطاء ثقافة ، حملوا رسالة الفكر والمدنية بين أهل الشمال وأهل الجنوب ، وبين أهل البحار المعتدلة والباردة وأهل البحار الدفيئة والحارة . ولم يكن غربياً بعد كل هذا أن ترتبط التجارة والثقافة في حياة العرب وسكان الجزيرة الداخلية ذلك الارتباط القوي الذي تمثل في حياة النبي عليه الصلاة والسلام .

وعلى جانبي تلك النواة الصحراوية الداخلية التي تمثل قلب الشرق العربي ، والتي لم تكن نواة صماء ، وإنما اخترقتها الطرق في جميع الاتجاهات ، ونفذت إليها الحياة الخارجية من كل سبيل ، كان هناك نطاقان من الحياة المستقرة في أراض يزيد فيها المطر زيادة نسبية ، أو يتوافر بها الماء من الجارى والأنهار . ويحف أحد النطاقين بالنواة من جهة الجنوب ، لاسيما الجنوب الغربى والجنوب الشرقى ؛ كما يحف بها النطاق الآخر من جهة الشمال ، ويمتد خارج الجزيرة إلى شمال شرق إفريقيا . ففي جنوب صحارى بلاد العرب ونجدها الوسطى كانت هناك اليمن وحضرموت وعمان ، وهى كلها مراكز لحضارات قديمة قبل الإسلام . فقد نشأت في اليمن وأطراف حضرموت الحضارات المعينية والسبئية والحيرية في ألف السنة السابقة لميلاد المسيح والحسانية اللاحقة به . ونشأت في عمان حضارة أخرى قديمة لا نعرف عنها الشئ الكثير ؛ ولكن بعض الباحثين يرى أنها ربما كانت أقدم من حضارة اليمن ، وأنها كانت على اتصال بأجزاء مختلفة من الجزيرة ، بل إن السومريين أنفسهم ربما جاءوا في الأصل من تلك البلاد أو من جوارها قبل أن يستقروا في جنوب العراق وسواء أصبح هذا أم لم يصبح ، فإن اتصال سكان الجزيرة الجنوبيين في عمان وحضرموت واليمن بسكانها الشماليين أمر تاريخى قديم لا جدال فيه ، وقد اشتد ذلك الاتصال بنوع خاص في العصر الجاهلى وبعد ظهور الإسلام . وكان هؤلاء الجنوبيين فضل كبير في نشر الثقافة العربية والدين الإسلامى بالبحر إلى شرق إفريقيا وجنوب آسيا وجزر الملايو

وُندونيزيا ؛ فكانوا بذلك رسل الثقافة العربية ودعاتها فيما وراء البحار ؛ وقد عرف الحضارمة منهم بنوع خاص بأنهم « فينيقيو البحار الجنوبية » .

ومع ذلك فإن الجامعة العربية بتكوينها السياسي الحالى لا تشمل من جنوب بلاد العرب غير اليمن ، فى حين أن الظروف الطبيعية والبشرية والتاريخية تقضى كلها باعتبار حضرموت وعمان منطقتين متممتين لهذا الشرق العربى من ناحية الجنوب . ولا بد أن ننتظر اليوم الذى تنضم فيه تلك البلاد إلى الجامعة ، إذا أرادت هذه الأخيرة أن يتسق تكوينها السياسى مع تكوينها الجغرافى ، وأن تستكمل مقوماتها الطبيعية والتاريخية جميعاً .

كل هذا عن النطاق الذى يحف النواة الصحراوية من ناحية الجنوب . فأما النطاق الشمالى ذو الحياة المستقرة والمدنات الحضرية القديمة فيشمل ما يعرف باسم « الهلال الخصيب » ، كما يمتد إلى شمال شرق إفريقيا لتدخل ضمنه مصر ووادى النيل الأوسط فى السودان . فأما الهلال الخصيب فيتألف من منطقة تمتد على شكل هلال مفتوح نحو الجنوب ، تتوغل فيه بادية الشام . ولهذا الهلال شقان هما العراق والشام بمعناهما الأوسع . والعراق فى جملته سهل منبسّط تحف به الجبال فى الشرق والشمال ، وتجرى فوقه أنهار دجلة والفرات وقارون وروافدها المنحدرة من الجبال . وقد نشأت بالعراق منذ القدم حضارات متتابعة ، كان بعضها فى أسفله مثل سومر ، وبعضها فى وسطه مثل بابل ، وبعضها فى أطرافه الشرقية مثل آشور . ولكن المهم أن العناصر السامية استطاعت فى النهاية أن تكتسح معظم أراضيه اكتساحاً ، وأن تصبغها بالصبغة السامية ؛ حتى إذا ما جاء العرب وتوسعوا من داخلية الجزيرة قبل الاسلام وبعده ، لم يلقوا عناء كبيراً فى أن ينشروا فيه لغتهم ودينهم وثقافتهم ؛ وفى أن يتخذوا منه قاعدة ينشرون منها معالم تلك الثقافة نحو الشرق إلى إيران وتركستان . واستطاع العراق فى العهد العربى بمختلف أدواره أن يكون وحدة ثقافية ؛ حتى إذا ما جاء العهد الحديث كانت هذه الوحدة الثقافية عاملاً هاماً فى وحدته السياسية رغم وجود بعض العناصر الكردية وغير العربية فى أقصى الشمال .

أما الشق الشامى من الهلال الخصيب فأكثر تعقيداً من الشق العراقى ؛ لأن الطبيعة لم تجعل معه سهلاً مستويّاً تجرى فوقه الأنهار ترتبط بين مختلف أحرائه ، وإنما جعلت منه إقليماً معقد السطح والتضاريس . ففى شماله توجد سلاسل لبنان

الشرقية والغربية ، التي تفصل بين سوريا وسواحل لبنان . والاولى ذات حيضان وسهول داخلية ، تتجه نحو البادية ، وترتبط بها ارتباطاً وثيقاً . أما لبنان فإن سفوح جباله الغربية وسهله الساحلى الضيق تتجه نحو البحر المتوسط ، وترتبط حياتها به ارتباطاً يرجع إلى أيام الفينيقيين . وقد تأثر ساحل لبنان أكثر مما تأثر غيره من أقاليم الشرق العربى بحياة الملاحين فى شرق البحر المتوسط ، وثقافة الإغريق والروم الشرقيين ؛ وظهرت آثار ذلك فى العهد المسيحى ، وفى الكنائس الطائفية التى لا تزال قائمة حتى الآن .

وإلى الجنوب من سوريا ولبنان هناك شرق الأردن وفلسطين ؛ وهما فى الحقيقة يمثلان منطقة واحدة ، وإن كان يقسمهما منخفض الأردن والبحر الميت إلى شطرين ، داخلى هو شرق الأردن ، وساحلى هو فلسطين . وقد يكون من المهم هنا أن نلاحظ الفرق الكبير فى التكوين الطبىعى بين ساحل فلسطين من جهة وساحل لبنان شمال حيفا من جهة ثانية ؛ فالأول رملى منخفض تكثر به الرواسب ، ويكاد يخلو من المرافق الطبيعية الصالحة ، وإنما ترجع أهميته إلى الطرق البرية التى كانت تخترقه وتسير على طولله وترتبط ما بين مصر وشبه جزيرة سيناء من ناحية ، وداخلية الجزيرة العربية الشمالية وبقية أرض الهلال الخصيب من ناحية أخرى . أما ساحل لبنان من حيفا شمالاً فصخرى فى أكثر أجزائه ، ويوجد به عدد من المرافق الطبيعية التى استخدمت فى العصور القديمة مثل صور وصيدا ، واتى لا تزال تستعمل فى الوقت الحاضر مثل بيروت . وقدمثل هذا الساحل على الدوام المدخل البحرى الأساسى لتجارة الشق الشامى من الهلال الخصيب ؛ واستطاع أن يحتفظ بمكانته هذه على مر العصور . فكما تحكم الفينيقيون فى تجارة مملكة سليمان البرية التى كانت تشمل أراضى فلسطين والشام الداخلية ، كذلك استمرت موانئ لبنان ومرافئه الساحلية متحركة فى تجارة الشرق الأدنى فى العصور الوسيطة ، ولا تزال فى الوقت الحاضر تلعب اعتماد سوريا الداخلية على بيروت (والاسكندرونة قبل أن تضم إلى تركيا) فى تجارتها البحرية . ولذلك كله فقد يكون من الخير فى معرض الحديث عن التكوين السياسى والقومى لكل من سوريا ولبنان أن نجتمع بين حقيقتين لا سبيل إلى الأخذ بإحداها دون الأخرى : فأما الحقيقة الأولى فإن مقتضيات البيئة الطبيعية والتوجيه الإقليمى والتاريخ الثقافى تقضى بأن يكون لكل منهما كيانها القومى والسياسى المستقل .

وأما الحقيقة الثابتة فإن مقومات الحياة الاقتصادية السليمة والمصالح المادية المشتركة تقضى بأن يكون بينهما أوثق الاتصال ، وبأن يكونا بمثابة الشفيقين التوأمين في أسرة الأمم العربية .

فإذا ما نحن خرجنا من الجزيرة العربية بمعناها الجغرافي الضيق ، واستقلنا إلى شمال شرق إفريقية وجدنا أرض وادى النيل ، التي ارتبطت في تاريخها الطويل بالشرق الآسيوي المجاور ، وكانت فوق ذلك واسطة الاتصال بينه وبين الخارج في بعض أدوار ذلك التاريخ . والحق أن الجغرافيين المحدثين لا يفرقون الآن بين شمال شرق إفريقية وجنوب غرب آسيا ؛ فبمى كلها تؤلف إقايـ جغرافياً واحداً ، رغم وجود البحر الأحمر بينها . وقد وثقت الطبيعة الصلة بين مصر وغرب آسيا ؛ فاعدت طريقاً طبيعياً سهلاً يصل بينهما ، ويسير على طول الساحل الشمالى لشبه جزيرة سيناء ، حيث تسقط الأمطار في فصل الشتاء فتتسربها كثبان الرمال المنتشرة على الساحل ، وتحترنها لتغذى بها المياه الجوفية طوال العام ؛ وبذلك كثرت الآبار وتوافرت المياه على طول الطريق . وقد كان طريق سيناء شمالى هذا هو طريق الغزوات السامية العديدة التي جاءت من الشرق إلى مصر في أيام قدماء المصريين ، كالهكسوس وغيرهم ؛ ثم جاءت عنه غزوة العرب وهجرات قبائلهم خلال العهد الإسلامى ؛ وكذلك خرجت على طول هذا الطريق غزوات المصريين وحملاتهم إلى الشرق القريب في أعصر التاريخ المختلفة . ولا تزال لهذا الطريق أهميته العسكرية الكبرى ؛ فهو مفتاح مصر من ناحية الشرق ، وفيه تسير الآن سكة حديد فلسطين ، وجانب من طريق السيارات البرى الجديد . وكلما سهل الاتصال وتيسر من هذا الطريق استوثقت العلاقة بين مصر وجاراتها العربية ، وبرزت قيمة اهتمام مصر بشؤون تلك الجارات . ولا بد هنا من أن نشير بصفة خاصة إلى موقع فلسطين عند طرف مدخل مصر الشرقى . ذلك أن فلسطين بوصفها الحالى هي الجارة الوحيدة المباشرة لمصر من بلدان الشرق العربى . فحدودنا البرية من الشرق لا تلاصق بلداً غيرها ، ولا يمكن أن يتم الاتصال البرى بيننا وبين بقية بلدان هذا الشرق إلا عن طريق أرض فلسطين . وإذن فإن فلسطين إن هي بقيت خارج نطاق الجامعة العربية الجديدة تستطيع أن تكون حاجزاً حقيقياً بين مصر وبقية بلدان الجامعة ؛ فيعوق مثلاً تنفيذ أية اتفاقية جمركية لتيسير تبادل المنتجات والمناجر ونقلها بين أقطار الجامعة ، أو تعوق

مرور نايب البترول الحجازية إلى إحدى موانئ سواحل مصر للتكرير والتصدير، أو تعرقل أية اتفاقية لتيسير مرور المسافرين بالبر بين مصر والشرق، أو غير ذلك من الحالات التي قد تبدو افتراضية محضة في الوقت الحاضر، ولكنها قد تصبح واقعية ومؤلمة إذا لم تل فلسطين ما يريد لها العرب من كيان سياسي عربي مستقل.

وفوق ذلك فإن لفلسطين قيمة أخرى بالنسبة للعلاقات بين مصر وجاراتها العربية، فهي تعتبر قاعدة عسكرية من الدرجة الأولى؛ وتستطيع أية سلطة تسيطر عليها أن تهدد كيان الشرق العربي كله. وإذا لم يضمن العرب أعضاء الجامعة الجديدة أن تبقى فلسطين للعرب، وإذا لم يضمنوا فوق ذلك أن تبقى أرضها في أيدي صديقة حتى يتم إنشاء الدولة الفلسطينية العربية، فإنهم لا يضمنون شيئاً بالنسبة لسيادة الجامعة كلها من الناحية العسكرية. ولعل مصر تتأثر من هذه الناحية أكثر من غيرها؛ فهي كما ذكرنا تقع وحدها في جانب من فلسطين، ويقع باقي أعضاء الجامعة في الجانب الآخر؛ كما أن فلسطين وشبه جزيرة سيناء كانا سبي الدوام مصدر خطر بالنسبة لمصر، وطريق غزوات تاريخية كثيرة أتت من الشرق أيام قدماء المصريين والفرس والإغريق والعرب والأتراك؛ وحتى الإسكندر الأكبر نفسه الذي بدأ حملاته من بلاد مقدونية واليونان، أتى مصر عن طريق فلسطين؛ فقد كان غزو مصر من هذه الجهة سهلاً ميسوراً، بل كان فيما يبدو أسهل من غزوها بطريق البحر.

ومع ذلك فقد يفيد أن نضيف هنا أن مصدر الخطر بالنسبة لمصر يتعدى فلسطين إلى ما وراءها من جهة الشمال. ومن الحقائق العسكرية القديمة أن من يريد أن يدافع عن مصر إنما يجب أن يقف فوق تلال سوريا وجبال لبنان. وقد كان «تحتمس» الثالث أول من أدرك هذه الحقيقة من العسكريين القدماء؛ فرائداه في القرن الخامس عشر قبل الميلاد يقوم بحملاته السبع عشرة المشهورة إلى فلسطين أولاً، ثم إلى لبنان وسوريا ثانياً، ليؤمن حدود مصر من هذه الناحية. ولعل هذه الحقيقة التي أدركها تحتمس منذ خمسة وثلاثين قرناً قد مدت فبرزت في أيام المماليك عندما دافع سلاطين مصر عنها في عين جالوت، ثم في حمص وغيرها وردوا عنها خطر الغزو المغولي؛ ثم برزت مرة أخرى في ثوب جديد في أيامنا نحن عندما وجد الحلفاء أنفسهم مضطرين إلى مهاجمة سوريا ولبنان

خشية أن يولد الخور قدامه فيها فيكون مصدر خطر حقيقى بالنسبة لمصر والشرق العربى جميعاً .

على أن الأمر فيما يتصل بمصر لا يقف عند أنها كانت وثيقة الصلة سقية الشرق العربى ؛ ولا عند أنها تكون جزءاً أساسياً من هذا الإقليم الذى تشغله بلدان الجامعة ؛ وإنما يجب فى الوقت نفسه أن نلاحظ أن مقومات الحياة فى مصر ذاتها ترتبط بناحية ثانية غير الشرق الآسيوى ، هى وادى النيل من ناحية الجنوب . فقد قضت الطبيعة أن تمتد حدود مصر « الحيوية » فى هذه الجهة الأخيرة إلى أبعد كثيراً من حدودها « السياسية » . ولذلك كان على مصر أن تستمسك بصلاتها ومصالحها فى الجنوب استمسكها بصلاتها ومصالحها فى الشرق . بل لذلك كان اتصال مصر بالجنوب قديماً قدم اتصالها بالشرق ؛ ولما كان ذلك الاتصال بالشرق قائماً على تبادل المنفعة والتجارة واحتكاك الفكر وانتشار الثقافة ، كان الاتصال بين مصر والجنوب قائماً كذلك على هذه الأشياء جميعاً وعلى شئ آخر فرضته الطبيعة فرضاً ، فأحسه المصريون إحساساً واستجابوا له بفطرتهم ، فاتجهوا نحو الجنوب لأنه مصدر الحياة ، ونشروا حضارتهم فرعية ومسيحية وإسلامية فى ربوع السودان ، بل تخطوه إلى بلاد أخرى فى شرق إفريقيا ؛ وترتب على ذلك كله أن توطدت الصلات البشرية وتمكنت الروابط التاريخية ، فأضفت على الوحدة الجغرافية قوة جديدة ، لا بد أن تنتهى مهم طال الزمن ، ومهما كثرت العراقيل المصطنعة ، إلى أن يتصل ما قصت الطبيعة — وما أمر الله — به أن يوصل بين مصر والسودان . . . وإلى أن يتم ذلك ينبغى أن نواجه الحقيقة المزدوجة ، التى لا يمكن تجاهلها ، وهى أن مصر لم تجد أمنها كاملاً إن هى اكتفت بتحقيق صلاتها المسكينة مع الشرق العربى الآسيوى دون أن تستكمل وحدتها فى الجنوب ؛ وأن هذا الشرق العربى ذاته لم يجد قوته كاملة ما لم تكن مصر ولسودان معاً عضواً أساسياً عاملاً فى جامعة أممه الجديدة .

والآن وقد فرغنا من استعراض الروابط الجغرافية والتاريخية بين مختلف أقطار الجامعة ، نستطيع أن نعرض فى إيجاز لتاريخ الحركة التى انتهت بتأليف الجامعة ؛ فقد ينير ذلك التاريخ سبيلنا فى تحقيق مغزى هذه الحركة وتحديد أهدافها ومراميها ، واستشفاف بعض ما قد ينتهى إليه أمرها فى المستقبل . وهذه

الحركة كغيرها إنما جاءت وليدة تطور بطنى في الفكر والتنظيم داخل ذائق العالم العربى فى الشرق القريب ، وتطور بطنى أيضاً (وإن لم يخل من مفاجآت وتحولات سريعة أحياناً) فى علاقة سكان ذلك الشرق والعالم الإسلامى عامة بالعالم الخارجى . وقد نذكر أن انتشار الإسلام اقترن منذ البداية بحركات سياسية كبرى صحبت إنشاء الإمبراطوريات والممالك العربية المتتابعة ؛ ورغم تقلب السيادة وانتقالها فى النهاية من أبدى العرب إلى أبدى الأتراك ، ودخول الشرق أثر ذلك فى عيش مظلم ساد الانحلال والركود ، فقد احتفظ العالم الإسلامى فى مجلته باستقلاله السياسى خلال قرون ثلاثة أو تزيد ؛ حتى إذا ما انتهى القرن الثامن عشر وطلع القرن التاسع عشر ، وجاء نابليون بحملته المشهورة على مصر والشرق العربى كان ذلك فاتحة عهد جديد ؛ إذ كانت هذه أول ضربة موجهة إلى قلب العالم الإسلامى ، لفتت النظر إلى أهميته الكامنة ، وقيمته بالنسبة للتسابق الأوروبى نحو السيطرة العالمية . ومع أن حملة نابليون هذه أخفقت فى غرضها المباشر من احتلال مصر وقطع الطريق على الإنجليز إلى إمبراطوريتهم فى الهند ، فإنها كانت نقطة تحول فى التاريخ عامة ، وفى تاريخ اتصال الشرق بالغرب والعالم الإسلامى بأوروبا بصفة خاصة . وربما كانت الحملة الفرنسية من هذه الناحية من أبعد حروب نابليون أثراً وأبقاها ذكراً على الزمن .

وقد تتابع الضغط الأوروبى والتوسع السياسى على حساب العالم الإسلامى خلال القرن التاسع عشر . ولم يكن غريباً أن يؤدي أطراد الضغط والتوغل فى بلاد المسلمين وممتلكاتهم إلى رد فعل سياسى ، فنشأت فى الربع الأخير من القرن الماضى حركة خطيرة كان على رأسها جمال الدين الأفغانى ، وهى حركة « الوحدة الإسلامية » ، التى رمت إلى تحرير البلاد الإسلامية وإعزاز جانبها دفعاً للخطر الأجنبى . وقد فسرت هذه الحركة إذا ذاك تفسيرات مختلفة ؛ فقال بعضهم إنها إحياء لحركة التوسع الإسلامى القديمة ، وإنها تنطوى على خطر كبير وشر مستطير بالنسبة لأوروبا والمسيحية عامة . وقال بعضهم إنها وإن لم تستطع أن تعيد عهد السيف وأن تعلن الجهاد المسلح فإنها ستبعث روح التعصب وتغذى عناصر الحقد والكراهية التى لا بد أن تخرج الشرق والغرب فى النهاية إلى التطاحن والخراب . وقالت فئة قليلة إن هذه الحركة لا تعدو أن تكون نفخاً فى الهواء ينير الزوابع المحلية ولكنه لن يستطيع أن يبعث فى الشرق روح الجهاد كما بعثها

نظهور الإسلام لأول مرة . والحقيقة أنها كانت حركة طبيعية ، ونتيجة لازمة لما سبق به الغرب من توغل واستمزاز ؛ ولم يكن الشرق ولا الدين مسئولين عنه . بأكثر من الغرب ومن السياسة . وليس أدل على أن الدافع السياسي الكامن في هذه الحركة كان أقوى من الدافع الديني الظاهر ، من أنها ما لبثت — رغم تسميتها « بالوحدة الإسلامية » — أن تحولت وانقلبت بالتدرج في أوائل القرن الحالى إلى حركتين عنصريتين في داخل العالم الإسلامى ، وهما حركة الوحدة الطورانية أو التركية ، وحركة الوحدة العربية . وكانت هذه الأخيرة موجهة ضد العثمانيين المسلمين بقدر ما هى موجهة ضد الغرب المسيحى .

والذى يعنينا في شأن حركة الوحدة العربية أنها كانت تمثل المرحلة الثانية في الوعى السياسى الحديث للشرق العربى . ولم يكن هذا الشرق في أوائل القرن الحالى قد أصابه كثير من ضغط أوربا المسيحية ، فماعد مصر التى استولى عليها الإنجليز ، بل كان ذلك الشرق في جملته لا يزال تحت حكم العثمانيين بالفعل أو بالاسم . لذلك لم يكن هناك سبيل إلى أن تتخذ الحركة العربية مظهرًا دينيًا ؛ وإنما هى قد ظهرت على حقيقتها منذ البداية . ولكنها كانت بذلك أدعى إلى القوة ، وأدنى إلى لحقائق العملية من الحركة الإسلامية الأولى ؛ فضلاً عن أن العالم العربى كان أصغر كثيراً من العالم الإسلامى ؛ وكانت أجزاءه أكثر تقارباً وتماسكاً . وشؤونه الاقتصادية أكثر تداخلاً وتشابكاً ، وثقافته أكثر وحدة واتساقاً من العالم الإسلامى الكبير الذى يشمل الهندى والفارسى والتركي والعربى وغيرهم من ذوى الأقطار المتباعدة ، والمصالح المتفرقة ، والثقافات المختلفة ، والانتباهات المتباينة التى يصعب الجمع بينها في كيان سياسى واحد .

لذلك كله نشأت حركة الوحدة العربية وهى أصلح للبقاء والنمو من الحركة الإسلامية . وقد أفادت الحركة الجديدة من الحرب العالمية الأولى عندما انحرف العرب إلى جانب الحلفاء ضد تركيا التى انضمت إلى المعسكر الألمانى النمساوى . ومع ذلك فإن آمال العرب الواسعة وما حصلوا عليه من وعود وعهود كثيرة لم يتحقق منها غير جانب ضئيل محدود . ذلك أن الحرب التى أبرزت قيمة الموقع الجغرافى والعسكرى للشرق الآسيوى القريب أطمعت فيه الدول المستعمرة وذات المصالح في الشرق عامة . وقد جاهد العرب وناضلوا في إزاحة سلطان الأتراك ، ولكنهم لم يرقوا إلى مكان السيادة إلا رقيقاً جزئياً محدوداً ، وفى

المناطق الداخلية البعيدة من الجزيرة كنجد أو المتزوية وغير المعروفة كالأين الأعلى . أما السواحل العربية والمناطق الهامة في المرور والمواصلات أو الغنية بموارد الزيت وغيرها فقد امتدت إليها الأيدي عارية سافرة أو مُقنَّعة مستورة ؛ فكان فتح واحتلال ، وكان نفوذ وانتداب ؛ وخرجت بريطانيا وفرنسا بنصيب الأسد ونصيب النمر ؛ بعد أن حاولت أمريكا أن تكون لها يد ، ثم كُفِّت عن ذلك وتقاعدت بعيدة عن الشرق ومشكلات الشرق .

وفي هذه الأثناء كان الوعي السياسي في الشرق العربي قد دخل في المرحلة الثالثة من مراحل تطوره الحديث ؛ إذ أخذ الشعور القومي المحلي يتسرب إلى هذا الشرق بمختلف أصقاعه وبيئاته خلال الفترة الواقعة بين الحربين العالميتين ؛ وأخذت فكرة « الأمة » تتبلور في أوطان صغيرة وأقاليم محدودة . ولم يعد أساس فكرة « القومية » و « الأمة » الاشتراك في الدين ، كما كانت الحال في المرحلة الأولى أيام حركة الوحدة الإسلامية ، ولا الاشتراك في اللغة والثقافة ، كما كانت الحال في المرحلة الثانية إبان الأيام الأولى لحركة الوحدة العربية ؛ وإنما أصبح ذلك الأساس هو « الوطن » و « القومية الوطنية » التي تتصل ببيئة معينة وإقليم معين ، تعيش داخل حدوده جماعة بشرية تتشابه بين أفرادها لمصالح ومقومات الحياة مادية ومعنوية ، ويكون من الميسور توجيه جهودهم والإعراب عن آرائهم بتلك الوسائل التي اصطنعتها وأخذت بها الأمم والقوميات الحديثة في أوروبا خلال الجيلين السابقين . وكانت شعوب الشرق العربي قد أخذت يدرك أن الظروف والأوضاع السياسية قد تغيرت كثيراً عما كانت عليه من قبل . مشروع الوحدة العربية لا يسهل تنفيذه في صورته النظرية ؛ كما أن الوحدة لثقافية العامة لا تكفي أساساً لقيام الوحدة السياسية والقومية ؛ خصوصاً إذا نشعبت المصالح المادية والترعات القومية ، وإذا اختلفت مراحل النضج السياسي وتباينت نظم الحكم في مختلف الأقطار .

ولكن الحرب المنتهية مالبثت أن جاءت بعنصر جديد ؛ أو هي بعبارة أدق قد عجلت ظهور هذا العنصر الجديد . فبعد أن كان الشرق الأدنى في الحرب العالمية الأولى ميداناً ثانوياً ، إذ به يصبح في الحرب الثانية ميداناً أساسياً من مبادي القتال ، تجمعت فيه القوات المحاربة بأعدادها الضخمة من أغلب أقطار العالم ، ودارت فيه ملاحم كبرى كان بعضها فاصلاً وحاسماً في تقرير مصير الحرب

كلها. فبرزت قيمة هذا الإقليم الحيوية، وزاد اهتمام الدول الكبرى بشؤون العامة، بكثير جداً من شؤون التفصيلية الخاصة؛ ونبه ذلك أهل الإقليم إلى أن بلدانهم وأقطارهم تحتل موقعا جغرافيا بالغ الخطورة من ناحية المواصلات العالمية؛ وما تسابقت الأمم المتحاربة الكبرى في زحفها نحو هذا الموقع إلا لقيمته الفاصلة في كل ما يتصل بالسيطرة العالمية في الحرب والسلم على السواء. وما دام الأمر كذلك فإن مصائر الشرق الأدنى وتاريخه القابل ستنق مرنسته أشد الارتباط وأوثقه بالشؤون العالمية والمصالح الدولية. ولن يفيد في مثل هذا الموقف الدولي أن يكون لكل وطن صغير في الشرق العربي استقلاله القومي؛ فقد لا يلبث مثل ذلك الاستقلال أن يذهب مع الريح، التي قد تهب من الغرب أو من الشمال، أو هي قد تعصف عاية كالإعصار من جميع الجهات، فتكون الطامة الكبرى، وتأتي الريح الصرصر على كل شيء، وتطوح بهن المشرق إلى أسفل الدرج من جديد.

في هذه الظروف بدأ القائمون على شؤون أم الشرق العربي يدركون ضرورة إيجاد نوع من التعاون بينها جميعا؛ لعل ذلك يشد من زرها، ويقطع الطريق على بعض ذلك التنافس والتسابق بين الدول الكبرى على استقلال تفرق الكلمة بين أم الشرق. وقد ساعد على هذا الاتجاه الجديد نحو التعاون، أن بريطانيا التي تجمع لها من الخبرة والتجربة في شؤون هذا الشرق ومن المصالح الحيوية فيه أكثر مما تجمع لغيرها من الأمم القوية، قد أحست حاجتها إلى أن تعدل سياستها التقليدية، وإلى أن تسير الاتجاهات الجديدة قبل أن يسبقها الزمن. فأعربت عن عطفها غير المباشر على ما قد يمثله قادة الشرق العربي أنفسهم من مسعى في سبيل التعاون المنشود... وهكذا تهيأت الظروف وتسانقت الحوادث حتى تم تأليف جامعة الأمم العربية التي نحن بصدددها الآن.

على أن من المهم أن نلاحظ أن هذه «الجامعة العربية» بتشكيلها الحائ تعتبر خروجاً واضحاً على مبدأ «الوحدة» العربية كما كان مفهوماً من قبل. وقد تقدمت شعوب الشرق العربي حديثاً نحو الاستقلال القومي؛ فطبت — أو نظر فريق منها على الأقل — إلى «الوحدة» السياسية على أنها رجوع إلى وراء، وعلى أنها أمر لا سبيل إلى تحقيقه بالمعنى الضيق للوحدة، بعد أن اتخذت هذه الدول الناشئة سياستها إلى تحقيق الاستقلال القومي في كثير من

الاشياء ، بل بعد أن أخذ كل منها نظامه الخاص في الحكم والإدارة إلى حد لم يستطع معه قادة الشرق أن يفكروا حتى في إقامة « اتحاد » من الأمم أو القوميات العربية على نحو ما نجد في الولايات المتحدة الأمريكية ، أو اتحاد الجمهوريات السوفيتية . وعلى ذلك لم يكن بد من الاكتفاء « بجامعة » تحتفظ فيها كل دولة بكيانها المستقل ، ولا ترتبط ببقية الأعضاء إلا بالمشاورة الحرة وفي حدود ما اتفق عليه الأعضاء مختارين ، تحقيقاً للمصالح المشتركة ، وصحلاً لمعنى أن يصيب الأعضاء منفردين أو مجتمعين من خير لا بد أن يترتب على اجتماع كلهم في عالم لا تكاد الصيحات الفردية الضعيفة تجد فيه صدى ولا ترديداً .

ومع ذلك فقد لا نبعد كثيراً عن الحق إذا نحن قررنا أن مشروع الجامعة كما أخذ به كان خير ما يمكن التوفيق به بين فكرة الوحدة من جهة ، وبين ما استجد على الشرق العربي وأقاليمه من وعى سياسى قويم وما اقتضته الظروف الدولية ونظام العالم الجديد من جهة أخرى . وقد لا يبعد أن تثبت الأيام أن هذه الخطوة التى خطاها الشرق العربى كانت خطوة سديدة خطتها شعوبه فى الاتجاه الصحيح ، وأن السياسة التى أملتها لم تكن سياسة عاطفية متطرفة بقدر ما كانت سياسة عملية تقوم على الاعتدال وإدراك الحقائق . بل قد لا يبعد أن تكون الجامعة فى قابل الأيام أداة صالحة لتحقيق التعاون الدولى فى هذا الإقليم الذى يعتبر محكاً خطراً للعلاقات الدولية والعالمية ، وأن تكون فوق ذلك وسيلة صالحة لتوحيد الجهود واستكمال ما نقص من استقلال كثرة أعضائها الحاليين ، وتمهيد السبيل لاستقلال بقية الشعوب العربية التى لا تزال خارج الجامعة ، ولكنها تتوق إلى الانضمام إليها فى يوم من الأيام .



وبعد فإن الشرق العربى كان منذ قدم العصور مدرسة للإنسانية فى كثير من الاشياء . ففيه نشأت غير واحدة من المدينات القديمة ؛ وفيه ظهرت الأديان السماوية ، ومنه انتشرت ذات اليمين وذات الشمال ؛ وفيه احتك الشرق بالغرب ، فتعارف الاثنان ، وتعلم كل منهما من الآخر بعض ما لم يكن يعلم . وقد مر الشرق العربى فى تاريخه الطويل بكثير من التجارب والأحداث ؛ ولا

شك أن تاريخه القابل سيحفل بمثل ما حفل به ماضيه . وربما كان مرجع الاضطراب السياسى وعدم الاستقرار فى هذا الإقليم إلى أن بلدانه ذات تقاليد قديمة راسخة فى الحية والحكم والثقافة ؛ وكل جديد فيها لابد أن يتسق مع القديم الذى لم يستطع الزمن أن ينسخه . ولذلك كان طبيعياً ألا تستقر النظم الجديدة فى سهولة ويسر . ومع ذلك فإن الشرق العربى يمر الآن بتجربة يكاد يسبق بها الزمن ؛ فهو يحاول أن يوفق فى نظامه السياسى بين القومية الصيقة التى ترتبط بوطن معين ، وأمانى قومية لا تخلو من أنانية ، وبين التعاون الدولى فى جماعة من الأمم المتقاربة وذات المصالح المشتركة . ولا بد أن يؤدى هذا التوفيق إن نجح إلى تهذيب الشعور القومى ، وتلطيف روح العصبية الإقليمية . على نحو يعلم الأمم الصغيرة كيف تعمل وتضحى من أجل جاراتها وزميلاتها فيما تنتسب إليه من جامعة أو جامعات ، هى مثال مصغر لما تسعى إليه الإنسانية من هيئات عالمية شاملة . بل لعل تجربة الجامعة العربية إن هى نجحت — ونجاحها متوقف على معاونة العالم الخارجى بقدر ما هو متوقف على إخلاص أعضاء الجامعة وقبولهم التضحية — لعلها أن تكون مثالا يحتذى فى منادى مشابهة من العالم ، كأمرىكا اللاتينية ، التى تشترك أممها ، أو تكاد تشترك ، فى اللغة والثقافة والمصالح المشتركة ؛ أو كأهم جنوب شرق أوربا ، التى تشترك فى الموقع الجغرافى والمصالح الاقتصادية ، وإن تباينت فى الجسد والثقافة . . . ومن يدرى ! لعل نجاح الجامعة العربية يكون درساً جديداً فى التنظيم والعلاقات الدولية يصيفه الشرق إلى ما قدم للإنسانية والعلم فى تاريخه الطويل من دروس .

سليمان مزين

بين المثالية والطباع البشرية

أَبْقَى الْأَمْسَى مَنَى عَقِيدَ هُمُومٍ
رَعَى اللَّهُ مَن تَقْسَى بَرَاءَةَ شَاعِرٍ
طَوَّيْتُ الْحَسَانَ الْقُرْءَ مِنْهَا وَرَبَّهَا
وَمَا خَيْرُ وَجْدَانٍ رَفِيعَ بَيْتَةٍ
تَذَلَّ لِمَن أَتَرَى وَتَعَنُّو لِمَن طَنَى
عَفَا اللَّهُ عَنِّي كَيْفَ أَحْيَا مُضِيْعًا
وَلَوْ شِئْتَ نَازَعْتَ الزَّعَامَةَ شَيْخَهُمُ
جَنُونَ لِعَمْرِي أَخَذْتُكَ الشَّيْءَ بِالْحِجَى
وَمَنْ ذَا الَّذِي لَمْ يَجْعَلِ الْإِفْكَ سُبْحًا
تَرَى لَهْمُو مِثْلَ الذَّنَابِ ضَرَاوَةً
رَوَيْدُكَ إِنْسَانِيَّتِي لَسْتُ عَائِدًا
فَلَسْتُ وَإِنْ أَمْسَيْتُ فِيهِمْ مَسْوَءًا
وَلَكِنِّي أَشَدُّ بِمَا لَا أَحْبَهُ

سَلَامٌ عَلَى الْمَاضِي سَلَامٌ مُضِيْعٍ
وَحَاطَ سَجَايَا لَمْ تُتَّحَ لِلشَّيْمِ
بَدَا عَالِمٌ لِلنَّاسِ غَيْرَ عَلِيمٍ
تَرَى الْخَيْرَ أَنْ تُزَيَّرَ بِغَيْرِ ظُلُومٍ
وَتَلْفَحُ مَنْ نَافَاها بِسُمُومٍ
بِقَوْمٍ هُمُ دُونِي ضَيَاعٌ يَتِيمٍ
وَلَكِنِّي آتَى سَبِيلَ أَثِيمٍ
إِذَا نَالَهُ بِالطَّيْشِ غَيْرُ حَكِيمٍ
إِلَى مَا رَبِّ نَاقِي الْمَنَالِ مَرُومٍ
فَنَ لِي بَنَابٍ كَالْهَزْبِ ثَرِ حَطُومٍ
إِلَى رَحِيمِ نَاوِي الْكَهْوفِ قَدِيمٍ
بِأَنْزَعِنْدِي مِنْ سَلَامَةِ رَحِيمِي
أَلَا رُبَّمَا نَادَمْتُ غَيْرَ نَدِيمٍ

بِرَا اللَّهِ تَقْسَى مِنْ مَعَانٍ رَفِيعَةٍ
فَلَيْسَ بِهَا كَالنَّاسِ فِي الْأَرْضِ حَاجَةٌ
ضَرُورَةٌ حَيَّةٌ وَالْحَيَاةُ مَقَارِمٌ
فِيَالِكَ نَفْسًا مَوْسَقَى اللَّهُ ذَوِّهَا

وَسَوَّى سَوَاهَا مِنْ تَرَابٍ أَدِيمٍ
— عَلَى رَغْمِهَا — إِلَّا رَضَاعُ فَطِيمٍ
وَأَمْسَاكَ جِسْمَ كَالْهَبْنَاءِ هَدِيمٍ
قَصِيدَةُ شَعْرِ فِي السَّمَاءِ نَظِيمٍ

بضوع كَضَوْع الطيب لا تستبينه
متى ما تُتَحَّ للفكر يوماً يظنها
سيم الصبا إما يهب حناحها
ممت فوق آفاق السماء ورفرفت
نسيم كاشعاع النجوم على الدجى
فلولا لصوق الجسم بالأرض لم تجذ
ألاً فالتسنى حين يعيقك ما أنا
فى مثل (أفلاطون) مهوى منارعى
ذوات ولكن من روى لا تُدِلُّها
تقلص ظل الشرعها فما ترى
هنالك حيث الحق فيهن مطلق
وحيث الجمال العبقري مُخَلَّد
حقائق لا يُقتاس هذا الورى بها
كأنى بهذى المثل دَوْحاً مُخَلَّداً
فَيُطْلَع عاماً بعد عام قُطُوفه
عفاه على الدنيا على كل ناظم
طيوف يُفادىها الفناء كَتَمَّحى
أَسَيْتُ لهم قد ظاهر واكل باطل
قضى الله لى حقاً فلما التمسته
وإنى ليفضى بى إلى الخزى والأسى
أرعى الناس أعدائى فن لى بصارم
فلا شئ عندى يَفْتَأُ الغسلى فى دمي

عيون ولكن ملء كل شيم
طروق خيال فى خلال غيوم
فيالنسيم سائر بنسيم
على أنهر من أنجم وسديم
وتأفل فى جسمي أقول نجوم
سوى طيف روح فى السماء مقيم
لدى عالم ضاحى الجمال بسم
ومثوى لداتي من أخ وجم
ضرورة عيش أو رغاب جُشُوم
بها غير خير لا يُغِبُّ عيم
كشمس الضحى لثائت حط بتخوم
يُتَدُّ الورى من فيضه بوسوم^(١)
ومن ذا يسوى مُنْجِباً بقم
يُتَدُّ الردى بعد الجنى بهشيم^(٢)
لدى الموت أشهى من قُطُوف كروم^(٣)
على كل مُفَضٍّ فوقها لنجوم
ويخلفها منها رفات رميم
سفاهاً وأولوه ولاء دُوم
تناءى به عنى مِطال غريم
تذكر أمر فى الأمور هضم
وقلب على العلات غير رحيم
سوى فتكة تجرى دماء خصيمي

(١، ٢، ٣) من نظرية المثل لأفلاطون أن كل صروب الجمال مثل لمثال الجمال فى عالم المثل .
وأن كل صروب الجمال تنفى وتبىد ، وهذا المثال داق حاد تصدر عنه صروب من الجمال أخرى .
وما يقال فى مثال الجمال ، يقال فى مثال الإنسان . وما يرى الشاعر أن هذه المثل شبيهة بالشجر
الذى يؤتى ثمره فى كل عام . والإنسان بالقيام إلى مثاله كالثمرة من الشجرة ، وما دامت الثمرة
تجدد ثمرها فى كل عام شبيهاً لذيقاً للأكليين ، فكذلك مثال الإنسان يجدد ثمره وهو الناس فى
كل حين لهم الموت أشهى وألذ من ثمار الأشجار .

ولو أن ذا مُعْذِمٍ لو أنى نظراته رجاء يسار في غدٍ لَعَدِيمٍ
فكيف رجائي في غدٍ يسرٍ واجدٍ كفيلٌ بما قد بَرَّيْنِيهِ زعيم



الأم اذ أرى الوجد وهو مُبرِّحٌ وحشام أستعدي على هي الأسى
كما لم تجد للذاء قد عزَّ بروه يلف الدجى منى مراح بلابل
لها صخب خلف الضلوع مبغث كائن في يد الليل جائش
إذا أذهب الليل الحياة أعادها الأشد ما أوقرت نفسى بفادح
وأشباح ليل ما تبنى في هتافها ففى الشرق منها هاتف بزمازم
وطوراً يشق الليل داع مُرَّراً له أنه حرى على ضعف جرْسها
وتصخب طوراً حين أصغى لها معاً وما راع نفسى وهى شتى طليحة
ومن خلفه الأشباح تبدو ظلأها من الطارق الملحاح بابى بلا ونى
وقت إلى مهوى الرئاج أفضته فالتفت أشباحاً تتزى عرامة
وقالت : فنون العيش لم تألها رقى أيا ساحراً كيف استبحت خدرنا
تتكثرت للأوضاع من إرث آدم فما نحن ذى جئنا فانت صانع
فاما الطغاة الظالمون حباثا وأكظم همى وهو غير كظيم
وأدفع فى صدر الأسمى بهوى سوى مبضع ماضى الشبابة هذوم
ومشوى شجون لا تريم جشوم فمن ناعب يذكى الأسى وبغوم
بما فى الورى من فائن وديم قيامى على أعبائها ولزوى
أنوه به تحت الظلام جسم أذنت إليها بعد طول وجوم
وفى الغرب منها هاتف بهزيم بصوت من البعد السحيق سقيم
كأنه مصروع الفؤاد كليم فامسى كائن فى مناحة يوم
سوى طارق جمء الرؤوس شميم كبعض الدياجى لم تبين بوُسوم
بليل كوادى الهامدين بهم وأذنى إلى مستوقفز لقدوى
فمن ناز بادی الاذى وكتوم بشعر كريحان الرياض تموم
وأخرجتنا منها برجع رنيم قبت بها تهذى مبيت صرم
بأشباح أوضاع أتت وزعوم لاهوائهم لم يحفلوا بعلیم

أأنت تريد الخير في الناس سائداً
أأنت ترى أن الوري في حياتهم
فإن يصدروا يوماً عن الحلم والحجي
فقلت: رويداً لست عن ذاك سائلاً
وَمَنْ لك بالإِنصاف عند نهم
عبيد طماع لا عبيد حُلوم
تخوف شقاء أو رجاء نعيم
أسا اليأس منه عِلَّتِي وكُلُّومِي
وفكر كسجَّاج السحاب سَجُوم
ذريني لدنيا غير هذِي من الرُّؤَى

محمد عثمان المصري

رأى فى تدبير التربية فى لبنان^(١)

مرفوع الى نخامة الشيخ بشارة الخورى
رئيس الجمهورية اللبنانية

لا يخفى على أن أمر التربية وما يدخل تحته من تنشئة وتثقيف شغل شاغل للبنان فى هذا الوقت . وقد وقع إلى كما إليكم وقع بعض ما جرى فى هذا الشأن من اقتراحات وتصويبات وما نشأ من وراء ذلك من مضاربات فى الوجيهات ومفارقات فى الغايات . والتحقيق أن ليس هذا كله إلا تطوفاً حول صميم التربية . وذلك أن إثارة سياسة تجرى إلى إصلاح الموجود وتداركه ، تارة بالحذف وأخرى بالزيادة وثالثة بالاستبدال ، إنما هى حال تصلح للأمر الذى استقرت فوائده واستبان خواتمه ودرج الذى بينهما إلى غاية معلومة محدّصة . وعلى هذه الصفة لا يكون أمر من الأمور القومية إلا إذا استتبّت همة الأمة وثبتت خطاها وطال مسيرها فساقتها ماضياً يرافقها زاد من التجارب والتقاليد . وليست هذه حال الأمة اللبنانية . فهى اليوم خارجة ، بل طافرة ، من عهد إلى عهد : من عناء وضنك ، إلى انشكاك وفسحة ، من خضوع ورضا إلى إباء وغضب ، من استسلام وانكسار إلى كد وتصرف ، من فرح باليسير إلى وثب على الصعب ، وبالجملة من التأمل لما كان إلى التبصر فى ما يكون . فليس فى الأمة اللبنانية اليوم استتباب همة ولا ثبات خط ولا طول مسير ، فاضيتها القريب عاجز عن أن يدفعها إلى حرّ السبيل . وليس من الحكمة أن ينظر فى الماضى فتفحص أدواؤه ، إذ لا رجاء فى قطعها قطعاً ، إنها والله لمزوجة

(١) مذاكرة أُلقيت فى « المدرسة الأهلية » ببيروت فى الواحد والعشرين من نوفمبر سنة ١٩٤٥ بدعوة من « جامعة نساء لبنان » .

بالدم ، مصبوبة في العصب . في مثل هذه الحال تُنشأ الأمة إنشاء كأنها تستأنف ولادتها ، وقد استردت خصائصها إلى جنب الفضائل التي تحلت بها قبل أن يهجم عليها عهد العناء والضنك والخضوع والرضا والاستسلام والانتكال والفرح باليسير . وقد وصفتُ هذا العهد بالقرب ، وليس القرب في تاريخ الأمم بمنحصر في خمس وعشرين سنة .

على هذه الأمة الكريمة إذن أن تتبصر في ما يكون . فكأنني بكم تترقبون من حديثاً هو ملجج الأندبة على اختلافها ، ومثار جانب من الاقتراحات والتصويبات التي أشرت إليها . كأنني بكم تروني أخوض في قصة النقابات الإفريقية وأقلب فصولها ، وأدل من هنا ومن هنا أفسد ، لعل أحكم على أن تنزلوا الثقافة اللاتينية المنزلة العليا فتعدوها الصحيحة الصالحة ، أو على أن تروا الخير في أن تختاروا الثقافة الأنجلوسكسونية وأنكم إن لم تفعلوا خفّت عقولكم . ألا إنني أربأ بنفسى وبأنفسكم أن تزلق في نقش يهزأ هو نفسه بنا . نحن صرنا إلى عهد الانتسكك والفسحة ، فهل نزواج في رقابنا الأغلال ونضاعف تجاه أبصارنا الاستار ؟ بنا حاجة ونحى في مطلع الطريق — وهو عسير — أن نقسح الرئات لكل هواء نقي ملائم نافع مستطاب أينما كان المهبّ . وعلى أية حال كلنا يدري أن النفس منجذبة إلى ما ألفت ، والذهن منساق إلى ما تخرج فيه . لذلك نرى العربى المتطرف لا يؤمن إلا بثقافة آباءه ، وكذلك نرى الناشئ السامى في أحضان الأنجلوسكسونية أو اللاتينية أو الجرمانية لا يرضى إلا بإحدى هذه المروضات الثلاث . ولكن مثل هذا الموقف الجامد لسلامة فيه ولا رجاحة ، بل فيه مرض وفيه ارتجال ، لأنه يميل مع الهوى ويقاد للشعور من جهة ، ومن جهة أخرى يُفرض عن الواقع ومهملاً ما يقتضيه . وكل تفكير تحركه الشهوة صائر إلى فساد ، وكل تدبير تسوسه الغفلة وقع في العسف .

أن نحذر الهوى فنطرحه ، ثم نفحص الواقع فنترل عند أحكامه ، هذان هما الرائدان السليمان الراجحان . وإذا كان طرح الهوى يسيراً ، أو كاليسير متى ووعت النفس فدرت ثم زكت فسعت وغايتها القومية الخالصة والوطنية العاقلة ، فإنما نفحص الواقع نجبره إلى الاستطلاع . وإنى محاول له ، وقد أخطئ وقد أقصر ، غير أن وراء المحاولة نيّة بيضاء ، ووداً مقبياً ، وشغلاً ببلوغ الملامم

الحسن . ثم إن الواقع يضم الحسنيات بجانب الميثاق ، ولابد من تناول "الرفق" على السواء ، وفي الطرف الثاني ما لا يبسط النفس ولا يلهي السمع . وبذلك لا تشوب حسناتها سيئات .

من المنفق عليه من عهد الفيلسوف الإنجليزي Herbert Spencer أن التربية على ثلاثة : تثقيف الذهن ، وتهذيب الخلق ، وترويض الجسم . وتحت كل منها فروع ومذاهب . ولست أعرض في حديثي لترويض الجسم ، فله أصول لا تختلف باختلاف البلدان إلا بعض شيء . والكلمة الفاصلة هنا لغوي من يتقن ذلك الفن نظراً وعملاً . فبهنا إذن منصرف إلى تثقيف الذهن وتهذيب الخلق . فكيف لهذا التهذيب ولذاك التثقيف أن يجريا في لبنان ؟ هذا باب الاستطلاع ينفتح لنا :

لست بمقل على إحصاء المدارس من ابتدائية وثانوية وعالية ، واست بناظر في المنة والنهج والكتب ، ولست بمقسم للطرائق وموزع للمنازع . كان بحق هذا لو كنت ممن يعلل ويلان الذي يريد إصلاح الموجود . وقد صارحكم أول هذا الحمايت الذي رى غير هذا ، رى لإنشاء دفعة . فليق الموجود على حله حتى يترى لبرهنته ، فيخالف أهله على أحدث نكون قد جيلناه فصفناه صوغاً هو أرق بهذا العيد . وإن ظن أحد أن إصلاح الموجود قائم قيام سياسة بصيرة ومجدية فهذا مثل مصر العزيزة . رها تدب في تقويم التعاليم منذ عشرين سنة أو تزيد ، صدق واضراد ، ولا تكاد تصنع شيئاً لأنها تجعل الإصلاح يعول في الأعمار المتعدي الذي كن المستشار الإنجليزي Dunlop فرضه عليها أيام الاحتلال ، وهي أيام سود . فمحاية فت الفكر النير تحصره زاوية مظلمة ، ومهما تتحرك الية الصادقة يصرعها حائط ثابت . وحير لنا جميعاً أن منتقل إلى أرض راحة نبني فيها ما نشاء ، فنمور الروايا ونفرج الحيطان على حسب رغباتنا وحاجياتنا ، بدلاً من أن نملك فطنتنا في نقاش عقم ، وننفذ سعياً في الترفق للزاوية المظلمة كيف يدخل عليها شعاعاً خافقاً وفي تحسن الحائط أين نحسن ثقبه .

لتبق المدارس الموجودة بنظمها ونهجها وكتبها . غير أن الذي مضى ، ومن إذا يأس الضيق من شقائه جدد في مراقبته . ومعنى هذا أننا إذا لم نغير عن تدارك المدارس لرسوخ أصولها في صعيد طرنا عنه "يوم" .

رأى في تدبير التربية في لبنان

بنا أن ندعها تنمو على هواها فتخرج جيلاً أو جيلين يشاركان في نهضة الأمة بقدر يسير، أو لا يشاركانها لبته، أو ينصبان لها الحرب.

لذلك لا بد من مراقبة تلك المدارس مراقبة فعالة في ناحية القومية المحضة وفي ناحية برنامج وزارة المعارف. والناحية الثانية مدارها التزام المدارس المختلفة — رسمية كانت أو أهلية — لمنهاج تضعه الوزارة للتعليم. وأما الناحية الأولى فقوامها عفت بعض هذه المدارس أو كنفها عن استباحة كل ما يورث ضرراً بوطنية التلميذ أو يُعقب خطراً على كيان الأمة. ولهذه المراقبة على شقيها فطن المسؤولون عن التربية في لبنان. وقد ترمى إلى أنهم احتطوا رخصة لذلك تترجح بين الشدة واللين. غير أنهم لا يزالون عند الفطنة للأمر، أعنى أنهم لم يخرجوا من الجانب السلبي إلى الجانب الإيجابي. وحسبي هذه الإشارة لسبيل المراقبة، فليست أعنى هنا بالذي هو موجود، بل أعنى بالذي يحسن أن يوجد، أعنى بالإنشاء.

وإني مقترح عليكم رأياً في ذلك أسوقه سياقة الإجمال معرضاً عن التفاصيل:

الذي عندي أن لبنان لا سبيل له — وَّل الأمر — عن معلمين فاضلين، الدولة من طفولتهم الناعمة حتى فتوتهم البالغة، إذ تهيب لهم مدرسة فريده جديدة تكون روحها ونحوها وغايتها من طراز مستحدث:

يُقبل الطفل المعد للتعليم، وهو في الخامسة من عمره، على روضة للأطفال، أغنيماً كان أم فقيراً، ابن وضع كان أو ابن رفيع، ابن درزي أو ابن ماروني. فينمى هنالك ذهنًا ومُحلَقًا وجسمًا تنميةً أسسها الوداعة والبساطة والمناحة، فلا تكليف ولا تخويف ولا تعنيف. ولا حاجة إلى تبين الطريقة التي تخلق بروضة الأطفال، فقد أُلّف المحدثون من علماء التربية عند الإفرنج فصولاً مسبهة في ذلك.

وإذا خرج الطفل من روضته تلقته مرحلة الدراسة الابتدائية، وهي على قسمين: أحدهما للبنين والآخر للبنات. وعند تمام هذه الدراسة يُقبل من الأطفال إلى مرحلة الدراسة الثانوية من كان نجيباً، وذلك بواسطة الاختبارات والأقيسة المعروفة في أساليب التربية. والنجيب من حسن نظره وقوله وفعله، فدلّ على استعداد في الفهم وقبولٍ للتحصيل ومقدرة على السعي الطيب. ثم

تنتهي الدراسة الثانوية، فيقبل التلاميذ الفتيان والتلميذات الفتيات على دراسة طاليه مجمع بين العلوم والآداب والفنون. ومتى نهلوا ذلك النهل الصافي دخلوا في أبواب التخصص، فضى هذا إلى اللغة وهذا إلى الأدب وانصرف ثالث إلى الرياضيات ورابع إلى الكيمياء، إلى آخر ما هنالك من أنواع التحصيل وأوانه. وعند الخروج من هذه المرحلة الخاتمة يُفَرِّز الفتيان والفتيات، ويُنتقى منهم ومنهن نخبة تكون زبدة الصفوة، فترسل إلى أوربة وأميركة ليسترسل كل واحد من رجالها وسائهم في الاجتهاد، ويتوسع في التلقى على غير تقيّد بلغة واحدة أو ثقافة واحدة، لأن المعرفة العليا عدوة للضييق.

ذلك مختصر القول في سير التعليم في تلك المدرسة الفريدة الجديدة سواء في مراحلها أو مايلي مراحلها. ومقصد تلك المدرسة إنما هو إخراج فوج حديث من المعلمين وسرب من المعلمات. أما الذين لم يذهبوا إلى أوربة للاسترسال والتوسع فينتشرون على الفور في المدارس السائرة ويحلون محال المعلمين العاملين فيها، وذلك شيئاً فشيئاً وخطوة خطوة، مبتدئين من الصف الأدنى حتى يبلغوا الصف الأعلى. وأما الذين ذهبوا إلى أوربة فتمى يرجعوا يُقبل فريق منهم على تخرج دفعات آخر من المعلمين في تلك المدرسة الفريدة الجديدة وعلى تأديبهم وتجهيزهم في المرحلتين الأخيرتين، ويقبل الفريق الآخر على شؤون العلم من تنقيب وتأليف وتوجيه.

ومتى توافر من الفريق عدد ذو شأن، ومتى دلت مباحثهم ورسائلهم ولصائحهم على طرافة وبراعة وأمانة، حق للبنان أن يطرق باب العلم الصرف، فيتوج تلك المدرسة الجديدة بمعهد عالٍ مقصور على البحث المجرد والمتجرد، يتلقى فيه المشتاق إلى أنوار العرفان نهايات الشجارب الإنسانية في عالم الفكر، ولا مطمع له في شهادة أو إجازة، وإنما غرضه الاعتراف الدائب من نبع علوى فكأنه يرى مع فيلسوفنا الغزالي « أن تحصيل العلم عبادة بل هو أفضل العبادات ». وبهذا المعهد الذى يذكرني الحلقات التى كان يعقدها علماء العرب في المساجد وفي الزوايا وفي المجالس (ومن قبل عقدها اليونان)، والذي يقارب في تصوري معهداً في باريس هو Collège de France، بهذا المعهد يتفرد لبنان في الشرق العربى - بعد أن نزع « الأزهر » الشريف جليابه - فيصير منارة ويبرهن أن المدّة غير غالبية على جانب منه.

هذا ويحسن إنشاء قسم في هذا المعهد يوقف لأبناء المغتربين المتطوعين في أنحاء العالم ، فتُقرَّب فيه إليهم — في فصل الصيف وأيضاً في فصل الشتاء إذا شاءوا — لغة وطنهم الأول وتاريخه وآثاره ، فينبعث في أنفسهم الحب ويتوثق الانعطاف .

وبعد ، فإن مدرسة كتلك يتوجها معهد كهذا خير للسان وأجدى عليه وأليق به من جامعة يزعم بعضهم على إنشائها ، ومقصده منافسة جامعة كذا أو جامعة كذا ، أو رغبته مزاحمة ثقافة كيت أو ثقافة كيت . نحن في هد الشرق مصابون بداء النفج — والنفج كلمة أحب إمامنا الجاحظ استعمالها ، وهي تفيد التبجح والتزعّم . يقول بعضنا : هيا نشيء معهداً للموسيقى ، فينشئون نادياً . ويقول آخر : عندنا كلية للأدب ، والحق أن عند أصحابه مدرسة تتطلع إلى كلية وتتسلق أولى درجاتها بعناء . ألا كيف تُنشأ جامعة بلا عدد كاف من الأساتذة ذوي الكفايات ! ثم ماذا نحني في العهد الجديد من جامعة تستقبل طلاباً تخرجوا في مدارس أكثرها مجبول من طين العهد العتيق . وأفضل أحد أن النشرء ينشأ بعد سن العشرين ؟ وإذا أذتم لي أن أشتهد بما لاقيت وعانيت فأنه أعلم كم جاهدت نفسي وأنا ألقى العلم في عواصم أوربية ، في سبيل الإفلات من أوهام تكتنفنا والخلاص من نقائص التربية . وما ظنني أفاجت الفلاح كله .

وعلى هذا لا يحسن الإرمع بإيشاء جامعة لبنانية إلا بعد إعداد جيل جديد

والآن ما يكون منهج تلك المدرسة التي تخرج المعامين باطراد ؟ ثم ما يكون منهج المدارس السائرة بعد خروج الدفعة الأولى من المعامين تليها الدفعات ؟ هنا يُنظر في حال الأمة وحاجاتها ، وتُسْتَبان صفاتها إن حسنة وإن سيئة . فيرسم المنهجان على حسب كل ذلك . تلك هي الطريقة العلمية الموضوعية الآخذ باستخراج المواد من الماموسات ، ثم معالجة تلك المواد . من الخط أن يفرض ظان أن أحسبه اختيار منهج من المناهج الأوربية ، فينقله نقلاً إلى بلد عربي وأما قول القائل بأن لبنان داخل فيما يسمونه ثقافة البحر المتوسط ، وعليه يد أن يتأثر خطأ البلاد الواقعة في منطقةها ، فذلك قول مرتجل ، لأنه لا يستند إلى الواقع . فالواقع المحسوس أن لبنان بأرومنه وتاريخه وتقاليده وآثاره ولغته

وعادات أهله ، له ميزات تفرد به فتقصيه قليلاً أو كثيراً عن تلك المنطقة . وإن خلافة من المتخرجين في معاهد إفرنجية أن يجذبوا انجذاباً إلى بلاد تلي ذلك البحر الفاصل لا الواصل ، فذلك شأنهم وحدهم . إذ أن التربية تشمل الأمة بحملتها ، فهي غير مقصورة على فئة . والأمة حقيقة من الحقائق ، وليس من المعقول أن تساق الحقيقة الراهنة بالخيال المرتجل .

ومن الخطأ كذلك أن يُنخذ في لسان منهج يكون هو إياه ، بالحملة وبالنفصيل ، في جميع البلدان الناطقات باللغة العربية . هذا أيضاً عبث بخصائص كل أمة ، وغفوة عن هيئاتها القطرية . ومثل الذي يرى هذا كمثل طبيب في يده وصفة للمعمود يوزعها يميناً وشمالاً دون أن يتفحص المرضى مريضاً مريضاً ويتعرف خفيا المعده ، حتى يعدل الوصفة بحسب ما بان له في جسم كل مريض . وليست حال البلاد العربية من الناحية الاجتماعية متماثلة كل النماثل ، وليست طاحتها تتوافق كل الدوافع . ثم ليست حسنات أبنائها وسيئاتهم واحدة . كما أن هذه البلاد وبلاد لا تفرخ أبداً يعجز البصر أحياناً عن بلوغ مراميها .

إذن نرى من حيث حاصل بالأمة يكون مسيراً لحالها ، كافياً لحاكتها ، زائداً في حساب أفرادها ، مندكاً لسيئاتهم . وهنا باب الاستطلاع يفتح من جديد . فلنمض في رفق وعلى عجلة :

الأمة اللبنانية مورعة في جانب الدين ، مرتبكة في جانب السياسة ، متضاربة في باب التمثل السعي : الأرض تقع تقع والمديسة حي حي ، متباعدة في مجرى الدم : لا مصاهرة فلا التحام ، متفرقة اللحاظ وهي تنظر إلى ماضيها ، حائرة وهي تتأمل كيف يكون استمرارها في الزمن الآتي . كل ذلك عرست له بالتفصيل وتمثيل السمة الماضية ومداكرة أجريتها في كنية لمقاصد الاسلامية ، بيروت وأنا أنكم في مقدمات القومية وعلى رسها اللغة ، فلاحاجة إلى العودة (١) وما صفات أبناء الأمة ، فعض الذي يبدو لي بعد الجلس والتأمل والتعرف أن منهم قصة وحيدة لا وميلاً إلى الاطلاع ، ولكن فيهم أيضاً أو في أكثرهم غروراً يعمشهم من الفتح الذي تحدثت عنه في ما سلف من القول . هذا من جهة

(١) نشر هذه المذاكرة في باب « التعريف والتعريف » من مجلة « المقطف » ديسمبر ١٩٤٤

الذهن . وأما من جهة الخلق ففيهم نشاط ونبات وتعويل على النفس ، مع إلاء فيه خشونة أحياناً ، ولكن فيهم أيضاً تعصباً لأهوائهم ونفوراً من النظام ، ثم في طائفة منهم غفلة قومية أو شبه غفلة . وفيهم بعد هذا تغليب لمادة على الروح في المدن خاصة .

فنظراً إلى كل ما تقدم من وصف حال الأمة وحاجاتها وحسنات أبنائها وسيئاتهم يُسَنُّ السَّنَن في تخرج المعلمين من طفولتهم الناعمة حتى فتوتهم البلغة ، فيخرجون بدورهم الجيل الآتي على حسب ما تخرجوا هم . ويجري ذلك السنن المستبصر بالواقع إلى ركن القومية في النفوس بمراعاة مقوماتها ومعالجتها بفضل وسيلة قائمة ثابتة جامعة هي اللغة المنطوق بها في أنحاء لبنان ، فتتألف القلوب وتتواطأ الأذهان وتتسائر الإرادات ، بعد أن تصرع أو هام الطائفة ومجذبات السياسة ومنازعات التمثل الشعبي ومدفعات الدم وبقلة النظر إلى الماضي وذبذبة المآمل في طريق الاستمرار - هذا من جانب . ومن جانب ثان يجري ذلك السنن المستبصر بالواقع إلى إرهاف القطنة وتسديد الخيال وتغذية الميل إلى الاطلاع ، مع استئصال الغرور وتر التفجج ، ويجري كذلك إلى استئثار النشاط والنبات والتعويل على النفس وإلى ترويض الإباء ، مع تطهير القلوب من سواد التعصب كأنثما ما كان ، وإدراج إرادة الفرد في إرادة الجماعة برهن ثقته عند ثقها ، ومع توليد الوعي القومي وتنميته ، وإعلاء قدر الروح فوق شأن المادة في المدن .

من يسن هذا السنن الذي ما تعديت الإلماح إليه والتمثيل له ؟ من يسلط على حال الأمة وحاجاتها ثم حسنات أبنائها وسيئاتهم نظراً ناقباً ، فيتفحص ويتعرف ثم يقرر ويدبر ، فيعين فلسفة في التربية مستخرجة أصولها وطرائقها من سرار الأمة ثم يعضي إلى مقاصده العليا ؛ كلاً لن يكون رجل سياسة ، بها شغلة ، ولن يكون عابر سبيل . ذلك أن الإنشاء يستلزم رجل عمل مسئولاً دؤوباً ، بل خواضاً لا يعوقه سد ولا تقلبه ريح ولا يحرفه تيار ولا غمامة تغشى لحظه . وزيادة على ذلك إن إنشاء تدير يفترض الدراية بفن من الفنون ، وهو التربية ، مع ما يندرج في هذه الدراية من بصر عال بعلوم شتى مثل علم الاجتماع وعلم نفس الطفل وعلم الأمراض العقلية ، ومن اطلاع وافر على أطراف المعارف التي يتلقاها

الفتى والفتاة — إن إنشاء تدبير هذه صفته لا يحسن به إلا أن يجعل في أيدي نخبة قليلة من البصراء المتخصصين والعلماء الراسخين ، فيكونون جميعاً من أهل الكفايات وأصحاب التعارب لا من أهل الشفاعات وأرباب «المنعنات» كما يقال في لبنان (وهي الحزبية في مصر) . ثم يكونون جميعاً على تجرد واقتناع وإخلاص مع إقدام وثبات . ولوزير المعارف أن يرأس تلك الحققة ويتبين مقاصدها ويمتحن أساليبها ثم يمضى اقتراحاتها ويفرضها فرضاً دون أن يستثنى أحداً .

بقى هذا السؤال : من أين يجلب الأسانذة الصالحون لتخريج الدفعة الأولى من المعلمين ؟ ثم من أين للبنان تلك الحلقة المداركة ؟ فكان قائلًا منكم يقول . أسنأ كلنا غارقين في لجة العهد الماضي ، عهد العناء والضعف والخضوع والرضا وغير هذه ؟ والجواب عن هذا السؤال يسير : إن أحداً لا يستطيع أن يزعم أن المتفقيين اللبنانيين بأجمعهم لديهم أن يزحفوا وأن يرسفوا . ألا أقبلوا على الجد وأبصروا الحق تستبق إليكم من جبدكم ومن ساحلكم هم عالية وعزائم صادقة .

وستكون تلك الحلقة مبتدأً لمجلس علمي يعني بعد توجيه الترية بالإشراف على تأليف الكتب المدرسية ، وبإنعاش اللغة العربية الشريفة وإنعاشها ، وتوليد المصطلحات العلمية نشرها . ثم يعني فوق ذلك بتوحيد أصناف الجهد في ميادين العلم ، فيشارك رجاله — ونسأوه إن هو ضم نساء — في تأديب المعلمين في تلك المدرسة الفريدة الجديدة ، وفي تلقين طلبة المعهد الذي يتوجها دقائق الآداب ورقائق الفنون مع كفاءة المعورين من أولئك الطلبة الممتاقيين إلى أنوار العرفان ، وفي إحياء نفائس الأدب العربي وذخائره ، وفي نقل لطائف الأدب الغربي ولوامعه ، وفي إخراج مجلة مرصودة للبحث والبحث والآداب الرائقة ، لخلاصة التنقيب وعصارة التفكير ، فلا ترديد ولا ترخيص ولا بذل تيسير ، تلك مجلة بالشرق العربي كله حاجة إليها . ويعني ذلك المجلس أيضاً بالآثار والفنون ، فيتمتع التراث العالي ويستخرجه فيحفظه ، ثم يعظم المعارض والمتاحف ودور الكتب ، ويتلفت إلى المسرح والموسيقى والنحت والرسم . وإن نشأ هذا المجلس أول نشأته صغيراً فلن يبطئ أن يمتلئ ويحفل . سوف يحده اللامعون من المنخرجين في ذلك المعهد والبارعون من المتفقيين في معاهد أوربية وأميركة . ثم للمجلس ، بل يجعل به ، أن يستعين في التخطيط والتنظيم ،

والتدريس والتلقين ، بصفوة من العلماء الأجانب سواء كانوا من الشرق أو من الغرب . على أنه من المستحسن أن يجلب العالم الغربي من بلده توتاً ، لأن الأجنبي المقيم قد يكون العهد الماضي غره خرفه . ومن المرغوب فيه بعد ذلك أن يلتقى العالم البريء من إضمار الاستعمار .

ذلك هو التدبير الذي أراه ، رسمته وقد أخففت رأس القلم فلم أشبع أوان الخطوط ، ولم أسطر تفاريحها وتعاريجها إلا بمقدار . فليست في هذه لمذاكرة إلا رجلاً يقترح . وفي اعتقادي أنه إذا سار صاحب أمر على هذا الرسم ، يوم يستوفى خطوطه ، صارت الأمة في طريق التجدد القومي ذهاباً وحلقاً بفضل العلم المستبصر ، فيستأنس الطفل بمنبعه ويعب الفتى من عيونه ثم يهتئ الرجل عند مصبه ، فيدخل في رحاب إنسانية نقية راقية بقلبه وعقله وإرادته ، متمسكاً بخصائص أرضه ، مستنشقاً أنماطاً طيبات مقلات من أرض غيره . تلك هي غاية الثقافة الحق : تفتح الروح وتضعيد الفكر . ولي في عناصرها حديث آخر يطول ، سأفرد له كتاباً برأسه إن شاء الله .

بشر فامس

ت. س. إليوت

١

ولد توماس ستيرنز إليوت ، شاعر الإنجليز الأولى في فترة ما بين الحربين ، عام ١٨٨٨ لأسرة أمريكية تسكن سان لويس من أعمال الولايات المتحدة . وليس في حياته ما يستحق الذكر إلا أنه تلقى علومه بجامعة هارفارد ثم بالسوربون ثم ماكسفورد ، وأنه اشتغل بالتدريس في جامعة كامبريدج ، ثم عين أستاذاً للشعر بجامعة هارفارد . وقد مُطرت عليه الجامعات البريطانية عدداً كبيراً من إجازات الدكتوراه الفخرية تكريماً له واعترافاً بفضله على الأدب الإنجليزي . جمع إليوت قصائده المتفرقة الأولى عام ١٩١٧ ، وكان أهم ما في هذه المجموعة « أغنية العاشق ج . ألفريد بروفروك » ، وهي القصيدة التي لفتت إليه الأنظار . وهذه القصيدة تصور للمفكر في القرن العشرين كيف يذبل الربيع في قلبه قبل الآوان . فستر بروفروك ، وهو لا يختلف في شيء عن مستر إليوت ، كهل يتقدم لخطبة فتاة عصرية تغشى الصالونات وتجيد الحديث السطحي . ولكنه يتردد في ذلك كثيراً ، فهو يعلم أن الصلة بينهما غير واضحة ، وهو يعلم أن ينابيع الحياة قد جفت فيه وأن رياشه الزاهية قد سقطت عنه ، وهو شديد الخجل من قصوره في ميدان الغرام .

« والنسوة في الغرفة ذاهبات جائيات يتحدثن عن ميكالانجيلو » .

« ولسوف أجد في وقتي متسعاً لأن أسأل : كيف تجرؤ أيها الرجل ! بل كيف تجرؤ أيها الرجل ! أجل ، سأجد في وقتي متسعاً لأن أهرب من الموقف وأن أهبط السلم ، وفي وسط رأسي بقعة صلماء . [وحين يرين البقعة الصلماء سوف يقلن : يا لشعره ، كيف يتساقط !] وأنا في حُلَّة الصباح ، بنيتي عالية مستقرة ترتفع إلى ذفتي ، وربطة رقبتى من النوع الممتاز ، ولكنها مشبَّمة بدبوس

بسيط [لسوف يقلن : نعم ، ولكن ذراعيه عجفاوان وساقيه ضامرتان] فكيف
أجروا إذاً على إزعاج الكون ؟ فلا أدخل لنفسي دقيقة لاتدبر ، ففي الدقيقة
متسع للعزم وللعدول ، وللعدول عن العدول .

وهو في كل ذلك يخشى أن يرد خائباً . ويروعه في نفسه هذا الإسراف في
التردد ، فيذكر الأمير هاملت سيد المترددين ويستدرك قائلاً :

« ما أنا بالأمير هاملت وما أرادتني المقادير أن أكون . إنما أنا نبيل في
ركاب الأمير . وأنا نكرة كل تقمى أن ينفخ بي جمع على مسرح أو أن أهد
لفصل من فصول الرواية أو أن أنصح الأمير ، فأنا أداة لاريب طيعة . وأنا جهم
الاحتشاد يسعدني أن أخدم مولاي ، لبق حريص مسرف في الدقة أكثر من
الكلام الطنان ، ولكن بعض كلامي يمل السامعين وبعضه لا يخلو حقاً من
الحماقة .

« لقد أدركتني الشيخوخة ، لقد دركتني الشيخوخة . ولسوف يضر
غذاي حتى تكثر الأطواء في حجر مروالي . »

ولقد تروعاك في هذا الشعر غرابته ، فهو لا يتفق مع النسق المألوف في
القرىض التقايدي الذي نعرفه . ولكن هذه الطريقة الجديدة في الأداء هي
الخاصة التي تميز الشعر الإنجليزي في فترة ما بين الحربين . فاليوم كل شيء
يدخل في تجربة ، ولا يشذ عن ذلك أساليب التعبير الفني . والشعر الإنجليزي
في فترة ما بين الحربين شعر غامض ، ما في ذلك شك ، ولقد يصل به الغموض إلى
درجة الامتناع الكامل على الفهم ، وذلك راجع إلى جملة أسباب :

فالشعر التقليدي المعروف حتى ظهور إليوت يقوم على التتابع المنطقي في أي
جزء من أجزاء السياق وفي السياق كله ، وما خرج على ذلك يعد هذيان محموم
أو ترهات مجنون . أما الشعر الإنجليزي المعاصر فيقوم على التتابع العاطفي
وتتابع الذكريات قبل كل شيء . فالإليوت يقول في « الأرض الخراب » :

« أبريل أقسى الشهور ، ففيه يزهر الياضج في الأرض القواء ، وتمتزع فينا
الشهوة بالذكرى وتنتعش الجذور اليابسة بأملطار الربيع . أما الشتاء فقد أدفأنا
حين كسا الأرض بثلوج النسيان وأطعم الحشرات بالجذور اليابسة . والصيف
أثار فينا العجب عندما عبرنا بحيرة شتارنبرج وانماالت علينا شاييب الغيث .
وقفنا بين الأعمدة وخرجنا إلى الهولخارتن ، وفي هذه الحديقة شربنا أقذاح

القهوة وتجاذبنا أطراف الحديث ساعة أو بعض ساعة تحت ضوء الشمس . كلا !
 لست بروسية ، وإنما أنا ألمانية أصيلة ، ألمانية من لتوانيا . وحين كنا أطفالا نقيم
 في قصر ابن عمي الأرشيدوق خرح بي الأرشيدوق ليتزلق على الجليد فاضطربت
 نفسي . قال : يا مارى ! أمسكيني بقوة يا مارى ! ثم بدأنا نتزلق . إنما نحسن
 بالحرية بين الجبال . وأنا أقرأ عامة الليل وفي الشتاء أنقل إلى الجنوب . . . الخ »
 وهذه الطريقة في الإنشاء لا تختلف في شيء عما يسمونه في التحليل
 النفسي تداعى المعانى اللامترابط . فالمرضى يسترسل في سرد أفكاره أمام
 الطبيب المحلل بلا قيد ولا نظام ، وكما ألقى إليه الطبيب المحلل بكلمة ذكر أول
 فكرة تجول به . ومن هذه الذكريات المفككة يفتضح عقله الباطن وتخرج
 إلى النور مكوناته ومكبواته . وظهور الأساليب القائمة على التتابع العاطفي
 وعلى التداعى اللامترابط نتيجة من نتائج الثورة على العقل التي عمت أوروبا في
 القرن العشرين بعد أن ثبت للأوروبيين إفلاس العلم وعجزه عن تحقيق التقدم
 المنشود للإنسانية في القرن التاسع عشر تحت حكم الرأسمالية التي وجهت العلم
 لخدمة أغراضها المادية لا لتنظيم المجتمع .

ولعل من السينما قد ترك في الشعر الإنجليزى المعاصر بعد الأثر كما يقول
 الناقد الشاعر سميل داي لويس . فالطريقة المرعية في الإخراج السينمائى هي
 الانتقال المفاجئ السريع من منظر إلى آخر دون اعتبار لصلات الزمان
 أو المكان أو التسلسل المنطقي في عملية الانتقال هذه ، والاعتماد التام على وحدة
 الفلم في مجموعه وعلى التتابع العاطفي وحده في أجزاء الفلم المختلفة كل على انفراد .
 وما زاد في غموض الشعر الإنجليزى المعاصر خضوع صحابه للمدرسة الزمرة
 في فرنسا وخاصة للأفورج ورمبو وفاليري . وشعر اليوت بالذات أوضح ثمرة
 لتفاعل هذه التأثيرات الواردة من القارة الأوروبية في عقلية الشاعر ، ونتيجة
 ذلك كله أدب لا سبيل إلى فهمه الكامل أو تذوقه الكامل إلا إذا كان القارئ
 مماً بجميع اللغات الرئيسية وآدابها المماكافياً .

وفي عمود الشعر الإنجليزى خاصة ظلت ثابتة فيه حتى ظهور اليوت ، وتلك
 الخاصة هي استيعاء الميثولوجيا اليونانية والرومانية وتأثر خطى القدماء في
 فنون الإنشاء . فالشعراء الإنجليز من ويات في أوائل القرن السادس عشر
 إلى تينسون في أواخر القرن التاسع عشر قد استمدوا مادة أدبيهم من أساطير

اليونان والرومان وفنهم وتاريخهم ، واستخدموا آلهتهم وبطالهم في التعبير الرمزي وفي المحسنات البديعية وفي الأخيلة بوجه عام . وقد كانت تذوق الشعر الانجليزي في القرون الاربعة الماضية متوقفاً على إلمام القارئ بالترانيم اليوناني والروماني . ولكن هذا الإلمام لم يعد كافياً لتذوق الشعر الانجليزي المعاصر ؛ لأن جذور هذا الشعر لا تمتد إلى حضارة اليونان والرومان فحسب بل تمتد إلى أصول الحضارة الإنسانية بوجه عام . وإليوت مؤسس هذه المدرسة الجديدة يكثر من الاستعانة بالتراث المسيحي خاصة وأثر شاعر المسيحية الأول دانتي فيه صريح لا يقبل الجدل ، بل إنه لا سبيل إلى فهم إليوت أصلاً إلا بدراسة ملحمة دانتي المشهورة « الكوميديا الإلهية » . كذلك يستخدم إليوت ما تعلمه عند السير جيمس فريزر صاحب « الفصن الذهبي » من ميثولوجيا مقارنة بمهارة فائقة . ولقد تجدد في قصيدة واحدة من « الأرض الخراب » إشارات وتضمنات من سبنسر وشكسبير ودائي وجولد سميت وثرلين ودانتي ووفيد وبوذا وسافو ، فهي ملنقى ثقافات شرقية وغربية قديمة وحديثة وثنية ومسيحية . وهكذا الحال في بقية أعماله . وما هذه الظاهرة الجديدة في الشعر الاوربي إلا نتيجة النشاط العظيم في تجارة الفكر بين الشعوب المختلفة واصطبغ الثقافة بالصبغة العالمية في جيلنا هذا . فالتشابه المتعدد في اقتصاديات العالم الذي نجم عن الانقلاب الصناعي لم يعقّد الحياة الإنسانية فحسب بل استوجب ظهور الحروب العالمية والمذاهب العالمية والنظم العالمية والثقافة العالمية ، وعلى الجملة رغم شعوب الأرض على الخروج من حالتها الإقليمية والاتجاه نحو الوحدة والتفاهم في كل باب من أبواب النشاط المادي والفكري .

وإليوت إلى كل ذلك يحشو شعره باختبارات شخصية لا يشاركه فيها إنسان ، فمن حوار عارض سمعه في مقهى « لست بروسية ، وإنما أنا ألمانية أصيلة ، ألمانية من لتوانيا » إلى حادث جرى له « وخرج بي الأرشيدوق ليتزلق على الجليد فأضطربت نفسي » . وهو لا يعمد لهذه الاختبارات الشخصية بل يدمجها في السياق إدماجاً دون رابط على طريقة التداعي اللا متراط . وهذه الخاصة في الشعر الحديث نتيجة انسحاب الفنان الفردي المشفق على فرديته منهزماً أمام القوى الحضارية الجديدة التي تسحق الفردية سحقاً ، وإصراره على إعلان اختباراته

الشخصى الذى يعترف به كلما وجد إلى ذلك سبيلا ؛ فهى بمثابة احتجاج على روح
المجموع التى انتشرت بمجىء الانقلاب الصناعى .
والخسارة الآلية التى تحيط بنا قد لوّنت خيال إليوت ونفذت إلى وجدانه .
لذلك نراه يكثر من استخدام التشبيهات الآلية ويحدث ثورة فى لغة الشعر
لعزوفه عن التشبيهات المستمدة من الطبيعة . فهو يقول فى « بروفوك » :
« هيا بنا إداً نخرج معاً حين يستلقى المساء على السماء استلقاء المريض المخدر على
المائدة » . وهو يقول فى « موعظة النار » : « حين تحفّق الآلة البشرية كأنها
سيارة مأحورة تحفّق فى انتظار راكبها » وهكذا دواليك .
فلا غرو إذاً أن كان شعر إليوت مثالا للجدة والعموض فى وقت واحد .
وقد جذبت طريقته هذه شعراء الشباب فى إنجلترا ، أودن وسبندر وما كنيس
وسسيل داي لويس وغيرهم وغيره ، فإذا نحن أمام مدرسة عظيمة لكل من
أبنائها طابعه الخاص ، ولكنهم جميعاً يبنون على أساس إليوت كثيراً أو قليلاً .
فاليوت بهذا المعنى نقطة تحول فى تاريخ الشعر الإنجليزى ، وهو فى هذا لا يقل
شأناً عن أصحاب التجارب المعروفة مارلو وملتون ودرayدن وشلى وهويتان
وبقية الخالدين .

٢

وإليوت صاحب « أغنية بروفوك » ليس تماماً الشاعر الفيلسفى الذى نعرفه
اليوم . فقد تطور فنه تطوراً محسوساً مع الأيام ، وهو يتقدم باستمرار من
الخاص إلى العام ، ومن الاختبار المادى إلى الاختبار المجرد ، ومن العاطفة إلى
الفكر . ولكنه رغم هذا التطور قد احتفظ ببعض الأفكار الجوهرية الثابتة
فى جميع مراحل عمره . فاليوت القائل سنة ١٩١٤ : « لقد غرفت معين حياتى
بملاعق القهوة » ، هو القائل سنة ١٩٢٥ : « بين التصور والخلق يسقط الظل .
بين القلب والقلب يسقط الظل . ما أطول الحياة » ، وهو القائل سنة ١٩٤٠ :
« قلت لروحى اهدئى ياروح ، فالأمل الذى تأملين أمل فى الباطل . قلت لروحى .
اهدئى ياروح ، فالحب الذى تحملين حب للباطل . لم يبق لك إلا الإيمان ياروحى ،
ولكن الأمل والحب والإيمان كلها فى الانتظار » .

فهو شاعر متشائم حزين ، يضيق بالحياة ويمجد أنها عبء يبهظ روح الإنسان وهو يحزن صابراً إلى يوم خلاصه ، يوم يتحرر سره من بيت الصلصال . غير أن تشاؤمه الأول كان يمتزج بشيء من الميل إلى الدعابة والسخرية ، وحزنه في صدر حياته كان خالياً من المرارة ، ولقد كان يسخر من نفسه قبل أن يسخر من الحياة . فلما نشبت الحرب العالمية الأولى مر إليوت في أزمة روحية كبيرة وخرج منها شاعراً دينياً كامل الإعداد . وزال مرحه القليل وفقد الثقة بالحياة والأحياء وحل به يأس مميت . وفي عام ١٩٢٢ نشر « الأرض الخراب » وهي مجموعة من القصائد صور فيها ضعف الحياة الإنسانية وعقم الحضارة . ولعلها أهم ما أنتج إليوت في الفترة الواقعة بين الحربين . وفي عام ١٩٢٥ نشر « الرجال الجوف » ، وهي أبلغ رثاء للعالم نعرفه حتى الآن . وفيها وصف إليوت القحل والمحلل وجلس ينق على أطلال الدنيا ، وهي أشبه بقداس كئيب في كاتدرائية نخمة مخربة .

« نحن الرجال الجوف بالقش حشينا ، وبالقش حشيت رؤوسنا ، يتوكأ بعضنا على البعض الآخر . فوا أسفاه كلما همسنا خرجت أصواتنا الجافة هادئة خالية من كل معنى كأنها صوت الريح على الحشائش اليابسة أو ديب أقدم الجرذان وهي تمشي على الزجاج المكسور في مخايء الحر بيوتنا .
« أما أولئك الذين انتقلوا إلى مملكة الموت الأخرى بلا تردد فلا يذكروننا فإن ذكرونا لم يذكروا أننا أرواح هائجة ضائعة بل ذكروا أننا الرجال الجوف
« نحن أشكال بلا قوالب . نحن ضلال بلا ألوان . نحن قوى مشلولة . نحن إشارات بلا حركة .

« تلك العيون التي لا أجسر على مواجهتها في أحلامى لا تظهر في مملكة الموت ، مملكة الأحلام . فالعيون هنالك شعاع من الشمس يشرق على عمود محطم ، وهنالك شجرة تترجح وأصوات تسمع في غناء الريح بعيدة رهيبة ، أشد بعداً ورهبة من نجم يخبو .

« لست أريد أن أقرب من ذلك الشعاع ولا من تلك الأصوات في مملكة الموت ، مملكة الأحلام . دعنى لذلك أستخفى منها في جلد فرأو في رياش غراب حقيقى أو في زى غراب المقات بين الحقول أتمايل مع الريح ، فلست أريد أن أقرب .

« كلا ! لست أريد أن أقترّب من ذلك الملتقى الأخير في مملكة الشفق .
 « هذه هي الأرض الموات ، هذه أرض الصبار . هنا أقننا الأصنام ، وهنا
 يرفع الموتى أكتفهم ضارعين إلى الأصنام على مشهد من نجم خاب يتلأأ قبل
 أن يتوارى .

« أهكذا حلّ في مملكة الموت الأخرى ؟ أنستيقظ هكذا وحدنا ونحن
 ننتفض بالأشواق ، فإذا شفاهنا التي خلقت للقبالات تستمّ بالصلوات للحجر المحطم .
 « العيون ليست هنا . فما هنا عيون في هذا الوادي الأجوف وادي النجوم
 الخافية ، ما هنا عيون في هذه المملكة الضائعة ذات الفك المكسور .

« هذا مكان اللقاء الأخير ، وفيه نجتمع وتحسّس طرقتنا معاً عند شط
 النهر العارم وتجنب الكلام وقد عميت أبصارنا فلا نجد ما نهتدي به إلا أن
 تظهر العيون من جديد وتثبت أمامنا كالنجم الخالد ، كالوردة كثيرة الأوراق
 في مملكة الشفق ، مملكة الموت ، وهي أمل الرجال الجوف دون سواهم .

« ها نحن نرقص حول شجرة الصبار ، شجرة الصبار ، شجرة الصبار .
 ها نحن أولاء نرقص حول شجرة الصبار في الساعة الخامسة صباحاً .
 « بين الفكرة والحقيقة يسقط الظل . بين الحركة والفعل يسقط الظل . لك
 الملك يا رب .

« بين التصور والخلق يسقط الظل . بين القلب والقلب يسقط الظل .
 ما أطول الحياة .

« بين الاشتاء لحظة التحقق يسقط الظل . بين القدرة والوجود يسقط
 الظل ، بين الأصل والفرع يسقط الظل . لك الملك يا رب .

« لك الملك . . . ما أطول . . . لك الملك يا . . .

« هكذا تنتهي الحياة . هكذا تنتهي الحياة . هكذا تنتهي الحياة . تنتهي
 بزجاجة مكتومة لا بقرع الطبول » .

ولقد لوحظ أن الحروب الكبرى تنتهي عادة بإثافة من الظواهر بعضها
 طبيعي وبعضها اجتماعي وبعضها نفسي ، فتكثر الأوبئة ويزداد عدد المواليد
 من الذكور وتنتشر المذاهب الجديدة والأزياء الفاضحة والاستهتار الجنسي
 ونزعات التصوف والجمعيات الدينية ومخاطبة الأرواح . ولا غرابة في ذلك فالجن
 تكسر روح الإنسان ، وإليوت شاعر عامر بإنسانيته .

وفصائد « الأرض الخراب » و « الرجال الجوف » نماذج جيدة لهذا الحزن العميم . وشعر إليوت في فترة ما بين الحربين شعر السكارة ، وفنه منصرف إلى استنباط الرموز الصالحة للتعبير عن جذب الحياة الإنسانية . وهذا الرمز في « الرجال الجوف » لون من التصوف المسيحي لأن فيها تصويراً لرؤى تجات أمام الشاعر في عالم المجهول . ولكنه تصوف محدود لأن الرؤيا غير واضحة ، وهو تصوف مستعار من تولات الغير وليس تصوفاً صادقاً مبنياً على الاختبار المباشر . وهو ثمرة اجتهاد المفكر في اختراق حجب الغيب أكثر منه إشراق الصوفي في ساعة الوجد . بل لولا تلك العيون التي يراها الشاعر في ملكة الموت تشرق كشعاع الشمس على العمود المحطم لما كان هناك تصوف ولا رؤيا . ونحن نحار في تفسير هذه العيون ولا ندرى أهى عيون الحكمة الإلهية أو عيون الضمير الإنساني أو عيون أخرى يراها إليوت وحده من دون خلق الله . ولكنها على كل حال تذكرنا بعيني بياتريس محبوبة دانتي اللتين جاء في الكوميديا الإلهية « أن لهما ضياء يغشى الأبصار ويؤذى الناظرين . ولا حرج من هذا الفهم لأن إليوت لا يريد أن يقترب من الضياء لئلا يتلفه الضياء ، بل يريد أن يستخفي منه في جلود الفيران وفي ريش الطيور . كذلك تذكرنا الوردة كثيرة الأوراق بما جاء في « الكوميديا الإلهية » من أن الملائكة تجتمع في صورة وردة حول الله في أعلى طبقة من طبقات الفردوس . ولكن الخطر كل الخطر أن نجزم بشيء نهائي في هذا السبيل .

ويغض من صوفية إليوت أنه غاضب ويأس وحزين . والصوفية الحققة تتنافى مع كل هذه العواطف الكدرة ؛ لأن الصوفية تقوم على الاندماج في الكل والاتحاد مع سر الكون وسقوط الغشاء الذي يعوق الحواس من التغلغل فيما وراء الظواهر . وحالة الاشرار هذه تبعث في النفس الرضا المطلق كما فعلت مع وردزورث وجيتي . وكيف يغضب أو ييأس أو يحزن من يرى وجه الله ؟ و « الأرض الخراب » و « الرجال الجوف » تعبران عن إرادة الموت الكامنة في المجتمع الأوربي ، تلك الإرادة التي نجدها واضحة قوية في كتاب شينجلر « انهيار الغرب » . وإليوت لم يصل قط إلى الصفاء الأبدي ، والبرفانا بلغة الهنود ، فهو إداً ليس شاعراً صوفياً بل شاعر ديني على طريقة خاصة . أو شاعر مسيحي كنسي .

وقد انتقل فعلاً من المرحلة الأولى من حياته الفنية ، مرحلة الغضب واليأس والحزن ، إلى المرحلة الثامنة مرحلة الدعوة لعقيدة إيجابية ، فاعتنق الكاثوليكية بطريقة الإنجليز لا على طريقة روما ، ونزل عن جنسيته الأمريكية وتجنس بالحسبية الإنجليزية ، وأعلن في الناس أنه ملكي لا يقر المبادئ الجمهورية التي يسير عليها ولايات المتحدة ، وجهر بأنه يحفظ يحافظ على التراث الإنساني من لتعارب الخفية الجديدة . وفي عام ١٩٣٠ طلع على الناس بمجموعة جديدة من القصائد هي « رباعاء يوب » وحيثما مستمد من الروح الكاثوليكية ، ومن بعدها مسرحية منظومة هي « جريمة في السكندرية » تصور مقتل القديس الإنجليزي توماس بيكيت في العصور الوسطى .

ثم دخل في المرحلة الثالثة من حياته الفنية عام ١٩٣٦ ولم يخرج منها إلى اليوم . وتتميز هذه المرحلة بانصراف إليوت عن الشعر الديني واشتغاله بالشعر الفلسفي كما نعرف من ديوانه الأخير « أربع رباعيات » ، وهو محصول كيوته الأخيرة أو شيخوخته الأولى . وكأنما يأس إليوت من إذاعة جوهر الكاثوليكية في الناس فكتفى بمخاطبة جمهور محدود من الأصفياء والمتأملين . وهو الآن شاعر ميتافيزيقي ، شاعر متأمل فيما وراء الطبيعة على نهج فكري ، يعرف وظيفته ويرضى فيما يلوح بها ، لأن مرارته الأولى قد غادرته وإن بقي له حزنه الأول ويأسه الأول . وهو في الرباعيات الأربع يحاول كما يقول الناقد هاردينغ أن يحاق فكرتنا عن الأبدية خلقاً جديداً . يقول إليوت في الرباعية الأولى واسمها « بيرت نورتون » :
« لعل الزمن الحاضر والزمن الماضي كلاهما مشتمل في الزمن المستقبل ،
ولعل الزمن المستقبل مشتمل في الزمن الماضي . وإذا كان الزمن بكيته حاضراً
حضوراً أبدياً فالزمن بكيته ضائع بغير رجعة . وما كان يمكن أن يكون تجريداً
له إمكانية دائمة في عالم الافتراض وحده . وما كان يمكن أن يكون وما كان فعلاً
يهدفان إلى نهاية واحدة حاضرة على الدوام . وفي الذكرة يتجاوب وقع خطانا في
الدهليز الذي لم نطرقه ، الدهليز المفضي إلى الباب الذي لم نفتحه قط ، الباب
المفضي إلى حقيقة الورد . وهكذا تتجاوب في ذهنك كلمتي . »

ثم يقول :

« والزمن الماضي والزمن المستقبل لا يتركان للوعي مجالا كبيراً . والوعي لا يكون بالوجود في الزمن ولكن بالزمن وحده نذكر لحظة الوجد في حقيقة

الورد، ولحظة الوجد في الشجرة التي لطمتها الأمطار، ولحظة الوجد في الكنيسة التي تحترقها تيارات الهواء حين يتكاثف الدخان . أجل نذكرها مشتبكة بالوصي وبالمستقبل . وبالأمن وحده تقهر الزمن . »

ثم يرشدك إلى طريق الخلاص فيأمرك أن

« إهبط إلى العالم السفلي ، إهبط إلى عالم العزلة الدائمة ، العالم الذي ليس علماً ولكنه ما ليس بعالم ، حيث الظلام داخلي ، حيث الفقر كامل وكل ملكية قد نزعت ، حيث عالم الحسن قد يبست أليافه وعالم الخيال قد خوى من حلمه وعالم الروح قد بطلت وظيفته . فهذا العالم ليس بعالم هو الطريق الأوحده . »
وهو في الرباعية الثالثة واسمها « الصخور الثلاث » يتحدث عن السعادة فيقول :

« ولحظات السعادة .. لست أقصد الإحساس بالانتعاش أو بلوغ الوطر أو تحقق الهوى أو الطمأنينة أو العطف ، بل لا أقصد شعور الرضا الذي يأتينا من أكلة فاكهة ، وإنما أقصد الإشراق المفاجيء . لحظات السعادة هذه عرفناها ولكن فأتنا مغزاها . وأردنا أن نختبر المغزى فاختبرنا لحظات السعادة من جديد ، ولكنها عادت إلينا في قالب آخر ليس فيه مغزى يدخل تحت مدلول السعادة . »
فاليوت كما ترى يتقدم في شعره من الدين إلى الميتافيزيقا ، وهو يتحدثنا عن لحظة الوجد في حديقة الورد وفي الشجرة المبتلة وفي الكنيسة التي تتناوح فيها الرياح ، وهو يتحدثنا عن لحظة الإشراق وما يجلبه له من سعادة ، ولكنه يعترف دون وعي منه بأن الصوفي فيه قد أفلس أمام المفكر ؛ لأن لحظات الوجد عنده لا تطول من ناحية ويستعصى مغزاها على فهمه من ناحية أخرى . فهي كالرؤى التي كان يراها في مرحلة تدينه قصيرة وباهتة . ولست أزعج أن الصوفي يفهم ما يعلا نفسه من إشراق ساعة الاتصال بالجهول ، ولكن إليوت يريد أن « يفهم » مغزى الإشراق ولا يكتفي باستيعابه والتعبير الخام عنه كما يجب أن يفعل الصوفي الأصيل . وهو في لحظة انبلاج النور هذه لا يزال واعياً يتذكر مدلول السعادة الأرضية كما نعرفها نحن القانون ويضاهيها بالسعادة الإلهية التي تغره فيدرك أن بينهما اختلافاً . وهذه عملية عقلية تثبت أنه صوفي مزيف . أو على الأقل أنه يجتهد التصوف اجتهاداً ولا يكتفي في تأملاته الميتافيزيقية بترهه عقله وراء نخوم الأبد . ولعل إعداده الديني المسيحي الكاثوليكي الأول هو سر إصراره على استخدام حواسه في عملية الاتصال بالجهول على طريقة المتصوفة .

مهما يكن من شيء فإن إليوت يمثل اتجاهها عظيم الشأن في القرن العشرين . وأصدق وصف له ولأمثاله من أدباء الكارثة قول الشاعر العظيم سبندر فيهم إنهم عوامل هدم في المجتمع الراهن ، وإليوت بينهم سيد الهادمين . فهو روح قديم هائم عابر القرون ، وهو عبقرى ولد بعد جيله بأجيال ، فزمانه الطبيعي هو العصور الوسطى وبيئته الطبيعية هي حضارة الإقطاع ، وهو نهاية مدنية بائدة أو نرجو أن تبعد .

عجز إليوت عن فهم الضرورات المادية والروحية في التطور التاريخي المشهود الذي أصاب المجتمع منذ الانقلاب الصناعي ، لأنه من فلول الأرستقراطية اللاصقة بالأرض ، فنقم على الآلة وعلى أصحاب الآلة وعلى حضارة الآلة ، وخيل إليه كما خيل إلى صاحبيه عزرا باوند ، وت . إ . هيوم أن الإنسانية قد انتحرت عام ١٧٨٩ ، عام الثورة الفرنسية البورجوازية التي وضعت حداً لنظام الإشراف ومهدت للنظام الرأسمالي . ولعل نشأة الأمريكية قد ضاعت مقته للبورجوازية في أمريكا تطورت الحياة الآلية تطوراً سريعاً خاطفاً مزججاً عصيف بأكثر القيم الإنسانية الموروثة . وفي أمريكا شاهد إليوت البلوتوقراطية في أشنع صورها ، أي حكم كبار الممولين ، تلقب نفسها زوراً بالديمقراطية ، وتموه على الشعب باسم الحرية وتكافؤ الفرص ، فكان طبيعياً أن يغضب ويحزن ويياس .

ولقد وجد فريق من الغربيين في الثورة الروسية العمالية ، ثورة ١٩١٧ مخرجاً من المحنة التي أنزلتها الرأسمالية ببنى الإنسان . ولكن إليوت لم يجد في الحضارة العمالية شفاء للبشرية من أوجاعها الروحية ، بل وجد أن إحلال الشيوعية محل الفردية كاستجارة من الرضاء بالنار . ففلسفة إليوت إذاً ثورة على ثورتين لا على ثورة واحدة ، ومن هنا كانت رجعيته الأكيدة . ولو أنه كان من أهل هذا الجيل لنفعل رغم ما يراه من صور الدمار بدل أن يحزن ، ويظن بالإنسانية خيراً رغم وحشتها وأنانيها وغفلتها بدل أن يضمر لها سوء الظن ويعلم على الناس عقمة الأبدى ولآمن بأن اليوم أجمل من الأمس وأن الغد أجمل من اليوم . ولكنه لم يفعل من ذلك شيئاً لأنه مفكر طبقي يندب طبقته التي اختفت وتحتفي مع زبد القرون . قال في ص ٣٦٣ من كتابه « مقالات مختارة » :

« إن العالم يقوم الآن بتجربة ألا وهي تسكوين عقلية متمدنة لا تقوم على الثقافة المسيحية ، وسوف تحقق هذه التجربة . ولكننا لن نرى إحقاقها إلا بعد أجيال وأجيال . فلنصبر طويلا ولنحتفظ بالإيمان طوال هذه العصور المظلمة التي تنتظرنا لنننى الحصار ونجدها وننقذ العالم من الانحار . »

فهو ينظر إلى الكنيسة نظر الماركسي إلى الدولة الشيوعية أي يعدّها غاية الحضارة ودعائها الأولى . وهو يخلط بين قيم الدين وقيم الدنيا ، حتى ليقحم بالكنيسة في أخص شؤون الحياة الشخصية والاجتماعية كضبط النسل مثلاً ، فيقول في ص ٣٥١ من « مقالات مختارة » إن « في هذه المسألة قبل سواها لا مفر للإنسان من أن يستهدى المشتغلين بالشؤون الروحية ، فدء الضمير والحكم لشخص لا يعول عليهما . كذلك ينبغي أن تقدم مشورة القساوسة على مشورة الأطباء بصفة قاطعة لأن مشورة الأطباء مضطربة . » وهو يحض على اتباع تعاليم الكنيسة في تربية النشء فيقول في ص ٣٤٩ إن « التأمل والدراسة وتعذيب النفس والتضحية هي المبادئ التي ينبغي أن يراعى عليها الشباب . » ولقد يبدو هذا الرأي فكرة تربوية مألوفة ولكنه عند إليوت مرادف لفكرة الرهبانية . حتى السياسة لم تسلم من لفتاته ، ولقد قرأ بعض نظرياته الاجتماعية في ص ٢٠ من كتابه « البحث عن الآلهة الغريبة » فتخال أنك قرأ صفحات من كتاب هتلر « كفاحي » :

« ينبغي أن يكون الشعب ذا صبغة واحدة ، حينما التقت ثقافتان في صعيد واحد فالمتنظر أن تتناصرا أو تفسد إحداهما الأخرى . وأهم ما في الموضوع أن يكون التراث الديني في الشعب متحدا . والدواعي العنصرية والدينية تجعل كثرة المفكرين الأحرار من اليهود أمراً غير مرغوب فيه . كذلك لا بد أن يكون هناك توازن واضح بين نمو المدينة ونمو الريف ، بين التطور الصناعي والتطور الزراعي ، ثم إن الإسراف في التسامح أمر مريب . »

وهذا الاتجاه الفاشي في إليوت منطقي مع أركان فلسفته الأخرى ومع رسالته الفنية . وإذا لم نجد بأساً من أن نقول إن الفاشية إجمالاً هي الإقطاعية الصناعية اتضحت أصول هذا الاتجاه وأمثاله في الشاعر الرجعي الناقد الرجعي توماس ستيرنز إليوت -

المقدمة

[يلبس المؤرخون إلى الكوفة طرازا من الخط العربي تارة
الخطاطون فيها بالتجويل والتنيح ، منذ منتصف القرن الأول
الهجري ، وكان له في البلاد الإسلامية حظ واسع ، حتى شمل
تاريخ هذا الخط تاريخ الاسلام بأسره]

كانت الحروف العربية منبعجة ، مفرطجة ، متباينة الأشكال ، وكانت أبعد
حروف الكتابة في جميع اللغات عن المظهر الزخرفي . ولعل ما وصلت إليه هذه
الحروف من المكانة الفنية يعد من أكثر التطورات التاريخية غرابة . فقد
أصبحت الكتابة الكوفية أولى الكتابات كلها تناسقا ، وأبدعها زخرفا ،
واستطاع رجال الفن ، منذ ذلك العصر أن يضعوا لها قواعد وأصولا ، بنى الخط
العربي عليها ، واستخرجت منه صور متناسبة وأشكال بدیعة ، بعد ما كان
اعوج من حروفه ، مفردا ومركبا ، فانتصب منها ما كان مائلا ، وانسطح ما كان
منكبا ، وروعى أن تؤدي صور الحروف حسنا في العين شيها « بحسن مخارج
اللفظ العذب في السمع » .

وما زال رجال الفن الإسلامي يخضعون هذه الحروف لغريزتهم الزخرفية ،
بالتطويل تارة ، وبالخشو تارة أخرى ، وبالتبسيط والانتقاء والتسلسل ، حتى
اكتسبت رؤوسها وأطرافها وضوحا في المعنى وفي التسطير .

بدأ الخط الكوفي مرحلته الفنية مرتبطا بالبناء ، متمما له مندمجا فيه ، فافاض
على بساطة جدرانها روحا من السلاسة والاطمئنان ، وتجمعت في هذا الخط كل
معاني الزخرف والجمال ، فما كان البناء جمیلا إلا به . وسرعان ما استقرت فكرة
احمال هذه في النفوس ، وتمكنت حتى تخطت الكتابة الكوفية المباني ، وانتشرت

على كل ما كان ينتجه رجال الفن الإسلامي من الأثاث والأقشة والأواني .
 واتخذت الكتابة الكوفية ، في أول الأمر ، زخرفها من حليتها ، فلما
 تكونت أسسها وأصولها ، واستخرجت منها صور قائمة بذاتها ، أصبحت عنصراً
 منفرداً من أهم عناصر الزخارف الإسلامية . وما لبثت أن تطورت هذه الصور
 وتنوعت ، واكتست بحلى وزخارف مشتقة من الأزهار والنباتات ، وتفرعت
 منها عروق وسيقان ، وتشعبت وتعمقت ، وتعاظمت ، وطفقت عليها الزخارف
 حتى أصبح النظر يضطرب حائراً ، لا يدري أين تبدأ الكلمات فيها ، وإلى أين تنتهي .
 وليس لهذا غصب احتل الخط الكوفي مكاناً ممتازاً بين عناصر الزخارف
 الإسلامية ، فإلى مظهره الزخرفي البديع وجماله الفنى ، كان هذا الخط يحمل في
 حروفه تعبيراً دينياً ، كان ينشر أمام المؤمنين آيات القرآن ، فكان يبهز أنظارهم
 ويحرك مشاعرهم ، ويشير إيمانهم . إذ أراد رجال الفن الإسلامي أن يكون
 للكتابة الكوفية معنى أسمى من الزخرف العادى ، فأودعوها سرّاً يحمل الناظر
 إلى أفاريز المساجد وإطارات المحاريب على الخشوع والإعجاب .
 كان المسلم وحده كفيلاً بإدراك هذا السر ، ولكنه لم يكن له دون غيره
 حظ الانفراد بتذوق الروح الزخرفية التى تشع من ثنايا حروف هذه الكتابة .
 فقد شاركه الأوربي في هذا الحظ ، مشاركة لا تقتصر على إمتاع النظر ، بل في
 متابعة تطورها واقتباس ما توحىه من روح فنية ، تركز على التناسق في التكرار
 وعلى الاتزان في التماثل .

للعلاقات الفنية بين الإسلام وبلاد الغرب تاريخ حافل . نشأت هذه العلاقات
 مما كانت تتبادله أمم العالم حينئذ في تجارتها من المنتجات الفنية ، من أقشة
 وسجاد وصور وخزف وصناديق من العاج ونحف من المعدن . وازدادت
 رابطة العلاقات توثقاً مما كان يشاهده من آثار الإسلام أفواج الحجاج في
 طريقهم إلى « كومبستلو » في شمال أسبانيا ، ومما كان يلمسه الصليبيون في
 حروبهم وإقامتهم ومرورهم بالشام ومصر . ونشأت علاقات أخرى أساسها الرحلة
 واداء السفارات والرسائل بين الأمم الإسلامية والمسيحية ، ودور العلم
 والاداء . وتسربت هذه الصلات من جهة أخرى في إيطاليا من اتصال أهلها
 بالمسلمين في صقلية ، ومن انتقال المسلمين ، علماء وعمال ، إلى أنحاء مختلفة فيها .

وكان لهذه العلاقات آثار كبيرة في تطور العلوم والفنون والآداب، وفي تطور الحيات الاجتماعية والسياسية. وستقتصر اليوم على التحدث عن أثر من هذه الآثار العديدة، هو الخط الكوفي وما لقيه من الانتشار الواسع في الفن الأوربي. ظلت حقيقة هذا الانتشار سرًا مجهولاً حتى منتصف القرن التاسع عشر إذ فطن أحد العلماء إلى طبيعة هذا العنصر الزخرفي وإلى اشتقاق أساليبه في الفن الأوربي من الخط العربي. وتعددت المحووث في هذا الموضوع منذ ذلك التاريخ. ولكنها لم تنته بعد لوفرة محصولها؛ إذ أن هذا الخط الكوفي اتخذ حلية في تحف وآثار لا حصر لعددها في جميع بلاد أوربا، وهو لهذا يعد من أكثر العناصر الزخرفية انتشاراً في العالم وفي التاريخ.

كانت الفكرة الزخرفية هي وحدها التي أوحى إلى الفنان الأوربي، منذ القرن العاشر، فكرة الاقتباس من الحروف العربية وكتابتها، بالحفر على تيجان الأعمدة في الكنائس، وعلى أقواس بواباتها، أو بالتصوير على صفحات الإنجيل أو لوحات القديسين.

والأمثلة على ذلك عديدة، نجدتها في اليونان على لوحة رخامية من إحدى الآثار البيزنطية في أثينا، تمثل فهدين متقابلين يحيط بهما إطار من كتابة كوفية، ونجد هذا العنصر الزخرفي منتشرًا في التحف والآثار البيزنطية التي تنتمي إلى منتصف القرن الحادي عشر والتي صنعت أو أقيمت في منطقة «طيبة» و«أثينا» و«كلماتا» — وفي هذه البلدة الأخيرة كنيسة وهبت للقديس خرامبوس، وبها زخارف كوفية تم عن صورة من أبدع الابتكارات المسيحية لهذه الزخارف؛ فإن سيقان الحروف القائمة لاسم الله تمتد في ناحية بتناسق وثبات، وتجتمع في ناحية أخرى، بحيث يتكون منها شكل الصليب الإغريقي، وهو الصليب المتساوي الأضلاع. ولعل هذا مثل فريد لارتباط المسيحية والإسلام؛ فقد تجمع رمزا المسيحية والإسلام في لوحة واحدة وكتبا عليهما بأسلوب واحد، وبنفس الخط العربي.

ولكل فنان هواه وخياله، واقتباس هذا الخط في إيطاليا في العصور الوسطى يلبس حلية جديدة، وينتشر في أطرافها وبلادها. ومن التحف الإيطالية في هذا النوع مالا يشك الناظر إليها في أنها مكتوبة بيد من تلك الأيدي التي

سطرت آيات القرآن ، على جدران مساجد الشرق والأندلس . وترى أكثر هذه التحف جمالا وإتقاناً في « كانوسا » تلك البلدة التي ذهب إليها الإمبراطور هنري الرابع خاضعاً ذليلاً يلتمس العفو والرضاء من البابا ، حريجوار لسابع . على باب مقبرة في تلك البلدة دائرة زخرفية مقتبسة من الخط الكوفي المزهر ، أساسها حرفان : أحدهما قائم والآخر مقور ، وينتهي هذا الحرف الأخير ، بوريقة زهراء تنحني في رشاقة وإبداع .

أما في أسبانيا وفرنسا فقد تعددت الأشكال وتنوعت . وأكثرها جرأة ما يشاهد في إفريز منحوت في مذبح من كنيسة « أوفيدوا » ، وقد حاول ناحيه أن ينقل كلمات « بسم الله الرحمن الرحيم » كاملة ، ولكنه خلط بين حروفها . وألصقها بعضها ببعض ، وحذف البعض الآخر ، حتى لم يبق منها كلمة واحدة سليمة . ومع ذلك فقد وفق ، ونجحت محاولته نجاحاً يجعل لناظر إلى هذا المذبح يشغل بالإفريز الكوفي ، عما يجري حوله وتحته من صور دينية بدیعة .

ولم يقتصر التعلق بالزخرفة الكوفية على رجال النحت والعمارة ، بل تعداه إلى غيرهم من رجال الفن ، فاتخذها المصورون في إيطاليا عنصراً مكملاً لآثارهم . وانتشار النقوش الكوفية في فن التصوير هذا له دلالة خاصة . فهي متخذة فيه حلية مطرزة على أقمشة ثمينة ألبسها المصورون الإيطاليون كبار الشخصيات التي رسموها . فإننا نرى العذراء والمسيح والقديسين والرسل والشهداء يلبسون هذه الملابس الشرقية الفاخرة التي تجري الحروف العربية عليها بألوان مذهبة أوزاهية . ولم يجد أحد المصورين ستارا يسدله خلف سرير للإمبراطور « قسطنطين » ، ويكون جديراً بعظمته وسمو مركزه ، إلا أن يطرزه في لوحته بكتابة عربية .

كل هذا يدلنا من ناحية على أنه في هذا العصر الذي يمتد من منتصف القرن الثالث عشر إلى أواخر القرن الرابع عشر ، كانت الأقمشة الإسلامية المطرزة بالكتابة الكوفية ، تغمر أسواق إيطاليا ، وكانت هذه الأقمشة ، صوفية وكتيبة وحريرية ، أبدع ما يعرضه التجار ، وأثمن ما يلبسه العظماء والأثرياء . وهل كان هنالك أجل مما يلبسه المصور للعذراء والمسيح والإمبراطور قسطنطين ؟

هذه ناحية من نواحي الحضارة الإسلامية ، لعل لنا إليها عودة إن شاء الله . أما المصورون الذين خلدوا الخط الكوفي في لوحاتهم فهم طائفة عدة ، أقدمهم بنا عهداً « دوتشيو » و « جيوتو » ، وأقربهم « غرلندايو » و « رفاييلو » .

وَمَا نَعْمَاهُمْ فَتَحْتَفِظُهَا كَنَائِسَ « بيزا » و « الفاتيكان » و « أسيز » و « بادوا » و « سيدن » و تزدان بها متاحف فلورنس وبرلين واللوثر ولندره وبوسطن . ولعل هؤلاء المصورين وغيرهم قد فطنوا إلى مصدر الزخرفة التي أحاطوا بها هالة "عذراء" ، وكفن القديس بطرس وبولس ، وإلى أنها تحمل اسم « الله » ، وكان هذا في ظنهم ، تعبيراً للكفر والإلحاد . وكان الخط الروماني قد تطور في المخطوطات ودخلت عليه الزخارف ، من أزهار وطيور ، فاتخذ المصورون طرازاً لأقشمتهم واستبدلوه بالخط الكوفي ، فأصبحت الأتشة الإسلامية محلاة على صور المصورين بالخط اللاتيني ، فكان ذلك إلهاماً أوحاه الخط الكوفي ، وظفر به منافسه القوطي .

ولعل أغرب ما نلاحظ في تطور هذا الخط ، تلك المرحلة التي وصل إليها ، مقتنياً أثر الاقتباس الأوربي للخط الكوفي ؛ إذ تعقدت الحروف اللاتينية واقتصر المزخرف على أن يضع منها حروفاً ، ثم يتناول هذه الحروف في المجموعة الزخرفية الواحدة ، بالتكرار والإمتداد والتشبيك والتعقد ، حتى أصبحت زخرفاً بعيداً عن أى معنى لغوي ، وحلية فنية في حد ذاتها ، وسراً قصد به المصور أن يضع المشاهد موضع الحيرة ، وأن يترك له التكهن بالمعنى الذي يميل إليه ، أو الذي توحيه العقيدة أو الخيال .

وهكذا اتخذ رجال الفن في أوروبا من الخط الكوفي أساساً لعنصر زخرفي ، ثم أحلوا الخط القوطي محله ، وصوروا حروفه بحيث تظهر بمظهر الخط الكوفي ، وتعبّر عما يعبر عنه من الزخرف والجمال . واختلطت بعد ذلك ، الكتابة القوطية بالكتابة الكوفية ، وظل التمييز بينهما ، في أوروبا ، سراً دفيناً طوال خمسمائة سنة .

وغريب أن تكون جميع الاقتباسات الكوفية في الفن المسيحي قد ارتبطت كلها بعضها ببعض ، برابط واحد رغم اتساع بلدانها وبعد الشقة بينها . فهي كلها تقتبس من الحروف العربية سيقانها ورءوسها ، أما بطونها وأذنانها ، فقلما ظهرت في مجموعات رجال الفن ، بل إن الألف وحدها هي قاعدة الحروف « وباقي الحروف متفرعة منها ومنسوبة إليها » . وتشابهت بالألف حروف كثيرة في الخط الكوفي حتى إنك قد لا تجد كلمة واحدة مكتوبة به تخلو من الألف أو اللام أو مما شابههما . ولهذا اختلطت هذه الحروف على رجال الفن المسيحي وحسبوا

زخرفاً يدور حول عنصر واحد قوامه ساق الألف ورأسها . ولهذا أيضاً فإن كل ما كنا نعرفه من زمن قريب ، من اقتباسات أوربا للزخرفة الكوفية لا تخرج عن تكرار لحرفي الألف واللام ، ولا تؤدي في اللغة معنى من المعاني ، فهي كلمات غريبة عن اللغة العربية ، خلقها ارتقاء الخيال وزخرفه .

ليس في هذه المجموعات المنتشرة في بلاد أوربا جميعاً ما يخرج عن هذه القاعدة إلا أثر واحد ، احتفظت به الأجيال المتعاقبة منذ نحو تسعة مئة سنة ، في كنيسة في وسط فرنسا .

هذه الكنيسة هي كاتدرائية العذراء في « البوي » . وذلك الأثر هو بابها الخشبي . وقد تنوعت التأثيرات الفنية الإسلامية في هذه الكنيسة التي أقيمت في أواخر القرن الحادي عشر الميلادي ؛ فقبابها وزخارفها تتصل عن قرب أو عن بعد بالفن الإسلامي في المغرب والأندلس . وبابها الذي نعينه ، منحوت على خشبه صور من حياة العذراء ، بقي منها ست لوحات تمثلها مع ملوك الجوس ، وأمام البشري . وتمثل ملاكا يبشر الرعاة بمولد اليسوع . وعلى هذه اللوحات كتابة لائيقية تفسر الصور التي تحتها .

وللباب مصراعان ، ولكل مصراع إطار يدور حوله ويحصر في داخله اللوحات المنحوتة المصورة . وهذا الإطار حلية زخرفية مقبسة عن الخط الكوفي . ولكن هذه الحلية لا تقتصر على العنصر الزخرفي فهي جملة مكتوبة ، وإن كانت خفيت على جميع من درسوها وامتدحوا زخرفها ، إلا أنها واضحة تقرأ فيها « ما شاء الله » وهي جملة إن لم يقرأها الكثيرون فقد نطقوا بها عند صعود أدراج هذه الكنيسة المرتفعة ، ومشاهدة بنيانها وهيئتها وزخرفها . أو ليس « ما شاء الله » تعبير عن الإعجاب والتقدير ! وهل أراد نحات هذا الباب أن يسجل عواطف المصلين حين تستقبلهم العذراء على أبواب بيتها ومعبدها ؟

تجربى « ما شاء الله » وتكرر بانتظام حول كل مصراع من مصراعي باب الكنيسة . وليس في تكرارها إلا خطآن خفيفان : أحدهما اضطر إليه النحات في ركن من أركان الباب ، ضاق المكان بكلمة من الجملة فحذفها . والخطأ الآخر سهو غير مقصود في ركن آخر من أركانها إذ تكررت كلمة مرتين . أما فيما عدا ذلك فإن الكلمات تكررت في صحة وصواب ، عن ثقة واضمئنان ، بل فيها أكثر من ذلك ، فيها أن النحات حور ونوع في تخارج الحروف ويطونها ورءوسها ، فهو تارة

يكتب رأس الشين الأوسط منثنياً بوريقة لها ثلاث حلقات ، ونارة نهييه بوريقة ذات خمسة قواس ، فكأنه ينتقى من أساليب الزخرفة الكوفية أنواعاً يودعها كلماته ، حتى يندفع الناظر ويحرك خياله في تنوع التكرار دون أن يقف أو يمل . هذه أول مرة (فيما يعرف من تحف العصور الوسطى المسيحية وآثارها) كتبت فيها جملة كوفية كاملة ، ذات مغزى ومعنى ، مقروءة مفهومة ، فهي النموذج فريد في نوعه ، وهو اقتباس وحيد في تكوينه وإخراجه .

ليست هذه الكتابة مقتبسة مما كان يغير أسواق المسيحية من صناديق الخشب العاج ، وأقمشة الكتان والحرير ، وأواني الخزف والفخار ، وتحف النحاس والحديد التي كان ينتجها رجال الفن الإسلامي في تلك العصور ، ويبدعون صنعها ، بل كانت هذه الكتابة منقولة نقلاً عن إحدى الآثار الإسلامية التي كانت زاهرة في بلاد الأندلس .

ويجد المتجول اليوم في آثار مدينة الزهراء في الأندلس قطعاً من الحجارة عليها نقوش كوفية . ويستطيع الباحث أن يقارن بين هذه النقوش وبين نقوش باب العذراء ، فيخرج من بحثه مقتنعاً بأن هذه صورة مطابقة لتلك ، ونقل صادق أمين عن أصل صحيح سليم . وليست عراقات الحروف ورؤوسها وبطونها وأذناها تتشابه في نقوش البلدين ، بل إن نقوش باب العذراء تطق عن علم ومعرفة ما اتفق على أن يكون أصولاً في فن الخط الكوفي ، بالرغم مما يلاحظه المدقق فيها من ضعف في التوازن وقصور في الرشاقة ، وهما ميزتان يعمدهما القارئ في الكتابة الأصلية ، وبالرغم من أن نقوش باب العذراء ينقصها شيء من دقة الرسم ، ويعوزها بعض من التمكن في النحت .

هذا من حيث اقتباسها وتكوينها . أما من حيث إخراجها فقد اتبع مخرجها في صناعته قواعد في النحت انفرد رجال الفن الإسلامي بتطبيقها في تلك العصور . فالنقوش مسطحة قطعت حفيفها قطعاً مستقيماً لا انحناء ولا تقرير فيه ، بحيث تمتد على بساط مسطح أيضاً ، وبحيث تظهر كأنها حروف مستقلة ألصقت على سطح الباب الخشبي ولم تنحت فيه . وكذلك الحال في لصور المنحوتة على هذا الباب ، والتي تمثل حلقات من حياة العذراء ، سموت أجسامها فهي منبسطة ، ليس فيها انحناء أو تقوس يؤدي مظهر النجم ، وقطعت حفيفها بحدة لا ميل فيها ، فظهرت فوق أرضية منبسطة أيضاً ،

فكان هذه الصور ملتصقة على أرضيتها ، وليست بارزة منها ، مندججة في كتلتها . هذا النحو من النحت الذي تستوى فيه الأجسام ، والذي لا يظهر فيه إلا مسطحان مدرجان متوازيان ، كان ابتكره رجال الفن الإسلامي ، واتبعوه في كثير من تحفهم الخشبية والحجرية المنحوتة ، وانتشر منهم في بلاد أسبانيا وإيطاليا وفرنسا ، واقتبس عنهم في الفن البيزنطي .

نقوش باب العذراء إذن مطابقة من وجوه عدة لأصول النحت والكتبة الكوفية ، بالرغم مما نلاحظه فيها من اختلاف يسير في النقل وتردد في الإخراج ، يدل أن صاحبها لم يكن خبيراً بهذه الأصول ، أو أن بعضها كان قد خفي عليه . وهو لاشك كان غريباً عنها ، فلم تكن العربية لغته ، ولم تكن الكوفية كتابته ، ولم يكن الإسلام دينه ، ولكن خياله كان خصباً ، وكانت مداركه وسعت فنون بلاده وفنوناً قضية عنها ، وكان لاشك فريداً بين معاصريه ، فأنتج تحفة فريدة في التاريخ .

كأندرائية العذراء في « البوي » تعرض على مشاهديها آثاراً مقتبسة من الفن الإسلامي ، فيها قباب وعقود وأقواس وزخارف ومجوتات وتيجان ، تصلها صلة وثيقة بهذا الفن ، وتشهد للرجل الذي ابتكره ورسمها وأخرجها بنموذج رائع . وإذا كنا لا نعرف اسم هذا الرجل العبقري ، فإننا نلمس مدى آفاقه في عمله . ولا يتمالك المتجول في أتحاء كنيسه ، إلا أن ينطق بروعة أعماله ، ويؤمن بالمعنى الدفين الذي أودعه نقوشه الكوفية على باب العذراء ، فيقرأها معجباً . إن كان غنياً بسرّها ، وإن خفيت عاينه لنطق بما في معنى « ماشاء الله »

أحمد فكري



خرفة كوفية على باب كوسا

صورة...

صديقي «شوك» هذا لا أراه إلا لماماً ، وكيف أطلع به وهو لا يقطع ثققله واصطرابه . ابواه يدللانه ويرهبانه ، وهو يفرّ منهما ليقيم وحده في غرفة صغيرة على سطح الدار ، يستيقظ مع الشمس فيميدس في نياحه ، ثم يتدهور على الدرج كأنه نجاسة تركلها أقدام طاهرة . . . حتى إذا خرج إلى الطريق خفّ حطود وبدأ تسكعه . . . وعندئذ لا مفرّ من أن نودعه — وإن كانت الساعة لا تزال مبكرة — فهبات للمخيلة أو لمسطق أن يقلحا في تتبعه بعد ذلك ولو كنت به حبيراً . . . فهو قد يفطر فولا وطعمية في سيدنا الحسين ، أو بيضاً مسلوفاً ولحماً بارداً في مطعم بجوار المحكمة المختلطة . هو يدخل السينا لينام ، وقد يقضى أكثر الليل ساهراً في مقعد على شطّ النيل .

استمع إليه يحدثني ذات يوم : —

— اننى أعلم كثيراً من دراسة معارض المصورين الفوتوغرافيين ، وأقف ساعات أمام سكانها الجهولين أنفوس وجوههم طويلاً . وهذا دأبى منذ زمن بعيد . . . دع عنك مصورى البطاقات الشخصية ، فعملهم نوع من التأتأة . . . ولا أقصد مصورى الأحياء الإفرنجية ، فليس بينى وبين معارضهم وشيجة روحية ، وخاصة في هذه الأيام التى أصبحت فيها كأنها ثكبات جنود . . . أما المصريون الذين يظفرون فيها بزىّ رسمى أو غير رسمى فأغلب وقفاتهم متكيفة : على الشفاه انتسامة حائرة بين فرحة الفوز والاعتذار من الغرور . هؤلاء أناس قد تمرنت أقدامهم وأيديهم لطول بطالتها . . . أما صدقائى فهم زبائن مصورى الأحياء الوطنية . كنت أعرفهم فيما مضى بشخصون بأبصارهم إلى العدسة ويحماقون فيها كأنما يتوقعون منها مفاجأة . . . أذرعهم متصلة ، وأيادهم حائرة ، فهي إما مستقرة على الركبتين ، أصابعها تارة منفرجة وتارة مضمومة ، أو ملصقة بأنفخاذهم وأصابعها ممدودة كوقفة صاحب الحلة الجديدة أمام الخياط في

أول نجرة . إثبات الود بين الصديقين أن يتصاحبا أمام العدسة ، وبعضهم يرفع يده إلى رأسه يحيكك أنتَ والمصور والعالم كله . . . أما الفتيات فكالبساتات البرية لا تزال بشوكها . لا تضحك من أحذيتي أو لتسريحه شعرهن ، بل انظر إلى العيون ترجلا فطريا وفرحة الطفل بلعمة جديدة . أما إذا اعتمدت إحداهن برأسها على كفها فوق المائدة ، وتاهت نظرتها ، ومن خلفها ستار عليه رسم زهرية كبيرة أودرح نخم ، فاعلم أنها بنت مدارس ابتدائ — والبركة في القصص الغرامية — بداء الحب . . . كان ذلك فيما مضى . أما اليوم فقد كثر بين أصدقائي من يقلد كلارك جيبيل أو بيتي جريل . . . بعض هؤلاء الناس يثبتون في أماكنهم لا يتحولون عنها ، يوجهون إليك نفس النظرة سنين طويلة — كأنهم قطع متحف ، وبعضهم — كما في عالم الأحياء — يظهر حيناً ثم يختفي ويحل غيره محله . وهذا يذكّرني بمحادثة عجيبه لم أستطع نسيانها إلى اليوم .

صمت شوكت ، وقد تعامت ألا أستدرجه ، فصبرت حتى واصل الحديث فهو ممن لا يطيقون كتمان السر ، ولو كان أمراً يشينه . . .

هو مصور في ميدان من أهم ميادين القاهرة ، كل زبائنه من الأغنياء ، لا يتم لهم عرس إلا إذا جاءهم قبل المأذون ، وكأنهم لا يثبتون من معرفة طفالهم إلا إذا رسمهم لهم . . . كنت أسير غير ملق بالي إليه ، وإذا بشيء يجذبني جذبا . . . التفت فسحرتني نظرة نفاذة كأنها تيار كهربائي ، تنطلق من عيني فتاة جميلة ، ارتدت — ولا أدري لماذا — خمارا أسود . هل يكون تصنع الحزن من بعض الدلال ؟ ومع ذلك هيهات ! فالظرة تنطق بالصبا المتلطف إلى اللذة والمرح والهجة ، يؤججه جسد زاخر بالحياة ، يسكنه عفريت لعب . تتموج على الشفاه ابتسامة كاهنزاز أوراق الشجر يداعبها نسيم الغروب . سرت قليلا ثم وجدتني أعود إليها . ماذا تريد مني ؟ وماذا تريد أن تقول ؟ لم أستطع الانفكاك من سحر تلك النظرة ، ومع ذلك أحسست في جسدي لشعور خفي لم أتبينه حينذاك ولكنه تركى ضيق الصدر مكروبا . مالي وماها ؟ هي فتاة مغرورة تنهاى بحماها ونصورتها الفحمة ، تريد أن تخلد فيها خيال مرآتها الفاني . ولكن لا ! إنها ليست نظرة موجهة إلى نفسها ، بل هي موجهة إلى غيرها . إلى إنسان ، أيّا كان .

أصحت أقصدها وقف عندها ولا أمر في ذلك الطريق إلا سلمت عليها

وسألته عن أخبارها . إن نشوتها تبرد القلب ، وسعادة الصبا تقلب أنفاس الحسد وإن رغم أنفه ، وتقلب حسرة الشيوخ رضا وذكريات وأحلاما . . . ومررت أيام وأنا أتوقع أن أراها ، كما رأيت كثيرات غيرها ، مستندة على دراع عروسها في ثوب أبيض ، له ديل طويل طويل . انتظرت ظهور هذه الصورة أياماً بعد أيام ولكن سدى . . . وظلت نظرتها تثب من وراء الأنواح الرباجية وتستلظ بالمارة كأنها تريد أن تثبت بإسنان من الناس

ثم اختفت . وكرت الأسابيع والشهور ، فإذا بي أحدها من جديد . مرحباً ! مرحباً ! ولكن ما هذا ؟ خلعت ثمارها وبدأ لها شعر أسود فحم في أجل رينة . وارتدت ثوباً وسطاً بين ثياب السهرة وثياب النهار ، حول عنقها عقد لعمد المصور أن يظلل واسطته لئلا تتبينها العين ، بل تدرك أنها ثاوية بين يديها ويلتصق بأذنها فرط على شكل زهرة . إنها اليوم لا تنظر إلى المارة . بل انصرفت عنهم قليلاً ، فهي تريد ولا تريد أن تقع العين على العين وكفأها أذنفا التي مالت بها قليلاً نحونا كأنها تريد هذه المرة أن تسمع ما نقوله عنها ، قد لوتحتنا الشمس — فقد كنا في نهاية الصيف — وكأنها تسر إليك : « إنني كنت على الشاطئ ثم عدت إلى القاهرة » تطلعت إلى الصورة من الخمين ومن اليسار لعلني أظفر بنظرها التي سحرتني فلم أفلح . ماذا دهالك ؟ ولم تشيحين بوجهك ؟ وثبتت الصورة مكانها رماً طويلاً ، من حولها جيران وعالم المارة وموكب الحياة يدور ويدور كأنه رحي طاحون .

وتتابع الفصول . . .

استدارت وارتدت ثوب سهرة يكشف عن واسطة العنق ومثواها ماً . وزكت شعرها بنسدل على كتفيها وواجهتنا من حديد سطرة وبها نحدد واعتداد وكرباء وشموخ . العين مزججة بالكحل ، والشفة أرجوانية بل سوداء ، وكأنها ندية . لما رأيتها تلك المرة أدركت الشعور الذي انتابني حين لقيتها أول ما لقيتها . يا لله لهذا القم وتلك الثنابا . . . قم وامع عريض ، كأنه ممة بتر مهجور . . . وشفتان غليظتان تكشفان عن ثنايا مفلحة . أى شيء لا يقدر عليه هذا القم المتعطش من لثم وتقبيل وما يتلوها من نورات عنفة لا أربك بها عاماً . شهوة عارمة حاححة ، مقيدة بأغلال . تذكرت . لقد شعر جسدي حين لقيتها أول مرة بذلك الإحساس الذي كان يعتريني وأنا صبي ، عند ما كنت أمر

على بعض الأرقه فأبصر بأعماق الهوى يعرّس أحسادهم للناس . كنت أعزق :
يدفعني الشوق ، ورغبة الافضاء ، والفوضى في لجة الحياة ، وتصدني دمامة الفساد
بيخرها وتنهها وقروحها ، لقد كان القبح مجسماً جامعاً على فم هذه الفتة . قدحٌ يثير
في النفس اشتزازها ، ويهب عليها منه ريح حارة كالسموم . عندئذ عزمت على
الفرار منها ، وهجرها وعلى أن لا أعود إليها .

ومرت أيام في أثرها أيام . . . ثم لقيت صديقي شوكت مصادفة على قهوة في
شارع عماد الدين ، وأمامه حبات قليلة من الفستق ، هي كل ما كسبه ثلاثين
قرشاً دفعها في مراهنه بأعص صيدى مكار . وقال لي :
— اننى لا أخسر إلا إذا كنت مضطرب الأعصاب ، ولا تأس على . فقد
كسبت منه مرة أقة كاملة بقرش واحد . نغذا اثنتين ، ودع لي اثنتين ، وأرجوك
ألا تلح على أن أسير معك فلست الليلة خالي البال . لقد كنت أ كذب عليك ،
وإني أخبرك الآن أننى عدت إليها . أ يكون للقبح سحره أيضاً لأنه يجعلنا —
إذا ما انقضى — أكثر قدرة على تذوق الجمال ؟ أم لعل القبح هو مبدأ
الخليقة التى فرض عليها أن ترقى منه — بمجهودها — قليلاً قليلاً حتى تدرك
الجمال . فسحر القبح نوع من الحنين إلى الماضى . ولكن حالى مع هذه الفتاة
على خلاف ذلك . فلا يهمنى وجهها ، إن الذى يعينى هو روحها . إنها لا تزال
مكايها ، تمر أمامها هذه الجموع العفيرة وليس فيها قلب واحد فهم آلامها
ورثى لها . إننى ألمس عذابها ولياليها الساهرة ، وابتساماتها التكلفة تتظاهر
فيها بالسرور وقلبها مغموم . هي يد ممدودة لا نجد من يمد لها يداً . صدقنى .
إننى أمرت عليها فأجد نور عينها ينطق يوماً بعد يوم كاحتضار المشكاة . ستقول
إن الصور تشحب عادةً من طول تعرضها لأشعة الشمس ، ولكن اذهب
بنفسك وشاهدها تجدها وحدها دون بقية الصور قد خبئت عليها ظلال
كالعنكوت ، بل أكاد ألمح على وجهها خطين متعارضين كأنهما لطمتان ، أو
علامة الإلغاء على مسألة مغلوطة . . . ستقول أيضاً إن هذا من أثر ثنى ورق
الصورة تقدم عهده بالمعرض . ولكن ثق أن قلبى صادق فى شعوره . بل إننى
أكاد أجزم باقترابها من كارثة نازلة . ولو ذهبت إلى رجال الإسعاف وقلت

لهم : « امرعوا ! نعالوا أدركوا فتاة دهمها خطر شديد ، فقد أصيب قلبها بحرج
بليغ وتوشك أن تتحطم ، فعساكم تنقذونها كما تنقذون غيرها » لسخروا
منى وعدوني مخبولا . . . وانصرفوا عني أنا أيضاً فليس للخبل عندهم دواء .
وكانت قصة رهان صديقي قد ذاعت ، فتألب علينا بأنمو السميذ والفسق
واليانصيب وماسحو الأحذية والشحاذون فانقطع الحديث .

* * *

و ذات ليلة من ليالى الشتاء الماضى عدت إلى دارى متأخراً ، فوجدت
« شوكت » بالباب ينتظرنى ، لا يابى للبرد ولا للمطر . ولم يكدرأى حتى صرخ
فى قائلا :

— أين كنت ؟ لقد بحثت عنك طويلا . إبنى أريدك معى هذه الليلة .
لا تتركى .

هو مخمور ، لسانه ثقيل ، وعيناه محمرتان .

— لقد رأيته اليوم فى ذهابى إلى القهوة ، وأقسم لك أن نظرتها أصبحت
أشد لمعانا كأنها فصل خنجر . . . وارتسم فيها الغل والغيظ والقنوط والالم
معاً . . . تتلفت إلى المارة ، وإلى جيرانها بنظرة ملؤها السخط والاحتقار .
انقشعت الظلال ، وزال الخطان وتهايات لأمر ، قد طبقت أجفانها قليلا وضمت
شفتيها وبدأ على خديها غضون عميقة . . . ثم عدت بعد ساعتين فألقيت أمام
المعرض زحاما شديداً ، والزجاج مهشما متناثرا ، والصور ممزقة تحت الأقدام فى
الوحل . . . بحث بينها عن صورتها فلم أجدها . . . قال لى بأعجرائه إنه سمع
صوت تكسر الزجاج كأنما أصابته رصاصة . ولم ير أحد شيئا . وقالوا لعله
جندى عرييد قذفه بزجاجة خمر . ولكن هذا كلام لا يدخل عقل . . . إن
هاتفاً يهتف بى أن هذه الفتاة قد انتهت . . . سقطت أو انتحرت . وأن قلبها
قد حطم أغلاله وانفجر .

مضى منى

تمثال الكاتب المصرى

اتخذت دار « الكاتب المصرى » لنفسها ومجلتها شعاراً ، هو صورة ذلك التمثال المشهور الذى يعتبر من روائع الفن المصرى القديم ، ومن أفضل بدائعه وآياته ، كما أنه شعار يرتبط بصميم القومية المصرية العريقة ، التى يسعى قادة الثقافة جاهدين إلى إحيائها ، وإلى اذكاء الشعور بها . لهذا كان من حق القارئ أن يقف على بعض المعلومات الوجيهة عن هذا الشعار الموفق المختار .



فى سنة ١٨٥١ ، وفى أثناء قيام الأثرى الكبير المرحوم مارييت باشا بالتنقيب عن الآثار فى أرض صقارة ، قبيل الكشف عن مدافن العجول — أو السرايوم ، عثر على تمثال الكاتب المصرى فى مقبرة رجل اسمه سنجم — كا ، وهو أحد كبار موظفى الدولة القديمة ، من أواخر عهد الأسرة الخامسة الفرعونية . وعلى هذا يمكن رجوع تاريخ صنع تمثال الكاتب إلى حوالى سنة ٢٥٠٠ قبل الميلاد . والتمثال محفوظ الآن فى متحف اللوفر فى باريس . وهو مثار إعجاب كل من رآه أو تفرس فيه ، سواء فى مكانه ، أو فى شديد صورته الذئعة الانتشار . وذلك لأنه يمثل كاتباً مصرياً قديماً جلس على الأرض متربعا ، وقد بسط فى حجره ملفاً من ورق البردى ، يمسكه ويسنده بيسراه ؛ أما يمينه فتناولت قلم القصب واضعة إياه فى مكانه المعهود على الصحيفة المبسوطة أمامه . وكأن الرجل على أتم استعداد للكتابة ، أو لوصل ما انقطع أدائه من عمله فى التحرير على مر العصور .

ولعل أول ما يسترعى النظر جملة فيه ، هو هذه الجلسة الشرقية التى تمتلئ بالحياة ، نعم هذه النظرة اليقظى التى تفيض بالحرص والانتباه لأداء الواجب المفروض ، فى رضا وحسن قبول .

ما التفاصيل فتبين أن التمثال صنع من الحجر الجيري الملون باللون الأحمر الداكن ، وهو ذلك اللون التقليدي الذي اتخذهُ الفنان المصري القديم للدلالة على أجساد الرجال .

الرأس راسخ مرتفع إلى أعلى ، يوعز بالثقة بالنفس في غير ما زهو ولا خيلاء . أما الوجه فيكاد يكون مربعا ، ويدل في مجموعه على أن صاحبه لم يكن على حط من الملاحظة كبير . إلا أن مهارة الفنان وأمانته في تصوير تقاطيع الوجه وتعبيرات ملامحه قد أضفت عليه غير قليل من جمال الساحة وقوة الفتوة ،



يضاف إلى جمال الأداء والتعبير . فالعيان كبيرتان متسعتان ، تشعان نفيض من بريق الفطنة والدكاء الموهوب ، كما تدلان على هناة الحياة النابضة بالعافية والنشاط الطروب . ويعلوها حاجبان رقيقان مفترقان . أما الفم فتسع ، محده شفتان رقيقتان ، عليهما مسحة من بسمه ، هي عادة دلالة الحذر الأريب . وإذا كان شكل الأنف عادياً ، فإن عظام الصدغين والخدين تبرز واضحة المعالم ، لتدل على أن الكاتب كان في آخر الشباب . أما الجبهة فضيقة ، إلا أنها مسحة ، محلو من قطوب الجمامة والعبوس ، ويعلوها شعر كث قصير . وقد تلفت الأذنان النظر ، لأنهما كبيرتان سميكتان ، ثقيلتا المنظر في بروزها من جانبي الرأس . أما سائر الأعضاء فهي أيضاً صادقة التعبير ، مليئة بالمعاني . فتفاصيل كل منها تتفق مع قواعد التشريح . والمضلات في جلتها ، وخصوصاً عند الصدر ، قد اكتنرت وترهلت قليلاً ، لتنسجم مع سن الرجل المتوسط العمر ، أو الذي جاوز سن الشباب بقليل ، والذي يلزمه عمله الكتاني بالجلوس والاستقرار الطويل ، ولا يسمح له هذا العمل بالحركة أو الرياضة إلا في النادر ، ولوقت قصير . غير أنه يلاحظ على اليدين أنهما معروفتان ، تتجلى فيهما بعض الخشونة . كما أن أصابعهما على شيء من الطول غير معتاد . ولقد شكَّلت الركبتان بمهارة فائقة ، تدل على أن الفنان أراد أن يبرز فهمه الدقيق لتصوير حركة الأعضاء .

وواضح أن الفنان قد أخضع كل أعضاء الجسم — كما أخضع تقاطيع الوجه — لحكم روح سائد فيها جميعاً ، هي روح الانتباه المنتظر الصور . ولذلك إذا لوحظ مثلاً على عضلات الذراعين والجذع والكتفين أنها في شبه استرخاء يقظ ، فإنه من اليسير أيضاً أن يلاحظ أنها على أتم استعداد لاستئناف العمل في الطرف المرتقب .

والواقع أن ما يوحيه تمثال الكاتب المصري جملة وتفصيلاً من صدق التعبير ، ودقة الذوق ، وقوة الحس ورفاهته ، وجمال الرضا بأداء الواجب المطلوب ، جدير بأن يحو عن الفن المصري القديم تلك الوصمة الدائمة ظلاً ، وصمة الصلابة والجود .

— الدكتور أحمد —

شهرات

شهرية السياسة الدولية

عند المقربين الدورين على الحوادث الحارية أن الشهر المنقضى قد برزت خلاله في ميدان السياسة الدولية قسامة أذربيجان ذلك لأجل تبويتها مساعي الحكومة الإيرانية لدى حكومات الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة وبريتانيا العظمى، وتوكلت بشأنها وبشأن الخلاء عن الأراضي الإيرانية كلها مذكرات بين الدول العظمى الثلاث . كما يبرز الاتفاق الفرنسي البريطاني على الموقف من سوريا ولبنان وسائر بلاد الشرق الأدنى . وتحلى بمقاد مؤتمرو وزراء الخارجية الثلاثة في موسكو يحاولون فيه التقريب بين وجهات النظر قبل اجتماع هيئة الأمم المتحدة الجديدة .

وعند السامحين والمؤرخين ، السياسيين منهم والاحتجاجيين ، أن تلك الحوادث التي برزت خلال الشهر المنقضى إنما هي في الواقع العلني « تسور » لمرام كن بعض الوقت واستبان بعض الوقت الآخر ، وتلاقت عناصره حيناً وتناثرت أحياناً ، منظوية على آراء جديدة وأخرى قديمة . تتلاطم حولها التيارات المحافظة والحررة والتقدمية . يحظى بعضها آوة العوز وبسوء بعضها آناً بالاختناق .

وحندي أن ما يشهده العالم الدولي منذ وقعت رحى الحرب العالمية الثانية — وإن تكن مصادمات متفرعة عنها لا تزال قائمة في أكثر من ركن — إنما يسطوي على ما يلمسه تطور الصراع بين تيارين التقدم والرجعية خلال السنوات الثلاثين الأخيرة . وقد بدأ هذا النزاع « الثورة الروسية » « البشفية » تدعو إلى « الثورة العالمية » في وجه الرأسمالية المتحكمة في الأفراد المستعمرة للشعوب ، قتلت عليها قوات الرأسمالية في كل مكان ووقفت منها موقف المحاصرة والتجزؤ للغزو ، بل أقدمت على الاعتداء عليها وارتراع بعض الأقاليم منها . وباءت الدعوة إلى « الثورة العالمية » بالاختناق ، ونال داعيتها « تروتسكي » ما ناله من إيذاء ، واستحالت النظرة الروسية إلى الحد من « دوليتها » ، ووجهت الجهود إلى الاستعداد للدفاع عن النفس وقد أصبح محتوماً أن يجر الشافس الرأسمالي حراً عالمية ثانية تكون أراضي الاتحاد السوفيتي مياداً من مياديتها . ووقعت الحرب التي كانت روسيا تنتظرها وأبلى فيها الجيش الأحمر أحسن البلاء آملاً أن يقع عن طريق انتصاراته ما كانت نظرية الثورة الأوربية تنوق إلى تحقيقه في العالم من طمأنينة وإخاء عن طريق ما كانت تدعو إليه من « ثورة عالمية » . لكن الدبلوماسية السوفيتية ما فتئت ، منذ دخل الاتحاد السوفيتي الحرب إلى جانب « الحلفاء » ، تلمس عند حلفائها من حيثيات الأمور ومن صريح الاتهامات ما ملأها إساءة طن احتاط لها بكثير — وبما تافخ القلو — من الحقد .

وكانت ضرورات الحرب تقضي على الفريقين جميعاً بالقطر والمسايرة . فلما وقفت الحرب في

أوربا، وأنهت الحرب مع اليابان بعد استعجال الأمريكيين لقبولهم الذرية، تمكنت الأمور وبدأ الصبح، فزجر الكاطمون وضج الصارون وتصلب المسايرون. وكانت الولايات المتحدة وكانت بريطانيا العظمى تسمان قبل انتهاء الحرب من أسر القنبلة الذرية ما تملان، فتتمرنا للاتحاد السوفيتي في مؤتمر سان فرانسكو ما استطاعتنا، وخضعتنا لبعض وجهات نظره مرحمتين — لأن الحرب كانت لا تزال قائمة وميادنها لا تزال متضامنة — مميتين نفسهما باتمناز الفرص التي ستسبح، والجائيات منها أكثر من الراتحات.

وتم النصر وعقد مؤتمر تنظيم شؤونه في « بوتسدام » وتم الاتفاق فيه على مبادئ جمهورية تستند إليها الاجتماعات التالية، ثم تبعه اجتماع وزراء الخارجية الخمس، فأخذ الانجليز والأمريكان والفرنسيون يتكرونها في تلك المبادئ المؤهوية وصوروت الاتحاد السوفيتي على أنه هو الراجح في ارتباطاته، فسادت إساءة الطن وباء الاجتماع بالاحفاق. وراح السوفييتيون إلى موسكو يقعون كاطمين النيط، وراح الانجلوسكسونيون يجتمعون في ويلدون اتناهم على التهديد بتنايلهم الذرية، وراح الرفيق مولوتوف يشير في خطاب عبي الثورة إلى أن لدى روسيا قتابل ذرية و « اشياء أخرى » كذلك.

ثم انتقل الميدان من التراضق المباشر إلى التنايد غير المباشر. فأخذ الانجلوسكسونيون يدكرون البلقان وما يقوم فيه من حكومات لا يريدون أن يعترفوا بها، ويدكرون تركيا ويلوحون لها بتأييدهم إياها في موقفها من مشكلة المضائق. كما أخذت إنجلترا تسمى إلى فرنسا تحاول تمهيد الطريق معها لمقد اتفاق يحقق فكرة « الكتلة الغربية » التي احتجت عليها روسيا، وانتهت في سبيل هذا التمهيد إلى عقد الاتفاق الخاص بسوريا ولبنان والذي اتسمت دائرته حتى شملت العراق ومصر وفلسطين وشرق الأردن والعربية السعودية، وهي الكتلة التي تنظر إليها روسيا على أن إنجلترا إنما قد شجعت على « تجمعها » لتكون رقعة تسج منها عند الاقتضاء صوب روسيا.

وبينا الأمور تسير على هذا المنوال إذا بالشعوب المضطوط عليها والمشاركة في الجرس مع أهالي جمهوريات ومناطق ومراكز داخلية في الاتحاد السوفيتي تألب على الدول التابعة لها أو تحفز التألب. وكانت أذربيجان أول الأقاليم التي تألبت على إيران، وكان الأكراد في إيران وفي تركيا وفي العراق، وكان الأرمن في تركيا وفي مهاجرهم في الشرق وفي الغرب من التحفيزين لتألب، وصوروت الأوساط الانجلوسكسونية تألب المتألبين وتحفز التحفيزين على أنهما من فعل السوفييتيين ودسائسهم. فأبرز هذا التصوير في نظر الدول الصنيرة على الأقل الموقف العالمي على أنه تأييد من جانب الاتحاد السوفيتي لحركات التحرر القوي عند الشعوب المغلوبة على أمرها، وعلى أنه تدخل من جانب دول الغرب لتفسير شؤون البلقان والشرق الأدنى على هوى الرأسمالين لا وفق رغبات الأهليين.

وفي هذا الجو يجتمع وزراء الخارجية الثلاثة في موسكو، ويضاعفه مالا تنفأ الصحف السوفيتية تنشره هذه الأيام الأخيرة من ترديد لنهات القتال الدائر في ايتدونيسيا والهند الصينية بين الأهليين وحيوش « الحلفاء »، ومطالبة الهند ومصر وسوريا ولبنان بجلاء الجيوش الانجليزية والفرنسية والأمريكية عنها، ومطالبة فلسطين بالاستقلال، وحق سائر المستعمرات نظام « الوصاية » تمهيداً في سبيل الاستقلال، وضرورة إقامة هذا النظام على قواعد دولة خيرة صحيحة.

وفي الوقت عينه لا يزال التلويح بأسرار القنبلة الذرية وما قد يكون لدى روسيا من أسلحة مماثلة، ولا يزال التهديد بتعديل نصوص ميثاق الأمم المتحدة فيما يتصل بحق الرفض والاعتراض، لا يزالان مستمرين من ناحية الانجلوسكسونيين ، كما لا تزال مستمرة من ناحية السوفييتيين للظالبة بنصيب من حرية البحار لاف الدردنيل والبوسفور وحدهما بل في قناة السويس أيضاً وسائر الممرات في العالم .

وإذن - سواء أأرادت الدبلوماسية أم لم ترد - فإن الوضع الذي يتحلى خلال الحوادث الدولية الحارية في هذا الشهر المنتقضى إنما هو وضع التنايل بين الموقف السوفيتي والموقف الانجلوسكسوني ، يظهر الأول بمظهر الاستناد إلى فكرة التحرير تذوقها الجماعات التقدمية الواعية ، ويظهر الثاني بمظهر الاستناد إلى فكرة السيطرة تحتب الشعوب المستهدفة وتحشاهما الدول الصغيرة التي تقار على استقلالها وسيادتها

وفي هذا الجو ينتظر العالم انعقاد الجمعية العامة لهيئة الأمم المتحدة في العاشر من هذا الشهر المبتدئ* ويتول القائلون إن استقبال هذا الانعقاد بالتدوّل او بالتشاؤم معلق في كثير على ما سينتج من اجتماع موسكو من روح .

محمد عزمي

شهرية المسرح

العباسة مسرحية شعرية تأليف عزيز أباظة

هذه مسرحية للمؤلف الثانية . وقد اختلف استقبالها من المعلنين والناقد على استقال سابقتها « قيس ولبنى » قولت الأولى بالترحيب الحامس والثناء المطلق ؛ بينما اختلفت الآراء في استقبال الثانية ، وتمرضت للنقد ، الذى بلغ بعضه حد العف والهجوم . وهذه ظاهرة طيبة ذات مغزى قيم للأدب والمؤلف جميعا . وأقل ما تدل عليه أن عصر المجاملة لم يعد هو الذى يقرر مصائر الأمور فى الأدب وأقول « المجاملة » دور أن أتقص من قيمة « قيس ولبنى » التى كان لى أنا بالذات موقف قوى فى تقريرها ورأى قاصع فى تموق مستواها الفنى والأدبى بالقياس إلى كل ما تحويه اللغة العربية من نظائرها . ولكى أقول « المجاملة » لأن العمل الفنى الواحد الذى يحور رضاء الجميع — كما بدا فى استقبال « قيس ولبنى » — غير موجود !

وهناك دلالة أخرى لهذا النقد الذى تواجعه « العباس » وهى أن عزيز أباظة لم يجد صبا على مائدة الأدب ، يفتح له أصحاب المأدبة ويهتزون فى وجهه ويشنون كما يصنع للصيفى ؛ إنما هو اليوم من أصحاب المأدبة ، يأخذ مكانه بينهم باستحقاق وجهده ، وعنده أن يشق طريقه ويحتمل صدمات الزحام ! والذى لاشك فيه أنه قادر على الصدام فى الرحمة !

تدور المسرحية على « سكبنة البرامكة » هذه النكبة التى طالما هزت مشاعر الشعراء . فى حينها وبعده عشرات السنين ، حتى لقد كان بعض الشعراء يعرض نفسه للموت فى أيام بنى العباس ليطوف خفية بقبور البرامكة منتدأ مأثرهم — كما ورد فى بعض الأخبار . ليس عجيبا إذن أن تعود هذه المأساة فتحرك شاعراً عاطفياً مثل عزيز أباظة فى القرن العشرين !

وللمأساة جانبها التاريخى الراجح ، وجانبها الأسطورى الذى يصاحب عادة مثل هذه المآسى . والذين تتمعوا عزيز أباظة فى « أنات حائرة » وفى قيس ولبنى ، وعرفوا منها لون مراجع لم يكونوا يشكوا فى أى الحانين يختار ليقم على أساسه روايته . ومع هذا فإن المؤلف حين أقام روايته على الجانب الأسطورى المستند على « حرافة رواح العباسة الصورى ومتوى أن يوسف يحل النظر وحده تمكيناً للرشد من أن يجمع بينها وبين حمفر فى مجلسه ! » لم ينقل الجانب التاريخى للمأساة وهو خوف الرشيد من طموح البرامكة إلى الخلافة أو تسليمها للطالبيين منافسى العباسيين — وبخاصة بعد موقف جعفر البرمكى من يحيى الطالبي — وغيرته من البرامكة الذين أسلمهم مقاليد الأمور فى الخلافة ، فقلوا حتى على الخليفة . وانصرف إليهم الشعراء والقصاص بالأماديخ والمطالب .

ولكن المنبع الروييه صبح ميلا ضاهراً إلى ترجيح المؤلف للعاص الأول واتكائه عليه في بناء الرواية كله .

وليس لأحد أن يعلى على المؤلف اتجاها معيناً . إلى التاريخ الراجح أو الأسطورة الشائعة ، أو إلى المزج بينهما مرحاً متعادلاً أو غير متعادل . فالمبدع الفني حر في اختيار طريقته ، وكل ما هنا هو أن نسأل في النهاية : أوفق أم لم يوفق من الناحية الفنية البحتة ؟ وهل أضاف ثروة فنية أو نفسية إلى الرواية بمخالفة التاريخ ؟ . . . وهذا ما سنحجب عنه بعد قليل .

ولقد لفتت نظري تلك المدعة البالية في تقديس الماضي ، التي تقول : إن في إقامة المسرحية على أساس هذه الأسطورة الشائعة تشويهاً للحضارة الإسلامية وتحويلاً للشخصيات التاريخية ! وهت الذين قالوا بهذا القول ، أن تلك الأسطورة ليست من صمغ « عزيز أنطلة » فهو لم يتدعها ابتداعاً ، إنما هي رواية وعاشا التاريخ محققاً أو غير محقق ، وتاشت بعد المأساة إلى اليوم . وهذا حنج مؤلف إلى استخدامها في عمل فني — لا في تحقيق تاريخي — فإنه لا يكون قد صمغ شيئاً أكثر من ترديد رواية قديمة ، وصوغها في صورة تنقلها إلى المستوى الفني :

والذين يستعظمون أن يحور جعفر عهده مع الرشيد وأن يطبع الهوى مع العباسية ، يستعظمون على العباسية — بحجة أنها أميرة هاشمية — أن تضعف فتقسم . . . هؤلاء ، إنما يقدمون نير مقدس ، فوق إغناهم للنوازع البشرية الحية التي هي قواء الحياة وقواء الفن أيضاً .

على أن الراجح تاريخياً أن المأساة كانت عنية بنت المهدي لم تكن فوق مستوى الشبهات . . . وعلم ذلك عند الله طعماً ، ولكننا في دائرة الأحبارية الشائعة يذكر هذا — وهناك رواية تقول : إنه كانت لجعفر « قهرمانة » تريس له الحوارى والنساء ، وتقدمهن إليه في لياليه الخراء ، وأن العباسية كانت مولعة بجعفر — وهو الذى نشأ صغيراً مع أخيه هرون — ولكن مكانها من الخليفة لم يكن يديح لها ولا لجعفر إرواء هذا التوله ، فرغبت إلى قهرمانته أن تقدمها إليه في ليلة دور تعريف . . . وكان هذا ، فلما كشفت له عن شخصيتها بعد ، تماطله الأمر وتوقم الشر !

وعبر عزيز أنطلة كان يؤثر أن يقيم روايته على مثل هذا الاتجاه — دور أن يومه أحد — وكان يجد في زوات الوجد الحامض ، وانفجعت الهوى الآثم بحالا فسيحا لتصوير النفس البشرية — في أحد جوانبها — ولتصوير الحاسب الداعر كذلك من الحضارة العباسية — وهو موجود بلامراء ، مع جوانبها الأخرى — كما يجد بحالا لتصوير الدسائس تحاك حول الدرامكة من الحاسدين والموعورين ، وتبتر انفجالات النفقة وأحاسيس الشرف في نفس الرشيد . . . الخ

ولكن عزيز أنطلة فطرته الطيبة ، وبطهارته ضميره ونقاوته ، ثم بتجربته العاشية المقدسة ، لا يمنح إلى استلهاء مثل هذا الخاف في حياة الناس ، فهو موكل بالحديث عن العواطف الروحية ورمها إلى مستوى الطهارة المقدسة من جهة ، وإلى مستوى الاحساس الفني من جهة أخرى . ولما كانت الحياة الروحية يحكم هدوئها وتسلسلها قد لا يجد الفن فيها من الوهج والحرارة ما يجعلها تدخل دائرته ، فقد توكل بها هذا الشاعر العاطف ، ينفث فيها من الوهج ، ويت فيها من الحرارة ما يرمها إلى المستوى الفني في أعماله كلها ، سواء في ذلك « أنات حائرة » أو « فيس ولبنى » أو روايته « العباسية » الأخيرة . ولهذا احتار أسطورة الزواج

العموري — وما فيه من تطلع وحرمان — ليوقع عليها أعذب أنامه وأحرها ، وليرتفع
بنفحات الحب الزوجي إلى مستوى ذمات الحب العذري في جميع الصور .
وما قد رأينا أنه لم يكن هناك تخرج لجعفر ولا للمباسة ، بل كان هناك تطهير لها إذا نحن
واعيننا بعض الروايات التي تنصها الأخبار .

أما شخصية الرشيد فإنه لاحظ أنها بدت في الرواية أصغر مما هي فعلا ، بل لقد بدت
زرية في بعض المواقف . ولكن لا أذهب في هذا منهج الذين يقدسون الرشيد وينظرون
إليه بمدة الأساطير المكبرة !

والواقع أننا نحاط في تصورنا بين عظمة عهد الرشيد والرشيد نفسه ؛ وهذا هو الخط التاريخي ...
فعهد الرشيد كان عظيما بالفعل — وإن لم يبلغ إلى المستوى الأسطوري الذي يعيش في بعض
الأذهان — ولكن الرشيد نفسه لم يكن في عظمة عهده . دلت أنه كان وارثا للعظمة التي
أسسها المنصور ودعها المهدي ، فكان نصيبه هو نصيب الوارث لرصيد ضخيم ، قد يستأمله
ولكن عمله فيه محدود ؛ وهو على أي حال لا يبلغ عظمة المنصور العبقري في بناء الدولة ،
ولا عظمة المأمون الفكرية في بناء الحضارة العقلية .

والذي يؤخذ من وفاته صغيراً في نحو الحامسة والأربعين ومن تصرفاته كذلك ، أنه كان
عصبي المزاج ، سريع الانفعال ، كثير الثقب من طرف إلى طرف في المشاعر الإنسانية ،
مترفاً في المتاع ، مفرطاً في الشهوات — على ما كان يتتابه من ثورات الرهد وانتعالات المباداة ،
فتلك سمه هذا المزاج المتقلب — وكان لهذا كله أثره في معاجلة المنية له في شرح الشيب .

والآن نعود إلى السؤال الذي أرحنا الإجابة عنه ، فسأل : أوفق المؤلف أم لم يوفق
من الناحية الفنية البحتة ، وزاد في الثروة الفنية والفنية مخالفة التاريخ أم لم يزد ؟
والإجابة على هذا تقتضي أن نطلع حوله صفة تناسيم قبل أن ندخل في الصميم !
إذا كان العمل الفني غير مطالب بموافقة الحوادث التاريخية الحزمية ، فإنه مطالب بصحة
تصور الجو التاريخي العام . وقد كانت الفرصة سانحة للمؤلف ليصور عهد الرشيد كله في
ضوء نسكة البرامكة . ولكنه ضيق الدائرة فكاد يحصرها في قصر الرشيد وفي دسائس
النصر حول البرامكة ومكايده نساءه ونورة بغداد ، وعلى الهامش نورة مصر ونورة الشام ،
وهي التي ألم بها المؤلف في الطريق .

ولقد كانت حياة العصر وحياة الرشيد نفسه أوسع من أن تحصر في هذا المحيط الضيق
كانت هناك غزوات الروم وهي التي أنفق فيها الرشيد سنوات من حياته ، وكانت هناك
حججته المتوالية التي كانت سنواته دولة بينها وبين النزوات . ولاحدى هذه الحجج علاقة بجعفر
فقد سبقت النسكة وكان لجعفر فيها مكان ملحوظ — وهذه وتلك لم يبد لها ظل في الرواية
كلها — وكانت هناك حضارة العصر المادية والروحية والفنية بشتى مظاهرها وملابسها —
وهذه وردت في الرواية إشارات لها ، ولكنها إشارات لفظية في معرض تفاخر الرشيد
أو الثناء على البرامكة ، وكان يمكن إبرازها في ملابس أظهر وأقوى من الكلمات المجردة ،
وإبراز إشاعتها في جو الرواية كله لاشمار التطارة بحقيقة عظمة العصر ، وهو عصر
الامبراطورية الإسلامية في أزهى أيامها .
والست أرى — بصيغة الحال — أن تستحيل الرواية دراسة مطولة لعصر الرشيد —

وبخاصة أن اسمها « العباسية » يحد من مجالها — ولكن كنت أود أن ينسج محيطها إلى الحد الذي يسمح لشخصياتها الأساسية أن تضطرب في محيط مناسب لها وللمصر الذي عاشت فيه ، وأن تبدو جميع جوانبها الانسانية أو أكبر عدد منها في هذا المحيط الفسيح .
فإذا نحن تجاوزنا عن هذا ونظرا إلى الرواية في محيطها المحدود الذي أراده لها المؤلف ، فإننا نطالع التوفيق المعجب في حركة الرواية ، وفي إدارة الحوادث ، وفي رسم الشخصيات ، وفي الخصائص الفنية المسرحية ، وفي الأداء الأدبي . . . كلها جميعا . وإن كانت لنا بعض المآخذ على الفصل الرابع وعلى بعض الفصول الأخرى .

للمؤلف حاسة فنية مسرحية لا شك فيها ، تتبدى بوضوح في توزيع الحوادث والانفعالات والحركات في رقعة الرواية توزيعا تبدو فيه الحيوية والتساق الدان لا يتوارران إلا لاصحاب هذه الحاسة لموهوبة . وإن كانت هذه الحاسة تحون صاحبها في الفصل الرابع وتفتقر قليلا في الفصل الأول ، ولكن إلى حد لا يؤثر في هذه النسيئة الباردة امطرده .
(ويضيق المقام عن ضرب الأمثلة المفصلة)

وللمؤلف فطرة سليمة في رسم الشخصيات وبت الحياة فيها ، الحياة الطبيعية الداية ، لجميع شخصياته حية تتصرف تصرف الأحياء في محركات طبيعية لسلوك بلا تكلف ولا تمعل للعادة أو للانفعال . ولكل منها مبررات طبيعية لسلوكها وأسباب قوية لاتباع حياتها .
فالعباسية هي المرأة المحبة والروح المحرومة ، والام الحائرة ، وهي تصارع في هذا كله امرأة أخرى ليست دوافعها بأقل أصالة عن هذه الدوافع . تصارع « زبدة » المرأة الفيور ، والملكة صاحبة التاج وأم ولي العهد ، وهي تنفس على العباسية شأها وجبالها وأنارتها عند الرشيد ، وتحشى على تاج الخلافة ، وتنافخ عن ولي العهد ابنها الحبيب !
وحعفر هو الشاب الذي تدب له الدنيا في هذا الوقت فيزهي بالشباب والمجد ، وهو الروح المحب المحروم من حبه لسب لا يرتضيه ، فهو سليل الأكارسة الذي يحد نفسه — مع كل أمجادها — ينز بالهجنة ويوصم بعدم الكفاءة للأميرة الهاشمية ، فترج في نفسه وتثور جميع روااسها وانفعالاتها .

والرشيد هو الخليفة الذي يخشى على العرش والخلافة ، والذي يطمع في ترفعه الهاشمي من رفيق شبابه وصباه ، مع ما هو واقع فيه من تأثير الروجة الفيور ، ودسائس الحاقدين والمونورين ، وهي ليست كدنا كلها . فحفر في نورة من نوراته يشير إلى خراسان وجنودها ويقرر أن ليس للملك والخلافة عليه منيعين !

ويحيى بن خالد هو الشيخ المحرب الفطن المحنك ، يرى بفتنته وتمجسته تلك المواد البعيدة التي لا تراها حعفر في اندفاعة وشوته ، وقتته بالمجد والشباب ، ونورته في فورة الحب والاعتزاز .

ومرثمة بن أعين هو القائد العربي المظفر الذي لا يحد له مكانا في الدولة البرمكية ، فلا عجب أن يشترك في المؤامرة الواسعة النطاق . . . وكذلك بقية الشخصيات الثانوية .
وهكذا نجد كل شخصية ، طبيعية في مواقفها ، طبيعية في اتجاهاتها ، ونلمس المبررات الواضحة لسلوك كل منها في الحياة . ولاسى — في هذه المناسبة — أن نلمح من وراء هذه المبررات طبيعة عزيزة بأظلة الطيبة السمعة الودود !

وبالعجب كبير نلاحظ ذلك الصراع الدائم بين المراتبين الأساسيين في الرواية : العباسية

وزيدة . فهو صراع تحمت له كل أسابه الطبيعية كما أسافتنا . وهو — بهذا — صراع
مرأتين خاصة لا مطلق صراع . فيه طرائق الأتني في الحبكة والحركة والمؤثرات والدوام .
وعليه طابع الصراع الأتني الميز ، وهو بروز المكيدات الصغيرة المازله في زحمة الصراع
الضخم وفي حرارة الحب الرصين . فزيدة الملكة الحسيفة العظيمة لا تترفع عن دفع سكبنة
ست الريع إلى غمز العباة في رحلها جعفر من الناحية الأتنية فاذا هي تفرس بذكر الحوار
اللوآني أحضرهم معه من غزوته المظفرة ! ولكن علة أخت العباة ترد المزة بنمس
الطريقة

لعلها هدية الوزير مرفوعة لعامل الصغير
إن القيان زينة القصور !

ومثل هذه البفتات كثيرة ، وهي تدل على راعة نفسية كالرعاة المسرحية الفنية !
فما التمة فيلها المؤلف في ميدانه الأصيل ، حينما يصور بوارع حمير الراج المحروم
وعواطف العباة الزوجة الالهة . يبلغ هنا قته الفنية وقته العاطفية وقته الأدبية جميعاً ،
ويصل إلى درجة الروعة في نهاية الفصل الثالث على ما تفرق من روائع في بقية الفصول .
ذلك حين يضطران — وهما الروحان — أن يتزعزعا منهنما ويندم عليهما بعيداً حينما
أن يكون وجوده وانقضاء صلتها الحقيقية سلاحاً في أيدي المتأمرين !
حينئذ تنفجر العباة في شيد دام رائحة أشبه بالشيخ المرح المكتوم :

وددت لو كنت في بغداد جارية	في بيت صالحة من أهل بغداد
أظل أقضي لها شق حوائجها	وأنته الزاد ما أعطى من الزاد
وأرئدي الثوب من أخلاق ما خلعت	أزهي به بين أترابي وأندادي
حتى إذا مال ميزان النهار بنا	فصلت أهواي إلى زوجي وأولادي
أضهم بجناحي رحمة وهوى	كالطير تحشى على أفراسها المادي
والدار حالية تبهى بأسرتها	كما أزدى بالخير السلس الوادي

وهي تستنفذ جميع لمظاهر والذبات وتتبدى امرأة المحبة المنجعة عارية في أروع عواطفها
وأصيح حوائجها ، واعتمق انجاساتها . ومثل هذا في الرواية كثير . وهو وحده يبلغ بها
حداً معجباً من التوفيق .

وددت لو ظلت أردد هذه النعمة التي نعمة عن كثير من العمل التي في رواية . ولكنني
مضطر أن أعود إلى التاريخ وموقف المؤلف منه في الفصل الرابع . . .
لبس على المؤلف من بأس في أن يحالف الواقع التاريخي ، على أن يوضنا عنه بالواقع
النفسى . ولكن المؤلف في الفصل الرابع قد خالف الواقعين جميعاً .
فهذه المحاورة الطويلة بين الرشيد وحمير لم تقع تاريخياً ، وليس لها مكان في الواقع
النفسى ، بل هي مخالفة لطابع الأشياء . فالرشيد الذي يعلم من أمر البرامكة ومكانهم في الدولة
ما يعلم لا يقدم على الإيقاع بهم إلا بعد تدبير حكم مبيت منذ زمن طويل ، ولا يفشى بيانه

هذه ولا يظهر منها شيئاً خفية انتقاص البرامكة من تمام التدبير — وهذا ما حدث فعلاً في التاريخ — بخلاف ما بدا في الرواية ، فالجميع كانوا يحسون بالنكبة قبل وقوعها ويتباؤن بها . كما يبدو في الرواية أن الرشيد لم يصمم إلا بعد هذا الحوار الطويل الذي أصر في نهايته قتل جعفر ، فكأنه لم يمس بين التصميم والنكبة إلا دفعت لا يتبع فيها الوقت للتدبير المحكم الشامل الذي تقوى البرامكة في طول البلاد وعرضها كما يقول التاريخ ، وكما لا بد أن يكون وكثير من الحوار ليس طبعياً أن يقوله الرشيد . فيه غش من كرامته وتحقير لشأنه ولا يقدم عليه خليفة مهما تكن الظروف ، ومهما كان واقعاً ، فحسبه أن يحسه في نفسه ثم يكتبه رعاية لمقامه وحفظاً لكرامته .

وقد يكون عذر المؤلف أنه شاء أن يبرز موقف الرشيد . ولكن هذا لا يكفي من الناحيتين الفنية والواقعية . على أن هذا الحوار يمكن إغفاله كله دون أن تنقص هذه للبررات شيئاً ، فقد عمنّاها جميعاً في ثانيا الرواية قبل الحوار ، وعدنا الرشيد في الإصغاء للمؤامرات وأدركنا أنها ليست كدما كلها من بدوات جعفر . ومن تصرفه مع يحيى الطائي ، ومن ثورة الصناع ، وما قالوه عن ضعف الخليفة واتساع سلطة البرامكة . . الخ

وقد يكون في الوقت منسجم ليحذف المؤلف هذا الحوار كله ، ويعيد بناء الفصل الرابع على أساس هذا الحذف دون أن تفقد الرواية شيئاً يذكر ، بل تريد صحة وترتفع فناً . وهناك هنات أخرى صغيرة — ولعلها ليست هنات بل وجهات نظر — تحدث الحوارى والرائع كان من حيث المستوى الفكرى والتعبيرى في مستوى حديث الخليفة والوزير والمساء وزيدة . . وأنا أؤثر أن يتحدثوا في مستواهم مع المحافظة على مجرد صحة اللغة دون روعة الأداء . وهناك شعراء يقوم الواحد منهم إثر الآخر فيتحدث بنفس البحر والقافية في الثناء على البرامكة ، وكان من الخير أن تتنوع النعمة بتنوع المتحدثين ؛ فهذا هو الطبيعي في الحديث .

أما الهنات التي لا شك فيها هي تلك الأناشيد التي يستقبل بها جعفر البرمكي في الخارج بعد عودته من الشام والخليفة على رأس الموكب ، وتلك الأماذج التي يحس بها الشعراء جعفراً في حضرة الخليفة وكأن الخليفة صفر على الشمال كما يقولون . بل إنه ليسلك نفسه في عداد الشعراء والمداحين للوزير !

ثم هي في نفس التعبيرات التي ستحدث في العصر الحاضر ولم يكن لها في ذلك العهد وجود . . . مثل أن تقول العباسية - أخت خليفة الاسلام - عن طغلتها :

أنظر إليه ملكاً حالماً كأنه عيسى عليه السلام

ومثل أن يسلم مسلم على الخليفة فيقدم اسم المأمون على الأمين ، وهذا أولى العهد . ممن وقع هذا ؟ من العباس بن محمد الهاشمي في وقت تنور فيه عصيتان : العرب والفرس وتتصارعان .

ولكن حسب الرواية بعد هذا كله أن مواضع الإحادة فيها متفق عليها من الجميع ، وأن مواضع النقص قد تختلف فيها الآراء . ثم حسبها أنها أسلم من جميع المحاولات الشعرية السابقة في اللغة العربية ، وهذا حق يجب إبرازه وتقريره

شعرية المسرح

وبعد ، فإذا صنع المخرج والممثلون بالرواية على المسرح ؟

الجواب - مع الأسف - مما يؤذى المسرح المصرى والفرقة المصرية للتمثيل : الجواب أن الاخراج أبرز الحضارة الاسلامية في عهد الرشيد في صورة زرية ، وأبرز الرشيد نفسه في صورة أكثر زراية . وإني لأسائل : أهؤلاء من جوارى عهد الرشيد ، وهذه هي معنيته ؟ أهذه خامة التصور في عهد الرشيد ومشاهد الحضارة في زمانه ؟

يقال : إن العذر هو فقر الفرقة ، وفقر الأوبرا . . . وهذه فضيحة ! فأين الدولة ! ولم لا ترصد لهذه الروايت التاريخية إعانات خاصة من وزارة المعارف كالتي تمنح لفرق الأجنبية ؟ وإذا تجاوزنا المناظر والملابس والمظاهر الزرية ، وانحسنا إلى الممثلين سواء تباث في الصورة التي أبرز فيها الرشيد . مثل كان المؤلف قد حار على هذه الشخصية بعض الشيء ، فقد أجهز المخرج والممثل عليها تماما ! ما هذه المسبحة في يده ؟ وما تلك الابتعادات والاهترارات المتكررة ؟ وما هذه المشية والحركة . . . أهو « درويش مهبل » . ذلك الرشيد صاحب أكبر امبراطورية إسلامية ؟ . . . وزبيدة ! أمى تلك المتفجرة القفص المتكلمة الحركة كأنها إحدى المتحدثات !

وابن الهادى ! لقد حسنته أحد الصعاليك في قاءته الزرية وإشاراته المضطربة ولفظه المرتج وحركاته الرعناء ، وبقية الهاشميين والبرامكة ! عن أى مصدر من مصادر التاريخ أو الخيال ، أخذ المخرج حركاتهم في المشي والجلوس والاشارة والكلام ؟ ! تلك الحركات التي تصفهم بالدراويش أو الرعاع ؟ ! ثم أين السواد ، شعار العباسيين التاريخي الشهير ؟ ثم الاسراف في البكاء والانفعالات العيفة . لقد كان ربع هذه الدموع والخشخشات كافيًا وكان أليق بوقار العواطف الصادقة في مثل هذه المواقف وبخاصة دموع « العباسية » ونسبجة وحشحاتها وصرحاتها . وكان ربع انفعالات « جعفر » وحركاته القسطنطينية يكفي كذلك . . .

فالى متى يخضع للمسرح المصرى لهذه المظاهرات الرخيصة ؟

إذا كان هناك تشويه لحضارة العهد العباسى وشخصياته شكاً منه بعض النقاد لقد كان معظ هذا من صنع الاخراج والتمثيل ، وكان أقله من صنع التأليف . وهذا كذلك حق بحسب إبرازه وتقريره .

مير قطب

من كتب الشرق والغرب

أسطورة الحرية

خرج العالم من حجب حرب ضروس نظمي نازها خلال ست سنوات جلبت عليه الخراب والدمار ، وفكتك الحس البشرى فتكا دريما لا هوادة فيه فأدافته ألواناً من الصف والذل لم نسمع مثلها منذ عهد حنكير خان ، وقدنه إلى هاوية اقتصادية وأخلاقية يتردى فيها للقاع ولا يتوقع أشد الساسة تعاؤلاً أن ينقشع كابوس الحرب وما خلفته من صعب قبل مغى سنين طويلة ، يعلم الله ما قد يحدث أثناءها من مشكلات عويصة ، نرى نذرهما منذ الآن وقد تؤدي في النهاية إلى كارثة عالمية تالكة يفي فيها الكون وتنتي فيها المدنية فتصبح أطلالا دارة ولا تقوم لها قائمة من جديد .

ومن أروع ما حارته الحرب في أذيها من نتائج خطيرة ضياع القيم الروحية وتلاشي القيم الأخلاقية واضمحلال القيم والمقاييس الثابتة التقيدية . فقد فقدت أسمى الكلمات معناها ، وتجردت أروع الألفاظ عن مدلولها فأصبحت حواء فارغة ، وأصبح الناس يحذرون من الألفاظ بطنانة الخداعة مثل الحرية والديمقراطية والعدالة الاجتماعية والمساواة الخ . . . وأسحوا بشكون فيمن يلوح بها ويرمونه بالانغراق في الخيال أو الامعان في التذليل . ولئن فقدت الألفاظ معانيها وسلت بريقها الخلاب من السبب في ذلك يرجع الى الاكثار من استعمالها والمبالغة في استعمالها أعذاراً تستر تحجبها أغراضاً تتنافى مع معناها المألوف . وكأن ساسة اليوم لا يرغبون في الحيد قيد أعملة عن تلك العبارة الشهيرة التي قلها تاليران : « لقد منح الانسان النطق كي يستتر به فكره » . ومما ساعد على تجريد اللفظ — مهما علا ومهما سما — من معناه المألوف بين الناس حنوح رجال السياسة على اختلاف أحزابهم ومشاربهم وقدة الفكر على تباين آرائهم بل تناقض نظرياتهم إلى التمسك بهداب لفظ واحد — كالحرية أو الديمقراطية — والتعلق به وإقحامه في كل جدل وفي كل مناسبة ، يتخذ كل فريق منهم حجة لتعزيز رأيه وادعاس رأى الفريق الآخر . يزعم كل منهم أنه شعاره وأنه اللواء الذي ينضوي تحته لقيادة الانسانية إلى السعادة والكمال . وبما أن لمبادىء التي يتجمل اللفظ شعاراً لها ، والآراء التي يتخذ اللفظ رمزاً لها ، غالباً ما تكون متناقضة لا يمكن التوفيق بينها ، ومما أن اللفظ عينه ينقلب آخر الأمر إلى « قاسم مشترك أعظم » بين نظريات وأفكار متنافرة كل التنافر بل متضاربة كل التضارب ، فنحن نرى الناس حيارى حزينين لا يبتدون إلى الحقيقة ولا يرفون من الأجدر بالتصديق ، ومن ثم تقلل العقول وتضطرب الأفكار ، ويتسرب الشك إلى النفوس ويحتلط الحابل بالنابل فتفقد الألفاظ قوتها ومعناها ، شأنها في ذلك شأن

نوب برنديه عدة أشخاص من طبقات مختلفة ولأغراض متباينة ، فتصبح الألفاظ خالية من أى معنى كما يصبح الثوب مهلهلاً .

وإنما لو اجلنا النظر إلى الماضى وقلنا صفحات التاريخ لأدركنا معنى تلك العبارة الشهيرة التى قالتها مدام رولان — وقد ضخت بالثمين والرخيص فى سبيل نصرة الحرية إبان الثورة الفرنسية — عند ما اقتيدت إلى المفصلة : « أيتها الحرية كم من حرية ارتكبت باسمك » ومنذ ست سنوات حضر العالم عمار حرب طاحنة للدود عن الحرية وللدود عن الديمقراطية فادعى هتلر أنه يحارب فى سبيل تحرير أوروبا ، وفى سبيل إنشاء نظام حديد بعد القضاء على الاستعمار البريطانى والوء اللشى . كما ادعى الخفاء أنهم يدافعون عن الحرية والحق والديمقراطية ، وفى سبيل إنشاء عالم يكون حيراً من العالم الحالى . وأخيراً انتهت الحرب ورفرف السلام على الأرض فتساق قذرة الأمم فى سبيل ستر كشاف على تلك الأحلام الخيالية وتلك الألفاظ المنسوبة التى خلوا بنشدقون بها ضوايا أيام الحرب ، وكل منهم يسعى وراء سياسته استمارية تحقق أغراض وطنه دون مبالاة بأهل وأحرار للامم الصغيرة والأمم المظلومة على أرضها ، وما أصرح المستر تشرشل حين قل وهو رئيس الوزارة إن لمعنة . « انى لم آت الى الحكم فى هذه البلاد لتتصية الامبراطورية البريطانية » . وكل من يذكر مهزلة « ميناو الاطلنطى » التى طواها النسيان وقبرها الزمان .

ومن الأدلة الملموسة على قلق العوس واضطراب الأفكار من جراء تحرد الألفاظ من معانيها حتى أصبحت فى حاجة إلى تعريف جديد يستلج فيه الدس عامة — وقلنا اتفق الناس على شىء بالاجماع — ذلك الدراع الخطر القضاء اليوم بين صفوف الحفقاء المتعصبين أنفسهم حول تفسير كلتى « الحرية والديمقراطية » . مما نرى اغتراء الولايات المتحدة الأمريكية — يؤيدها فى ذلك الفاتيكين — ترى روسيا السوفيتية « تساع نظم دكتاتورية تتناقى مع أغراض الحرب ، ويسا تراها تصرح بأن موطن الروسى لا يتمتع بالحرية الفردية ولا سبيل له لانداء آرائه السياسية عن طريق الانتخاب أو الصحف أو محطات الاداعة ، ترى من جانب آخر حملات لا تقل عنفاً فى صحف روسيا الرسمية ترى نظم تلك الدول بالفاشية حيناً وبالديكتاتورية المأيلة (البلوتوقراطية) حيناً آخر . وتوحد عليها الروح الاستمارية المتسلطة عليها وتعب عليها استئلال الطبقات مالكة للطبقات العاملة استئلالاً وحش ينعم عه بوق شامع بين حالة الطبقات الدنيا وبين حالة الشعب الفقير رغم ما يترتب على تلك العوارق العظيمة من ظلم واستعباد وذلة تتناقى مع مبادئ الحرية والمساواة وتكافؤ الفرص ، وتتعارض مع الشعور بالكرامة الشخصية التى يحق لكل إنسان أن يحتفظ ويحتجز بها أياً كانت مهنته .

يضيق فى إلقاء للتوسع فى شرح حجج كلا الفريقين حول تفسير معنى الحرية والديمقراطية ولكل منهما أسانيد قوية وأدلة ساطعة تبدو للمرأة قاطعة جامعة . يحيل إلى أن الانحلو سكون يقصدون بهذين المفظنين « الحرية السياسية » حق الفرد فى القول والانتخاب والاحتجاج ، وحق الصحافة فى نشر ما يروق له ، وحق الشعب فى تأليف أحزاب سياسية مختلفة ينتمى الفرد إلى ما يفضلها منها ، وحق المعارضة فى أن تمثل فى المجالس النيابية الخ .

ويحيل من جهة أخرى أن روسيا السوفيتية تقصد بالحرية والديمقراطية الحرية الاقتصادية ، أى تكافؤ الفرص لكل فرد من الأفراد ، وإلغاء الفوارق بين الطبقات ، تلك الفوارق التى

من كتب الشرق والغرب

تعدّ غالباً عن المزاج الموروثة وعن استئلال طبقة قبايل عديدها لطافة الشعب العامل ، أى منع قسلة أقلية على أغلبية . كما يقصد الروسي بالديمقراطية منح كل شخص حسب عمله ، ومنح كل فرد الحق كاملاً في التنمية والملاح بلا آخر يؤديه ، ومنح كل فرد الحق في العمل والانتاج بعيداً عن شبح الفاقة والبطالة ولها داءان قديمان منتشران في أوروبا الغربية وفي أمريكا وفي روسيا نفسها قبل الثورة ، يتجلى عن سوء توزيع الثروة التوموية ، كما أبان ذلك كارل ماركس ولينين في مؤلفاتهما .

تناول الكتاب والمفكرون النزاع القائم حول معنى لمطى الحرية والديمقراطية ، ولكل فريق من الفريقين — الروسي والامجلوسكسوفى — أنصاره ومؤيديه . وقد نشر أخيراً في الولايات المتحدة الأمريكية كتاب عن روسيا السوفيتية وعن نظامها السياسى والاقتصادى ، تناول مؤلفه فيه بحث مبدى ما يتمتع به الفرد من الحرية في روسيا . وانتهى به البحث بعد زيارة تلك البلاد إلى الجزء . بأن النظام السوفيتى نظام دكتاتورى بحث لا أثر فيه لأية حرية فردية . أم ذلك الكتاب معنونه « تقرير عن الروس *Report on the Russians* » مؤلفه الصحفي الأمريكى الشهير وليام وايت *William White* . وقد أثار هذا الكتاب صحة كبيرة في أمريكا وأقامه الرأى العام بشأه إلى قسمين بين ناقده له وبين عليه . وتعرض له الكتاب في الصحف والمعلو في التقرىظ أحياناً ، وبالدلو في الطعن أحياناً أخرى ، شأنه في ذلك شأن كل ما يتحد به قريحة المفكرين في كل بلد حتى يبنى أمهه بالبحث والتحقيق للوصول إلى الحق والوقوف على الهم الحقيقية للأفكار . وقد بلغ الجدل حول هذا الكتاب حداً لم يمه حول سائر المؤلفات الأخرى التى تناولت الموضوع نفسه ، إذ طالب فريق من الرأى العام الأمريكى — يؤيده في ذلك فئة من الصحفيين — بحس الكتاب عن التداول ومع نشره ، ولكي السلطات الأمريكية لم تحت المطالب المتطرفة احتراماً لمبدأ حرية الفكر . وعنى عن التول أن رأى جمهور الشعب الأمريكى في نظام الحرية والديمقراطية المتبعة في روسيا لا يختلف كثيراً عن الآراء التى أداعها وليام وايت في مؤلفه .

ولسمع الآر صوت الحرس الأحمر كما يقول الفرنسيون ، ولنبعث عن آراء بعض الكتاب الغربيين — ولا أقول بعض الكتاب الروس — ممن راروا أمريكا التى يعدها العالم حصاً متبعاً للديمقراطية تدود عن الحرية الفردية وعن حقوق الإنسان . بل أكثر من ذلك لتعرض آراء بعض الكتب والمفكرين الأمريكيين أنفسهم فيما يتمتع به المواطن الأمريكى من حرية فردية ، ومدى تلك الحرية وأثرها في حياتهم الاجتماعية ونظمهم السياسية الديمقراطية . ظهر في باريس في عام ١٩٣٨ كتاب بالفرنسية لفت الأنظار بعنوانه الغرب « الولايات للفرنسية *Les Etats-Désunis*, Denoel, éd. مؤلفه فلاديمير بوزنر *Vladimir Pozner* وهو كاتب فرنسى من أصل روسى . أما وجه الفراسة في هذا العنوان فيرجع إلى أن موضوع الكتاب يتناول رحلة قام بها مؤلفه إلى « الولايات المتحدة الأمريكية » في عامى ١٩٣٦ و ١٩٣٧ — وأما وجه الفراسة في الكتاب نفسه فيرجع إلى أن المؤلف لم يحمره بأدلوبه الشخصى ولم يتعم نفسه في الموضوع الذى تناوله بسرده أو ملاحظاته الشخصية مثلاً ، وإنما اكتفى في أغلب الأحيان بنقل مقتطفات من الصحف الأمريكية المختلفة تروى وقائع معينة

من كتب الشرق والغرب

متنوعة دون أن يعلق عليها الكاتب أى تعليق ، كما عني بذكر اسم الفريدة وتاريخ صدور العدد . وقد قابل المؤلف عدة شخصيات أمريكية في عالم الأدب والفكر ف سجل في كتابه أحاديثهم التي أدلوا بها إليه .

وقد استعرض فلاديمير بورنر بعض المشكلات الأمريكية مبدئاً علاقتها بمبادئ الحرية والديمقراطية كما يستبينها الأمريكيون تاركاً للقارىء مهمة استخلاص حكمه عنها من الوقائع التي وردت في الصحف الأمريكية نفسها ، وتاركاً له استنباط الفيزى الذى يروقه من هذه المقالات وتلك الأحاديث .

تناول الكاتب بطريقة الفريدة في نوعها مسائل شائكة وأمان الحلول التي لقيتها تلك المسائل في العالم الجديد . تناول مثلاً مشكلة البطالة في الولايات المتحدة ، وأظهر خطرها الاجتماعى - إذ لم يحش العمال المتعصبين عدداً يربى على اننى عشر مليوناً قتل الحرب طبقاً للاحصائيات الأمريكية نفسها - وأوضح أن أولئك العمال لا يتمتعون إلا بقسط متواضع من الحرية لا يعدو حرية التحول نهاراً - سحت عن عمل ، والنوّه لىلا تحت حشر من الحصور وقد اشتهر « كورى بروكلين » في نيويورك بعدد العمال المتعطلين الذين تؤويهم أعمدته . ثم تحدث عن مشكلة الرئوس في أمريكا ، وهى مشكلة عويصة لم يوفق أولو الأمر لحلها إلى الآن ، وأمان مايقولون من عسف ودل وما سامونه من عنت وهوان وأرداء مع أن عددهم يربى على العشرة الملايين ، ومع أنهم مواطنون أمريكيون في عرف الدستور .

ثم خاض المؤلف في مسألة استئلال الشركات الرأسمالية القوية الحاضرة لطبقة العمال الضعيفة المستسلمة ، ووصف حاله شمال المناحم في ولايت العرب الأمريكى وصفاً دقيقاً رائعاً ، أتى فيه على تفاصيل حياتهم وطرق معيشتهم وكشف أجورهم الرهيدة وسوء حالتهم البدنية لاسددام بعض الوسائل الصعبة التي لا غنى عنها في صناعة المناحم مما ترتب عليه إصابة كثيرين منهم عرض الس وهم لا يزالون في ريمان الشاب . ثم استطرد ف أشار إلى سيف التهديد بالقفل المسلط فوق رقاب من تحدتهم أنفسهم بالاحتجاج لعلهم علم اليقين بأن جيش العمال المتعطلين مستعد في أى وقت للحلول محلهم بأقل من أجورهم - ثم سأل الكاتب عما بقى للحرية الفردية من أثر لدى هؤلاء العمال وأولئك الرئوس .

وأهم ما جاء في هذا الكتاب - بل أغرب ما حواه - تلك الأحاديث التي أدلى بها إليه ثلاثة من قادة الفكر ومن أئمة الأدب الأمريكى الحديث حين أثار معهم موضوع الحرية والديمقراطية . أما هؤلاء الثلاثة فهم :

أولاً - جون دوس پاسوس John Dos Passos الكاتب والفكر الشهير ، ألف عدة كتب في قالب قصصى عن آثار الحرب الماضية في نفس الجندى الأمريكى بوجه عام . أهمها « ثلاثة جنود » و « الولايات المتحدة الأمريكية » و « ١٩١٩ » .
قال جون دوس پاسوس :

« نحن بلاد همجية بل أكثر الافطار همجية . إننا مهد الفاشية ، وقد أخذ الإنلمان كثيراً عن بعض المفكرين الأمريكيين . لقد تأثرت أوربا كثيراً بتعاليم الولايات المتحدة المناهية للمدينة ، وأقصد بذلك أولئك الذين هجروا إلى هناك بعد أن عاشوا هنا ردىاً من الزمن ،

فادخلو في أوروبا بدین الخسوع لقوة مد أن فقدوا أنفسهم التقاليد الأوروبية . لقد كانت
 « جمعية » الكو - كلوكس - كلان « الأمريكية » Ku-Klux-Klan « أول مطهر مطهر من مطهر
 من مطهر الفشية . إن ألمانيا الهتيرية لتدو نعيم الحرية إذا قيست بمدتنا الصناعية العظيمة .
 لقد انتشرت العاشية عندنا إلى حد أشعرنا أن لدينا إزاءها شيئاً من المناعة . بلادنا شاسعة
 وتصرب فيها الموجي أطنابها بحيث لم يشكن كمار رجال الصناعة من الاتحاق فيما بينهم
 « لتفوق سلطة كل منهم .
 « الشعور بالنوارق بين الطبقات الاجتماعية غير منتشر بين العمال الأمريكيين ، كما ينقصهم
 ذلك التنف من التقليدي الذي يربط العمال الأوروبيين بعضهم بعض . لقد شاهدنا حركات
 رائعة ولكنها لم تدم . إن مصانعنا العظمى لا تفر بوحود عمل لا غنى هب عنه . لديها
 « الآلات وبعض الأشخاص وكفى » .

أما ثاني واث الكتاب فهو وولدو فرانك Waldo Frank وقد أدلى بالحديث الآتي

« إننا شعب عجيب . فعملة الأمريكيين لا يفكرون ، وإذا أراد أحدهم أن يفكر فلا أقل من
 « أن يكون له عقل الجبارة حتى يستطيع التفكير وهو محذوب تتلقفه الصحف والراديو والسينما .
 « إن التفكير في أمريكا عمية تتطلب جهداً شاقاً لا يحتمله إلا التليل من الناس ، ولا يفري
 « إلا بعضهم . لقد خلقت وسائل المهور وإذاعة الأخبار الحارية لدى الأمريكيين عادة البحث
 « السطحي . ولأن لم يفسهم الجمهور التثريب الحديث المعروف باسم « نيوديل New Deal »
 « ولم يفهمه انفكروا كذلك . وعلى العموم من مفكرين لا يفكرون أكثر من سائر الناس .
 « بما حقاً لشعب عجيب . إذا دعنا نظام الفاشية يوماً ما فإنه سوف يتعد شكلاً خاصاً .
 « سوف يستند على الدستور في كل أعماله فيصبح نظاماً فاشياً دستورياً بياياً . لن يرتدى
 « أعضاء ذلك الحزب قصاصاً سمرأ ، وإنما سيكتفون بالقمصان الثقيلة ذات الشا ، سيكون
 « نظام فاشية بلايس السهرة .
 « أصبح العنف والاستعفاف بالقوانين من تقاليدنا القديمة . ومن شواد الشعب الأمريكي
 « الميزة له تقديسه الدستور وعدم احترامه للقانون في آن واحد . وتساعد حالة مدنيتنا
 « الحاصرة على تشجيع هذا العمل ، إذ لدينا عدد هائل من العمال المتعطلين يتعدرون ويبدأ
 « رويداً نحو الفاشية ولأن الالتجاء للعنف عادة مألوقة عندنا » .

أما ثالث أولئك الكتاب فهو « تيودور درايزر Theodore Dreiser » مؤلف روايه
 « مأساة أمريكية » ونصم أخرى شهيرة طهر بعضها على الناشئة اليساء .
 قال تيودور درايزر عن الحرية في أمريكا :

« الصحافة والقضاء والإذاعة كل شيء في أمريكا تابع للشركات الرأسمالية الممهاة » ترست
 « Trusts » . نفرت يوماً كتباً بآسمته « أمريكا للنجعة L'Amérique tragique » ولكنه
 « حذف بأكله تقريباً . يالها من بلاد مخيفة حيث تسيطر من « وول ستريت Wall Street »
 « (حتى المال والبورصات) على صناعة السينما وتفرض عليها رقابتها . ومن الحال عليك أن

« تتحدث عن السياسة أو المسائل الاجتماعية من محظك الاذاعة . وفي الواقع أنه من المال »
 « عليك أن تتحدث منها عن أي شيء عدا الصحافة . طلب مني ذات يوم أن أذيع حديثاً »
 « بالراديو . وقد كان في وسمي أن ألي سلسلة محاضرات عن موضوعات شتى يعني تتحدث »
 « عنها فاستنهمت أنا حر في اختيار ما أتحدث عنه ؟ فحُت أن حديثي سوف يراجع قبل »
 « إلقائه فأيبت . وكثيراً ما أدليت بعدة أحاديث إلى مراسلي صحيفة « نيويورك تايمز » »
 « « وهرالد تريبون » وصحف أخرى . وكلما ذكرت لهم شيئاً ذا مغزى رأيت الصحف »
 « تتناخض عن نشره . إن رجال المال في أمريكا يسيطرون على كل شيء فهم يسيطرون على »
 « الصحافة والاذاعة والسينما ويسعون إلى فرض نفوذهم على المدارس ليسنوا على الفرد »
 « وليكنفوا بتعليمه تلك الجبل الدارحة المحفوظة المعروفة باسم « سلوجان Slogans » حتى »
 « لا يتفرض الناس عن أنفسهم غبار الاستعباد . »
 « لقد اتضح أن رجال المال هم وحدهم القادرون على إدارة دفة العالم اليوم . كلا »
 « لا أعتقد أنني فقدت كل أمل ، ولكن أواجه الحقائق بصراحة وأشهد تقدي داء كداه »
 « السرطان يهدد الملايين من البشر ولا أرى من يحاول اكتشاف حركته ولا ه . يسمى »
 « لمقاومته أو القضاء عليه في حين يشتري الداء . ويقتل وما الذي سوف يؤدي إلى »
 « اكتشاف يقضي على هذا السرطان ؟ الرعب » .

والآن لأختبر مقالتي بوصف مؤلف كتاب «ولايات المقسمه» لأهل مدينة «واشنطن»
 وهو وصف لا يحلو من الفكاهة . قسم فلاديمير بوربر معظم سكان تلك المدينة إلى رتبة
 أقسام : الربع الأول — موظفون لا يعملون شيئاً يدكر ، ورجال السلك السياسي
 (الدبلوماسيون) وهم لا يعملون شيئاً البتة ومثلهم رجال «الطائفة الرأية »
 والثاني — رجال الصحافة ولا هم لهم صناع مساء إلا وصف أعمال أئمة السادة . يليهم
 الثالث وهم لرونج ويرى عددهم على مئة وستين ألفاً ، هؤلاء يتمتعون غملاً ويسعدون بـ
 عثروا عليه ، ولكن ثلاثة أرباعهم متعطرون . أما الربع الثاني فإنه يعمل ،
 تلك بحالة عن الحرية والديمقراطية كما يتجلىها بعض الناس وكما يطبق مبادئها البعض الآخر ،
 وهي تصور لك ما يراه أنصار الديمقراطية بعضهم في بعض متدفعين بالطمع إلى شيء من اللغو في
 الحكم والتقدير . فليأخذ نحن أن نقف من هذين المذهبين موقف الانصاف ، وأن نبين وجه
 الحق منهما . وأغلب الظن أن الحق إنما هو بين بين .

فؤاد وصفي أمير الدلف

من وراء البحار

الكلية الامبراطورية بلندن

احتفلت الكلية الامبراطورية للعلوم والصناعات في لندن بمرور مائة عام على إنشائها أو على الأصح على إنشاء إحدى الكليات الثلاث التي تتألف من مجموعها ، فان الكلية الامبراطورية نفسها لم تبلغ هذا المدى في القدم ، فقد تأسست بمرسوم ملكي من ضم ثلاثة معاهد وهي الكلية الملكية للعلوم ، والمدرسة الملكية للمناجم ، وكلية المدينة والحرف ، وهذه المعاهد نفسها وليدة معاهد أخرى أقدم منها ، وأقدم هذه المعاهد هي الكلية الملكية للكيمياء التي أُنشئت في سنة ١٨٤٥ ، وهذه هي المناسبة التي اتخذتها الكلية الامبراطورية للاحتفال .

وقد أصدرت نشرة أخبار العلوم الانجليزية عدداً خاصاً تكلمت فيه عن نواحي النشاط لمعاهد الكلية الامبراطورية وتاريخ نشأتها ، فذكرت فيها يتعلق بالكلية الملكية للكيمياء أنه في الربع الثاني من القرن الماضي بعد انتهاء حروب نابليون في حجر النهضة الصناعية انتبه الناس إلى قيمة العلوم في تحسين حال البشر ، ففكر بعض الانجليز سنة ١٨٤٢ في إنشاء مدرسة للكيمياء العملية يصفى عليها اسم سير همفري ديفي ، ولكن الفكرة لم تقرر إلا في اجتماع عقد في ٢٩ يولييه سنة ١٨٤٥ ، وقد البرس البرت رئاسة الكلية الجديدة التي افتتحت في أكتوبر من تلك السنة .

وكان الرئيس كبير الاهتمام بالموثوق ، فاستطاع بمجهوداته أن يعين هوفمان العالم الكيميائي أول أستاذ بها . وتمكن هوفمان في تجاربه من فصل النترين عن القار ، واشتد سلسلة من الاستكشافات الهامة لم تنته بعد ، من أحدها مادة البلاستيك (وهي مادة مركبة تركيب بحيث تصبح صالحة لما يصح له الزجاج أو الأحشاب أو مواد البناء وغيرها من المواد) ، واستكشفت الكلية فيما بعد مئات الأصابع من أهمها الأسيلين .

أما المدرسة الملكية للمناجم ، فقد افتتحت في سنة ١٨٥١ على أثر إنشاء متحف الجيولوجيا العملية . وقد قامت هذه المدرسة بخدمة حليمة ، ويرد إليها الطلبة من جميع أنحاء العالم ، فطلابها يعمون على نشر معارفهم لا في الامبراطورية وحدها بل في ممالك متباعدة مثل أسبانيا والصين والمكسيك وجنوب أمريكا . وقد قام قسم الجيولوجيا فيها بحوث حليمة دونت في آلاف من الكتب والنشرات . وكان لقسم المعادن فضل الكثير من الاستكشافات ؛ فطريقة بسر هي أول طريقة عملية لإنتاج الصلب من طبقة عالية ، وهي التي تعدلت أخيراً ولكنها لا تزال أساساً للعمل .

وعند افتتاح البرلمان الانجليزي في سنة ١٨٥٢ ، أعانت الملكة فيكتوريا عن وضع

مشروع كبير لتقدم العلوم والفنون ، وعلى أثر ذلك أنشئت مدرسة العلوم . وكانت دراسة العلوم في مبدأ الأمر تميز إلى اتخاذ اتجاه عملي ، ولكن الأستاذ توماس هكسلي عمل على نقل الكلية إلى بناء معزل يعرف الآن باسمه . وصارت مدرسة بعلوم منفصلة ، ثم نظمت في سنة ١٨٨١ واتخذت نظام كلية للعلوم ، وقد فقه أساتذتها بحوث علمية حديثة . وقامت جمعيات الحرف في سنة ١٨٧٦ ، تأسست مدرسة العرس منها تخريج أساتذة فنيين ومهندسين ميكانيكيين ومدنيين ومعماريين وكهربائيين وفي الخراف ، ثم تخريج مديري المصانع . وقد أنشئت كلية السبقي والحرف . ولكنها تطورت فيما بعد وصارت فعلا مدرسة هندسية

مالرو الفرنسي وسيلوني الايطالي

شغل عدد أكتوبر من مجلة هورايزن الشهيرة للكاتب الفرنسي « أندريه مالرو » في ذلك العدد أربع مقالات عنه ، كشف إحداهما الكاتب آدموند ولسن وقارن فيها بين مالرو الأدب الفرنسي وبين الأدب الايطالي احتاثيريو سيوني ، وهما الكاتبان من الدرجة الأولى اللذان عبرا في فترة ما قبل الحرب عن التنازع المركب بين الطبقات . وهذان الكاتبان من حيل واحد ولد الفرنسي منهما في « ريس » سنة ١٩٠٠ والاطالي في قرية بجبال الأروتزي في سنة ١٩٠١ ودرس مالرو اللغات الشرقية ثم سافر إلى الشرق للبحث عن الآثار وهناك اهتم للنورة الصينية واشترك مع رحاها بين سنتي ١٩٢٥ ، ١٩٢٨ وكان يعمل مع الشيوعيين الكومنتاج وكان عضواً في خلية الاثنى عشر التي نظمت الثورة في كاتون ، وقد ضمن روايته « الفانجون » و « حط الانسان » التجارب التي عرهما عندئذ . ولتنت الرواية الأولى أنظار تروتسكي فتمرف إليه عند ما كان مقبلاً في فرنسا . وحاول تروتسكي أن يصحح ما زعمه من خطأ في نزعات مالرو إذ يرى فيه نزعة رومانية زال عهدها وأراد أن يجعل منه ماركسيا لاشك فيه . ولقد اشترك مالرو فيما بعد في الحرب الأهلية الأسبانية كرئيس فرقة . وقبل الخضوع لموسكو في توجيهها وسياستها في أسبانيا ، وفيما عدا ذلك ظل مستقلاً تمام الاستقلال عن نفوذ تروتسكي وستالين .

أما سيلوني الأدب الايطالي فقد كان عضواً ثوريا عاملاً منذ سنة ١٩١٧ وهو في السابعة عشرة من عمره عند ما كان سكرتيراً لحركة العمال النقابية التي نشأت في موطنه ، وانتقل بعد ذلك إلى روما حيث صار رئيس تحرير جريدة اشتراكية ثم أحد الذين أنتوا حركة الشبان الشيوعية تحت تأثير موسكو ، ثم اشترك سنة ١٩٢١ في تنظيم الحزب الايطالي الشيوعي . وبين سنتي ١٩٢٥ و ١٩٢٩ كان عضواً في اللجنة المركزية للحزب ، وظل يقوم بنشاط سرى في عهد موسوليني . وكان يمثل الحزب لدى موسكو عند ما يلقى زعيمه في السجن ويكون هو نفسه طليقاً .

وقد بدا حوالي سنة ١٩٣٠ أن الدولية الشيوعية الروسية تملي سياستها ناظرة إلى صالح روسيا قبل كل شيء ، وأنها لا تتيح للأحزاب الشيوعية في الأمم الأخرى من الحرية ما يمكنها

من السير بما يتفق ومصالح تلك البلاد . فاستقال سيلوني من الحزب ، واستقال معه نصف الأعضاء الإيطاليين تقريباً ، ولم ينضم مع ذلك لبوخارين أو تروتسكي . وقد هاجر من إيطاليا وسكن بلاد سويسرة ، وبدأ يؤلف الروايات ولم يعد إلى روما إلا في سنة ١٩٤٤ بعد سقوط نظام الفاشست .

وبخلاف الكاتبان مع ذلك في بواحي تفكيرهما ، فبينما نرى أن في مالرو جانباً من روح لست مر نرى سيلوني يميل إلى استنتاج القيم الأخلاقية . ولكن مما لا ريب فيه أن المؤلفين تأثرا تأثراً عميقاً عند ما انكشنت تلك الخرافة التي قيل فيها أن روسيا تعمل لسيادة الاشتراكية في العالم وذلك في أغسطس سنة ١٩٣٩ حين وقعت روسيا ميثاقاً مع هتلر . ولقد أخرج مالرو أخيراً قصته الجديدة المسماة « النضال مع الملك » في سويسرا سنة ١٩٤٣ ، ولم يخرج القسم الأخير منها إلا الآن ، وهي تدل على حيرته وتردده في تعريف منحي الإنسان في تفكيره وهل يؤدي هذا التفكير إلى نتيجة .

وأخرج سيلوني مسرحية طويلة نشرها في سويسرا سنة ١٩٤٣ وأعيد نشرها الآن في روما اسمها « ثم أنه أخفى نفسه » وبها نجد أنه نزع إلى نزعة المسيحية الأولى ، ولكنها مسيحية خاصة به تهدي من تردده وحيرته .

مستر أتلي

في العدد الأخير من مجلة بريطانيا ليوم — عدد نوفمبر ، مقال طريف عن مستر أتلي رئيس لوزرة البريطانية بقلم ماري إيجز هاملتون ، وهي تقول إن كليمنت ريتشارد أتلي يبلغ الآن من العمر اثنين وستين سنة ، إذ هو مولود في ٣ يناير سنة ١٨٨٣ وليس فيه ما يلفت النظر وما يلهل مهمة المصورين الهزليين غير أنف طويل أفتى وعينين براتين وشارب قصير وخطه الشيب ووجه عالية عراها الصلع فزاد من بروزها ، وهو يلبس ملابس حسنة التفصيل لا تظهر الحدة عليها ، وباقة غير منشاة وقبعة طرية . وإذا قلته وأنت على سفر ولم تكن تعرفه حكمت بأنه دكي وطيب القلب من النوع الذي يلجأ إليه في الملل . وهو شديد الحياء ولا ريب في أنك محده مستغرقاً في كتاب أو جريدة ، وإن قابته في سفر خارج إنجلترا فلا شك في أنك تحكم عليه بأنه إنجليزي قبح .

وهو في الواقع يمثل الرجل الانجليزي حق التمثيل ، فهو سياسي ظل أكثر من ربع قرن يعمل في مجال السياسة ، ومع ذلك نجد أعماله خيراً من أقواله وخطبه ، وهي بحكم مركزه كثيرة في القراءة خيراً منها في السماع . وليس لديه شيء من مواهب الخطيب ولا أثر من المادية التي تجذب الجماهير إلى الواقف على منصة الخطابة . أما قراءة هذه الخطب بعد النشر فتدل على أنها صادرة من عقل واضح أمين مترن وتسير عن إرادة ثابتة تعرف أهدافها ، والانجليزي وإن كانوا يتأثرون بالخطابة لا يتفقون فيها ، وكليمنت أتلي يشاركهم في ذلك .

وإذا كان الانجليزي في كبير الأمور فهو الانجليزي في صغيرها ، فهو يدخل البيبة التي تساعد كما تساعد مواطنيه على أن يخوضوا الحديث دون أن يشكوا كثيراً . وهو يحب أسرته

من وراء البحار

ومنزله وحديثه وبمضى وقت فراغه في المنزل . وهو يحسن بعض الآلات — التنس والملاكمة ،
والشطرنج والبريدج . وقد قاتل في الحرب العالمية الأولى فكان من الجنود الأشداء والعباد
الأقوياء ، ثم عاد إلى وطنه وفيه تعلق شديد بالعلم .

ولكنه لا يمثل الانجليز من رجال القرن التاسع عشر بل رجال أواسط العشرين . فالانجليز
الآن يحب التنظيم الاجتماعي من أعماق نفسه ، وهو الآن على استعداد لأجراء تغييرات
كبيرة إذا كان فيها ضرورة للاحتفاظ بالمساواة الاجتماعية كما كانت في أيام الحرب ، وهذا هو
السبب في نتيجة الانتخابات التي تعبر عن عزم أهل بريطانيا على ألا يعودوا أدراجهم في
مناحي الحياة بل يسرون إلى الأمام نحو الجديد ، وقد تلقوا دروس هذا الجديد في
زمن الحرب .

أما خطوات وصوله إلى رئاسة الوزارة فيمكن إيحائها في إخلاصه لمبادئ الحزب السياسي
الذي ينتمي إليه . وهذا الحزب لم يكن موجوداً قبل خمس سنوات ، فحدث هذا الحزب تحت قيادة
كارل ماركس إذ تكونت جماعة في سنة ١٨٩٣ حول شخصية كبير هاردي وكان من عمال
المناجم وكان غرس هذه الجماعة اقتناعهم بقايت العمل ليدان السياسة .

ماذا في باريس ؟

تملأنا بشهر: الإنشاء الفرنسية على أن أولى الشئ أخذوا يذكره في ساء دار جديدة
فراديو وقد خرجوا من المكرة إلى مجال العمل ، وخصصت قطعة كبيرة من الأرض بين
برج إيفل وكوبري ألما تبلغ مساحتها ٤٩ ألف متر مربع لهذا الغرض .

وقد وضع تصميم لهذا البناء على شكل نصف دائرة ترتفع إلى أربعة أذوار ، وقطر هذه
الدائرة عبارة عن طريقة طويلة تطل عليها الأبنية العديدة وغرف الإذاعة ويخصص كل صنف
لعمل خاص ، فالطابق الأرضي أماكن البائس ، والباقي الأول أماكن المهندسين ،
وموق ذلك موطن للجمهور ، حيث يستقبل الناس أن يطعم منه خلال أو قد راحة . على
ما يجري في غرف الإذاعة ، وفي الدور الرابع مجال الصناعات .

ولكن مجال بين غرف الإذاعة والأبنية وبين السوماء ، تحيطت بمكان من جميع
الجهات في كل دور حتى تكون في عزلة تامة .

وتقوم الإذاعة الفرنسية الآن بعشرة برامج في وقت واحد . ثلاثة أو أربعة على موجة
طويلة أو متوسطة ، وستة أو سبعة على موجة قصيرة . وهي إذاعات لفرنسا ولبلاد الأجنبي
وما وراء البحار . وهذا العمل يتطلب استعداداً شديداً من أدق ما يكون ، فيجب أن يكون
في بيت الإذاعة إذن نحو خمسين من غرف الإذاعة حصص كل منها لأنواع العديدة كالمسارح
والملاهي والمسابقات والتحدث . وينتظر أن يكون في البناء الجديد ثلاثة أسبوعيات كبيرة للحفلات
للموسيقى والتثيل . وهناك فضلاً عن ذلك ، المحطات الضرورية كالمسكنات الموسيقية ،
والحجرة ، ومكتبة الاسطوانات ، وأماكن أخذ الأصوات ، والتسجيل على الاشرطة ،
والاصوات ، وتتم التوزيع إلى غير ذلك .

أخبار الأدب في باريس

جائزة هيركور

تقرر في اجتماع من أندريه بيالي وليو لارجيه ولومسيان دكاف ورولان درجليس ، كولايت وفرنسيس كاركو منح جائزة هيركور لخال لوى بوري لقصته « قريتي في زمن الألمان » وهو أصغر مؤلف نال هذه الجائزة ، إذ ولد في سنة ١٩١٩ ، والقصة عبارة عن ذكريات في أيام الاحتلال ، حيث تصفى فتاة إلى إداغات لندن وإليها هرب خطيبها ، بينما أبوها وأخوها من أنصار الألمان . وحول هذه الأسرة سكان القرية ، وتنتهى النصّة عند تجديد الآمال بتزول الحلفاء إلى الأرض الفرنسية .

جائزة رينودو

وسان كدك أن جائزة رينودو منحت لهنرى بوسكو من أجل قصته « كفرنثيونيم » وهذا الكاتب يعيش في مراكش بعد أن خدم في الخارج وعاش في اليونان وتركيا وشمال أفريقيا وهو مؤلف « البرانس » و « الباشق » وقد نشر أشعاراً .

جائزة الدول المتحالفة

طل القائمون على شئون المائة خمس سنوات كاملة لا منحونها لأحد ، قد قرروا أخيراً منحها في احتفال يقام في ١٧ ديسمبر ويجب أن تمنح لروتي مشتعل بالصحة .

جائزة النصر

تمنح جائزة النصر هذا العام في يوم عيد الميلاد لأديب مبرز من رجال الصحافة .

وفاة

توفى أخيراً الأديب الفرنسى أوجستان هامون مترجم برنار شو إلى الفرنسية .

ظهر حديثاً

ابن حزم الاندلسي ورسالته في المفاضلة بين الشعراء للاستاذ سعيد الافندي (الطبعة
الهائية دمشق)

في التعاون الثقافي بيننا وبين أقطار الشرق العربي تنص خطير ما زلت أدعو إلى تلافيه
منذ أعوام طوال دون أن أجِد من يصني لهذا الدناء فضلاً عن يستجيب له . ويحيل إلى أن
من أول واجبات مجلس الجامعة العربية ولجنته الثقافية بوجه خاص تلاق هذا النقص الذي كان
يحب تلافيه منذ وقت طويل . فليس بين مصر والأقطار العربية تبادل صحيح للثقافة ، وإنما
ترسل كتبنا وصحفنا ومجلاتنا إلى هذه الأقطار ، ولا تكاد الكتب والصحف والمجلات التي
تصدر منها تصل إلينا إلا إذا تفصل أصحابها فأرسلوها إلى فلان أو فلان أو إلى هذه الصحيفة
أو تلك . ولست ألاحظ أن في هذا التقصير ظمناً للأقطار العربية وحدها ، فمن حقها أن تقرأها
كما تقرأنا ، وإنما ألاحظ أن فيه ظمناً لمصر نفسها ، فإن هذا التقصير يفوت عليها نفعاً كثيراً .
ففي أقطار الشرق العربي كما في أقطار الغرب الأوربي رؤوس تفكر تفكيراً حصياً
وأقلام تنتج أدباً قيمياً . ومن الحق علينا لأنفسنا أن نقرأ هذه الآثار القيمة التي ينتجها
إخواننا من أدباء العرب ، وأريد أن يقرأها الجمهور المثقف من المصريين ، لا أن يقرأها
الأفراد القليلون الذين يتلقونها بين حين وحين . أريد أن تكون قريحة التناول تقدم إلى
قرائنا في الصحف ويمجدونها قراؤنا حيث يجدون كتبنا المصرية حيث يجدون الكتب الفرنسية
والانجليزية في غير مشقة ولا عناء . وإنه لمن المؤلم حقاً أن نلاحظ شيئين كلاهما ثقیل على
النفس يفيض إليهما . أولهما أن كتبنا المصرية تعرض على القراء في الأقطار العربية عرضاً متعللاً
وأن كتب الأدباء في هذه الأقطار لا تعرض على قرائها عرضاً متعللاً ولا منقطعاً . فالأقطار
العربية تعرف عنا أكثر مما تعرف عنها ، بل أكثر مما نعرف نحن عن أنفسنا أحياناً . الثاني أن
المصريين يعرفون كبار الكتاب وصغارهم في الغرب الأوربي ، لأن كتبهم تعرض في مصر
عرضاً مستمراً ، ولا يكادون يعرفون شيئاً عن كبار الكتاب والشعراء في الأقطار العربية
وليس لهذا كله مصدر إلا أننا نحن نقدر على الإصدار أكثر مما نقدر عليه البلاد العربية
الأخرى ، كما أن أوروبا تقدر على الإصدار إلينا أكثر مما نقدر نحن على الإصدار إليها
وسواء أكان من الخير أم من الشر أن تنصرف في الإصدار إلى أوروبا ، فإن من الشر الذي
لا شك فيه أن تنصرف في استيراد الكتب والصحف والمجلات التي تصدر في البلاد العربية ،
فإن الذين يريدون التعاون الثقافي الصحيح يجب أن يتعارفوا قبل أن يتعاونوا ، ولا سبيل
إلى التعارف إلا بأن يقرأ بعضنا بعضاً ، ويفهم بعضنا بعضاً ليحب بعضنا بعضاً ، ثم لتعاون
بعد ذلك عن ثقة وبصيرة لا عن قرارات تلقينا إلينا الحكومات أو مجالس الجامعة العربية
ولجانها .

وقد تحدث في العدد الماضي من هذه المجلة عن هذا الانتاج القيم الذي أشتهر به سعاد الأفغانى حين أصدر كتابه عن الاسلام والمرأة ، وحين نشر جزءاً من كتاب الدهي عن طائفة أم المؤمنين رضى الله عنها .

وأعود اليوم مرة أخرى إلى الأستاذ سعيد الأفغانى وإلى إنتاج قيم آخر له ، هو كتابه عن ابن حزم ونشره رسالة من رسائل ابن حزم في الفاصلة بين الصحابة . فالأستاذ سعيد الأفغانى ممتاز حقاً في نوعين من أنواع الانتاج العلمى المصنف : أحدهما النشر الدقيق للنصوص القديمة ، والآخر الدرس الصحيح الرائع للموضوعات التى تتصل بهذه النصوص . ودرسه لابن حزم من أنواع ما يقرأ في هذه الأيام ، فيه استقصاء دقيق شامل لحياة هذا العلم العظيم من أعلام الاسلام ، والنظر القديم من أطلال الحرية . وليس في هذا المكان متسع لنقد هذه الدراسة نقداً مفصلاً ولا لتتويهاً بمزيد ما وأكثرها ، ولكن أقرر محضاً أنها من خير ما يقدم إلى الشباب ولأنها تعرض عليهم نموذجاً صالحاً لمناهج البحث العلمى الدقيق الذى يحلو من الغلو وبدلاً من الاسراف ويحرص على الاعتدال وصدق التقدير . وتقدم إليهم في الوقت نفسه مثلاً صالحاً للرجل الحر الكريم كما ينبغي أن يكون الرجل الحر الكريم ، مؤثراً للمعرفة أولاً ولنشر المعرفة ثانياً على الحاد الرفيع والثناء العريض والاستمتاع بالراحة والنعيم . مؤثراً لحرية الرأى بعد ذلك لا أقول على الخفص والدعة بل أقول على السلامة والأمن . وقد كان ابن حزم صورة صادقة لهذا الرجل الحر الكريم . فآثر العلم على الوزارة والثناء ، وآثر حرية الرأى على الهدوء والاطمئنان ، بل على الحياة نفسها ، وتعرض لألوان المحن فلم يضعف ولم يهن ، وإيماء كانت المحن تمنحه قوة وأيداً . وتعرض للمهاد الذى لا ينقضى ، وترك لنا بعد ذلك تراثاً رائعاً ذهب أكثره ، ولكن في النذر الباقى منه كنوزاً لا تنفد ولا ينقضى العجب من قدرة صاحبها على البحث والاستقصاء .

وقد عرض الأستاذ سعيد الأفغانى علينا هذه الصورة عريضة هادئة معتدلاً ، فيه كثير جداً من الاستقصاء الدقيق الرفيق وهو يعجب لابن حزم إلى غير حد ، ويحلم على أن يعجب به إلى غير حد ، . ولكنه في الوقت نفسه ينهنا إلى ما كان ابن حزم يهتم به من هذا المزاج الحاد العنيف الذى كان يخرج به عن طوره ، ومن هذا المسار الذرى الطويل الذى كان يكلفه ويكلف الناس شغلاً كثيراً . وللاستاذ سعيد الأفغانى وقفات رائعة عند أدب ابن حزم سواء أكان هذا الأدب شعراً أم نثراً . وعند هذا التناقض بين رقة هذا الرجل العظيم حين كان يحب ، وغبطته حين كان يخاف . وقد تحالف الأستاذ سعيد الأفغانى في هذا الرأى أو دالك من آرائه في أدب ابن حزم ، ولكن هذا لا يفس من الكتاب شيئاً ولا ينقص من إعجابنا بالمؤلف قليلاً ولا كثيراً .

فما مثلاً لا أشبه ابن حزم بالمحافظ إلا في كثرة الانتاج وفي الأسلوب أحياناً . ثم أرى بعد ذلك أن الرجلين يفتقان أشد الافتراق . في الجاحظ لى ويسر وترق ، وفي ابن حزم شدة ووصانة ويطام واطراد . وأنا لا أوافق الأستاذ على أن القرون الخمسة الأولى من تاريخنا لم تنتج مثل الجاحظ وابن حزم . وارى أنها قد أنتجت أعلاماً آخرين ليسوا أقل خطراً من هذين العالين العظيمين . وإذا لم يكن بد من أن نؤثر إلى ابن حزم رجلاً من أهل الشرق ، فقد أقرن إليه أنا عظيم الشام وشيخ المروعة أبو العلاء ، وكان أبو العلاء معاصراً لابن حزم . ولعل بين علماء المسلمين من تبع لرجلين جميعاً وأخذ عهما بعض ما نشر

من العلم . وكان في الرجلين جميعاً عصف شديد ورقة شديدة ، ولكن رقة ابن حزم كانت حباً للجمال الذي رآه ، ورقة أوى الملاء كانت حباً للحير وعظفاً على الضمير وقد تعرض الرجلان جميعاً لبئس المصاة والمخافة في حياتهما وبعد موتهما . وكان مصدر هذا البئس حرية الرجلين وإيثارهما لهذه الحرية على كل شيء . ولكن ابن حزم أدرج عن داره ، وكانت آفة أوى الملاء وناسميج الشرقيين مصدراً لما أتبع له من العافية كلا الرجلين كان له رأى أو آراء ، وكلا الرجلين حاهد في مسيل آرائه . وكلا الرجلين طلع في عصره ويوشك أن يظهر الانعصاف في العصر الحديث . فإين يقع الجاحظ من هذين الرجلين على ما للجاحظ من مكاة ممتازة في الادب العربي الرفيع ؟
ومهما يكن من شيء ، هو أشكر الأستاذ سعيد الألفاني أصدق الزملاء وأخلصه هديته النيسة ، وأتمنى مخلصاً أن يتاح لكتابه هذا أعظم حظ من الانتشار ، ف أشد حاجة الشباب والشيوخ إلى أن يقرءوه ويقرءوه .

أما رسالته ابن حزم في المصنوعة بين الصحافة قارية من آت الدقة في لفظ وحسن الاستقصاء ، في البحث ووحدة التصوير للرأى وروعة التعبير عن هذا الرأى . وهي تروق القارئ الحديث لما فيها من هذه السداحة الحقة . ومن هذا اليقين العظيم ، ومن هذا الغضب العنيف في مناضلة الخصوم والتسلط عليهم بالحجة الدائمة أو التي كان ابن حزم يراها دائمة ، والبرهان القاطع أو الذي كان ابن حزم يراه قطعاً . والموضوع بعد ذلك حظير كل الحظوة لأنه يمس المسألة التي انقسم المسلمون حولها وما زالوا منقسمين ، مسألة المناصاة بين أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وبين خلفائه الراشدين بنوع خاص . وقد استكشف الأستاذ سعيد الألفاني أن هذه الرسالة إنما هي جزء من كتاب « الفصل » لأن حزم ، ولكنه على ذلك لم يتردد في نشرها للأستاذ التي بينها ، وحسن فعل . فلهذين يفكرون في كتاب الفصل وينظرون فيه قليلاً لظواهر الكتاب وبعده عن متناول الكثرة من المثقفين المحدثين . ومن يدري : لعل يداعة هذه الرسالة أن تفرى بعض الناس بالنظر في هذا الكتاب العظيم .

أبو حنيفة الخليل الحرة والناسم في الاسلام تأليف عبد الحليم الحندى (مصبعة دار سعد مصر)

وما دمنا قد تحدثنا عن كتاب موضوعه بطل من أبطال الحرية في الاندلس هو ابن حزم ، فلنحدث عن كتاب آخر موضوعه بطل من أبطال الحرية في الشرق وهو أبو حنيفة عظيم الفقهاء . فقد نشر الأستاذ عبد الحليم الحندى هذا الكتاب وتفضل بأهدائه إلى في نفس الوقت الذي وصل إلى فيه كتاب الأستاذ سعيد الألفاني عن ابن حزم . ولأمر ما اتفق هذان الكتابان في دمنق والقاهرة على المنايا برجلين كلاهما يمتاز بحب الحرية والمجاهد في سبيلها والتعرض في أثناء هذا الجهاد لاحتمال المحن النقال . فقد يظهر أن في ضمير الشرق العربي طموحاً هائلاً إلى الحرية من جهة وحرصاً عظيماً على وصل قدیمنا بحديثنا في حب الحرية والحرس عليها من جهة أخرى .
وكتاب الأستاذ عبد الحليم الحندى ممتع كل الامتع ، مافى ذلك شك . تأخذ في قراءته

تصحب موضوعه كما يحب كاتبه . تحمد روحاً من الاخلاص يجب إليك المضي في القراءة ، ثم يحرص عليك هذا المضي فما تزال تقرأ حتى تتم الكتاب . فإذا صرفت شواغل الحياة عن هذه القراءة فأنت تنصرف عنها كارهاً ، وأنت تنبذ الفرصة لتستأنف هذه القراءة التي لا تريد عنها سواها . ومع ذلك فمتاع هذا الكتاب لقارئه لا يأتي من منهج البحث ولا من طريقة العرض ولا من التعمق في درس الموضوع ولا من الاستقصاء لما يتصل به من المسائل ، فكل هذه حصل لم يتح للأستاذ عبد الحليم الجندی منها في هذا الكتاب إلا القليل . فأبو حنيفة يوشك ألا يكون موضوعاً للكتاب وإنما هو تلة اعتمد عليها المؤلف ليكتب هذا الكتاب . وهو من أجل ذلك ينتهز فرصة أبي حنيفة ليحدثنا عن كل شيء عن العرب في عصورهم القديمة والحديثة ، وعن اليونان والرومان والأوربيين المحدثين . فذا عيب على الكتاب شيء فهو هذا التشتت الكثير وهذا الاستطراد الذي لا يخرج منه إلا لتعود إليه . ولست أدري أمصيب أنا في النظر إلى هذا التشتت والاستطراد على أنهما عيبان ، فهما لا يضرانك عن الكتاب ولا يزهدياك فيه وإنما يزييانك به ويدفعانك إليه دفعا . ومصدر ذلك فيما اعتقد أن الكاتب مؤمن بالتقديم محض في حبه والاعجاب به . وإذا صدر الكاتب عن الايمان والاخلاص فهو واقق بأنه سيجد من القارئ محبة وقبولا حتى حين يذكر آتينا وإسبرطة بمأسمة بناء بغداد ، وحين يشبه أبا حنيفة « بسولون » على بعد ما بينهما في الزمان والمكان والطبيعة ، وحين يعلل عليك الحق علماً وأدباً وحكماً وأمثالا . ولن يعاب الكتاب بأنه لم يصور أبا حنيفة تصويراً صادراً ، نادراً يبلغ الروعة في كثير من الأحيان ، فأنت واجد هذه الصورة في الكتاب من غير شك . ولكنك تجد بها بعد شيء من المشقة وكثير من الصبر ، لأن الكاتب يدنيك منها ثم لا يلبث أن يبعدك عنها . ثم يعود بك إليها ثم ينأى بك عنها مرة أخرى ، وأنت في هذا الاقبال والردبار والقرب والبعد منذ تبدأ قراءة الكتاب إلى أن تفرغ منها .

وقد كنت أحب أن يخلص الكاتب من كل هذا العلم الغزير والادب الكثير ويمكف على أبي حنيفة وحده فيدرسه درساً عميقاً ويعرض علينا هذا الدرس ، فإذا قرأناه عرفنا الرجل وفهمه وبيته وأثره حق المعرفة ، ولا علينا بعد ذلك ألا نعرف هذه الأطراف الكثيرة القليلة التي ملأت الكتاب بعلم وأدب لها قيمتها من غير شك ، ولكنهما يستفدان من جهد الكاتب والقارئ مقداراً كان أبو حنيفة أحق أن يستأثر به .

وما أحب أن أشكر للأستاذ عبد الحليم الجندی جهده العظيم دون أن أنوه بأن الأستاذ رجل من رجال المدرسة الحديثة ، تعلم في المدارس المدنية وتخرج في كلية الحقوق ، وهو يعمل في أفلام القضايا . فنأيه بالادب القديم وإيمانه لهذا الادب وتفرغه لفنقه القديم وبراعته في هذا الفن وسبقه إلى التأليف في أبي حنيفة قوماً كانوا أجدر أن يؤلفوا في أبي حنيفة ، كل هذه خصال يجب أن تعرف للأستاذ وأن تحمد له أصدق الحمد . وقد لاحظ الأستاذ أن الله قد رفق بالملين فأهدى إليهم الشافعي حين قبض إليه أبا حنيفة . رحم الله الرجلين العظيمين . فما رأى الأستاذ في أن يفرغ لدرس الشافعي كما فرغ لدرس أبي حنيفة . وللشافعي رحمه الله إلى مكانته المتأخرة في تاريخ الفقه والادب صلة بمصر لعلها أن تقرأ الأستاذ بالترفيع والمكوف عليه .

طه حسين

فن القصص محمود تيمور بك (نشرته مجلة الشرق الجديد في أكتوبر سنة ١٩٤٥)

في إحدى المجموعات الأولى التي نشرها الأديب محمود تيمور بك من قصصه ، وهي مجموعة الشيخ سيد العبيط التي نشرت في سنة ١٩٢٦ ، كتب المؤلف مقدمة طويلة قيمة عن القصة جاء فيها عن الكتاب المعاصرين الذين أخذوا في الإقبال على هذا النوع من الأدب : « لقد ظهر في الوقت الحالي أي في البضع السنين الأخيرة بعد المرحوم محمد تيمور مؤلفون عالموا في كتابة الأقاصيص . وهم على قلتهم وقلة مؤلفاتهم يشرون بمستقبل زاهر جميل ، ولا ريب في أن بلاغتنا القصصية في المستقبل ستكون بمجهودهم الصادق في العمل على إيجاد آداب مصرية بالمعنى الصحيح ووضع أساس هذا الفن . ومن هؤلاء الأدباء ممن لم نحكي ذاكرتي في عدهم هم : المرحوم عيسى عبيد مؤلف كتابي إحسان هائم وثريا ، وشحاته عبيد مؤلف كتاب « درس مؤلم » وإبراهيم المصري وحسن محمود ومحمود عزى وطاهر لاشين وخيري سعيد وعبد القادر المازني وحسن صبحي وسليم شحاته ... وغيرهم من الأدباء القصصيين المصريين الذين يتكاثرون كل يوم فيزيدون ثروتنا الأدبية القصصية » .

هذا ما كتبه محمود تيمور بك منذ عهد يقرب من عشرين عاماً ، والآآن نستطيع أن نحكم على « المستقبل الزاهر » في هؤلاء الذين ذكرهم ، وهو طبعاً حين كتب هذه الأسماء لم يقبته إلى أن أحدهم وقد توفي في العهد الذي كتب فيه لم يعد له مستقبل . والآآن بعد ما يقرب من عشرين سنة لا نجد في مجال القصة أو على الأصح الأقصوصة غير ثلاثة من هذه الأسماء : طاهر لاشين الذي نشر مجموعات من الأقاصيص في الدرجة الأولى من الانتان ثم طال عهد سكونه . ومحمود عزى الذي ينشر الأقاصيص بين حين وحين ، قد نشرت له مجلة « الكاتب المصري » قصة طريفة . وإبراهيم المصري الذي يوالى تأليف القصص وقد نشر أخيراً مجموعة بديمة من الأقاصيص تحت اسم « خريف امرأة » . أما من سواهم فقد اتحدوا واتحادات أخرى بعضهم في الأدب والبعض في الصحافة والبعض نشر قصصاً طويلة والبعض لم ينشر شيئاً .

على أن هناك أديباً راسماً بدأ كتابة الأقاصيص منذ نحو عشرين سنة واستمر عليها وقد وضع في هذا العمل الأدبي الحليل روحه ونشاطه حتى صار زعيم الأقصوصة في الأدب المصري وربما كان زعيمها في الأدب العربي ، وهذا الأديب هو محمود تيمور نفسه .

نشر مجموعتي « الشيخ جمعه » و « عم متولى » في سنة ١٩٢٥ ثم تلاها مجموعتي « الشيخ سيد العبيط » ، و « رجب أفندي » سنة ١٩٢٦ وبعد ذلك ظهرت مجموعات عديدة قصصية وقصص طويلة ومسرحيات تذكر منها « الحاح شلى » و « أبو علي عامل أرتيست » و « بنت الشيطان » و « الأطلال » و « قلب غانية » و « سهاد » وهو يوالى الكتابة في كل مكان قصصاً ومسرحيات ، فصار في طليعة الحركة الأدبية الحديثة .

والآآن بعد كل هذا النشاط وهذا المجهود الحميد يخرج لنا محمود تيمور بك « كتاب فن القصص » الذي طبعته مجلة الشرق الجديد في عدد حاس . ولا يظن أحد أنه يتلقى دروساً في هذا الكتاب الجديد يستفيد منها الناشئ ، فليثق الناشئ أنه لا يستفيد شيئاً من هذا الكتاب . وكتابة القصص فن لا يعلم من الكتاب ، فقد تفيد الكتب في معرفة تركيب القصة وتقييمها

إلى مقدمة ونلب الموضوع وحانة وغير ذلك ، ولكن القصص الجدير بالحياة زمناً قصيراً أو طويلاً لا يعلم ، شأن كل شيء في .

هذا الكتاب إذن تحارب أدب عليم بأسرار القصة يتحدث في وجوهاً حديثاً مليئاً بالخبرة عن مشكلات تعرض الكاتب القصة بمضاهيها من باللغة العربية باعتبار أن فن القصص حديث فيها وهو ما أشار إليه الدكتور شاذة في محاضرة بمؤتمر المستشرقين عن قصص محمود تيمور ونشرت مع مجموعة « الحاج شاذي » . وبمضاهي مشكلات تعرض للأدب في الشرق والغرب معاً مع تطور الحياة الاجتماعية .

وهذه الآراء التي بسطها الأدب وأوجد لها حلولاً سواء وافقت عيني أم لا توفق فأنك تنتهي منها وفي نفسك تقدير للمجهود الذي بذل ، لا سيما إذا تذكرت أن هذا الأدب لم يقتصر على البيان النظري وإنما كان له شأن كبير في بناء القصة وتطورها في الأدب العربي ، وينتهي الكتاب ببعض الأقاصيص الشيقة لمحمود تيمور بك ومنها لا تسبقين مقدار فنه فإن ذلك « حب عليك أن ترجع للمعثرات من الكتب التي نشرها الأدب وإنما تتذوق فقط أمثلة لهذا الفن .

محمود محمود

من أعظم الجليل الأستاذ صلاح البكي (مشوراة دار المشوراة بيروت)

مع ستة رسوم بريشة قصير الجليل ، ومقدمة مستمصة في معنى « الأسطورة » ودلالاتها على التاريخ وأثرها في تربية الأمة ، بقلم الأستاذ بطرس البستاني .

هذا كتاب من لبنان ، فيه نفحة من عطره ، ونفحة من وتره ، ولحمة من سنائه ، مؤلفه شاعر لم يلهمه شيطان ، في دمه ذرة ساجدة منذ الأزل تحدثت إليه في أصلاب الأحبال من أسلافه جيلاً بعد جيل حتى انتهت إليه ، وسكنت في أعراقه ، واتخذت مسجداً في دمه ، فإذا هي بعد ليست ذرة جامدة ، بل قوة متفجرة جياشة ، تفيض في قلبه طهر ، وفي حوّه عطر ، وعلى لسانه شعراً ، وإذا نفحة من غناء علوى اللحن له في كل قلب صدى ، ونور سماوى الملح له في مرأى كل عين سنا ، وإذا صوت تلفظه شفتان ولكنه من قوة الأثر وصدق التعبير كأنه صوت الأحبال الهائفة من وراء اليب قد احتشدت جيلاً بجيلاً تهتف بأغانيها فتجواب أنفامها بين السهل والجبل وبين البحر والبادية . . .

ذلك صدى هذا الكتاب !

بضع أساطير ، قد لا يكون فيها كل جمال الصنعة ولكن فيها قوة الفن ، وقد لا يكون فيها براعة الخلق ولكن فيها براعة صدق التعبير !

بضع أساطير ، هل اصطنعها صلاح البكي ليعبر بها عن روح لبنان ، أو هي روح لبنان ، قد اصطنعت صلاح البكي ليعبر بلسانه عن حقيقتها ؟ . . . لست أدري ، ولكنه على أي حاله كتاب من لبنان ، فيه نفحة من عطره ، ونفحة من وتره ، ولحمة من سنائه ، وفيه صوت الأحبال الهائفة من وراء اليب قد احتشدت جيلاً بجيلاً تهتف بأغانيها فتجواب أنفامها بين

الدار والحل وبين البحر والبدية . . . يمكن هو كتاب لبنان ، أو ما يمكن كتاب صلاح
لكي : أو لعل صلاح لكي في هذه الأساطير هو روح لبنان مصوراً في كتاب وكتابه : . . .

قصر الحير الغربي نقله من الفرنسية الأستاذ إلياس أبو شبكة (منشورات دار المكشوف بيروت)

قصر الحير الغربي : هو القصر الذي اتخذته هشام بن عبيد الملك « بادية » على جانب
الطريق المؤدية من دمشق إلى تدمر ، أيام كانت دمشق هي حاضرة بلاد الخلافة لعهد
الأمويين . وهذا القصر هو واحد من مجموعة من القصور الأموية التي كانت تشاد على
الكثير الناب في الصحراء ، ويسمونها « الباديات » أو الدوايد ، وذلك أن الأمراء كانوا
يرغبون في الاستراحة من عناء الحكم فينبون لأنفسهم بيوتاً ريفية ، يطلقون على كل منها
اسم « بادية » ويزينونها زينة بديعة بأوون إليها في أيام الراحة والاستجمام . . . ومن تلك
« الباديات » المشهورة : قصر الحير الشرقي في مقاطعة تدمر ، وخربة النية ، وخربة المنجر في
فلسطين ، وقصر الترائي ، وقصر الطوى ، وقصر المشقي في شرق الأردن ، وغيرها . . .
وقد ظل قصر الحير الغربي هذا مطموراً في بطن الصحراء مئات من السنين حتى وفق
للكشف عن أحلاله وما بقي منه البجائة الفرنسي « دانيال شلومبرج » في سنة ١٩٣٩
فاستقذ ما بقي منه وأقمه صورة ناطقة بما بليت الحضارة الإسلامية لعهد الأمويين في هندسة
البناء وطرز الحياة . . .

وقد نشر ذلك العالم الأتري الفرنسي في سنة ١٩٣٩ مبحثاً مستفيضاً بالفرنسية عن هذا
الآثر التاريخي الذي استكشفه في مجلة « سيريا » المختصة ببحث الفنون والآثار الشرقية .
وهذا الكتاب الذي بين أيدينا هو الترجمة العربية لذلك المبحث الفريد ، مخففة شيئاً ما عن
أصلها الفرنسي ليسهل تناولها على القارئ جميعاً ولو لم يكن لهم اختصاص فني في مثل هذه
البحوث الأثرية الدقيقة .

ويشتمل الكتاب إلى ما فيه من معلومات — طائفة غير قليلة من الصور ، بعضها عن
الحقيقة وبعضها تخطيطات هندسية تمثل ما كان عليه ذلك القصر قبل أن تأتي عليه الأيام .
وقد أحسن الأستاذ إلياس أبو شبكة بترجمة هذا البحث إلى العربية ، وأحسن دار
المكشوف بنشره وإذاعته في هذا الوقت التي يتلفت فيه العرب في مختلف الأقطار إلى أصمهم
المجيد يستلهمونه العزم والقوة في نهضتهم هذه الحديثة التي يرجى إن شاء الله أن يكون لها في
الستقبل القريب أطيب الثمرات .

معرضة الفكر السياسي منذ الثورة الفرنسية نقله عن الإنجليزية خدوري خدوري ومجيد
عبد الله (مطبوعات جمعية الرابطة الثقافية بغداد)

وهذا كتاب تمخرجه المطبعة العربية في أوانه ، فقد كانت تلك الحرب التي وضعت أوزارها
منذ قريب نذيراً بعيد المدى بينه العرب في هذا الشرق ، أفراداً وأمماً ، إلى ما لهم من الحق

في حياة إنسانية كريمة يتحقق بها معنى الأخوة المشتركة بين الناس في مختلف أقطار الأرض . وقد استمع العرب إلى هذا النذير ؛ في نفس كل عربي اليوم — على اختلاف الديار — روح قوى يحفزها إلى الجهاد لاستكمال حرته والظفر بحقه . وهذا كتاب يحاول مؤلفه « سفين سوينكر » أن يحمل في صفحاته الثليلة صورة مختصرة واضحة عن تطور الفكر السياسي منذ الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩ حتى تطبيق المبادئ الماركسية في ثورة سنة ١٩١٧ الشيوعية . ولم يقتصر المؤلف فيما أجمل من القول ، على ذكر الحقائق والإشارة إلى الحوادث ، بل حلل الآراء والمذاهب التي عرض لها في كتابه تحليلاً دقيقاً وناقشها نقاشاً علمياً موحهاً ، ولم يغفل مع ذلك عن ربط الآراء المتعاقبة والمذاهب المختلفة بعضها ببعض ، مبيناً علاقة كل مذهب منها بالعصر التاريخي الذي نشأ فيه ، ثم مكاته بين المذاهب وصلته بما سبقه منها وما تفرع عنه .

ولا بد أن ذكك المترجمين الأدبيين قد تنبها إلى مقدار حاجة القارئ العربي في هذه الفترة الانتقالية في التاريخ الإنساني إلى مثل هذا الكتاب يقف منه على ما يجب أن يقف عليه كل إنسان مثقف يحرص على أن يعرف ماله من حقوق بإزاء ما عليه من واجبات ، فبدلاً ما بدلاً من الجهد في ترجمة هذا الكتاب وإخراجه في أوامه ، ليكون تحت عين ذلك القارئ كالمقدمة لما ينبغي عليه من آراء ؛ فإن الإنسانية اليوم لتتمخض عن فكر جديد ترجو أن يكون فيه صلاح الناس ويستقيم به أسلوب الحياة .

المهرجانه الاثني لابي العلاء الممرى (مطبوعات المجمع العلمي العربي)

منذ أكثر من عام أقامت الأمة العربية مهرجاناً أدبياً للاحتفال بذكرى شاعر العربية العظيم أبي العلاء الممرى ، لمناسبة مرور ألف سنة قمرية على مولده في شهر ربيع الأول سنة ٣٦٣ هـ ، ولعل هذه الأمانة العربية لم تحتفل بذكرى شاعر من شعرائها مثل هذا الاحتفال الذي احتفلته بذكرى أبي العلاء . وإياه لأهل لذاك ؛ فقد اجتمع لشهود مهرجانه في الشام — حيث كان مولده ومقامه ووفاته — وفود العرب من مختلف أقطارها ، فيهم للفرق ، والمصري ، والشامي ، والعراقي ؛ فلم يبق بلد من بلاد العربية إلا كان له في ذلك الاحتفال وفده وخطيبه . واستمر ذلك المهرجان أسبوعاً أقيمت حفلاته الخطابية في دمشق ومرة النعمان وحلب واللاذقية ، فشهدت بلاد الشام أعظم حادث أدبي في تاريخ الأدب العربي ، وكان شغل الناس وحديثهم ، وموضوع الصحف وحديث الاذاعات اللاسلكية . على أن حديث الصحف والمجلات عن ذلك المهرجان قد ظل بعد ذلك زماناً ، تتناقل ما قيل فيه ، وتنتشر ما كتب عنه ، فلم يظفر حادث في السنين الأخيرة بما ظفر به هذا الحادث الأدبي من عناية الناس ولهج الأئمة .

وقد كان ما ألقى في ذلك المهرجان وكتب لأجله من الدراسات والبحوث والتقصائد والخطب ، من خير ما جادت به قرائح أقطاب العلم وخول الأدب في هذا العصر ، وإياه لمدون من دواوين العرب ومروءة من الفكر والبيان كأنها تمة ذلك التراث الأدبي الخالد الذي خلقه أبو العلاء للعرب ، فكان حفظه بين دفتي كتاب وإذاعته على الناس من تمام

ظهر حديثاً

فضل أنى الملاء على العرب والعريسة . وقد تحقق ذلك الأمل باخراج هذا السفر الذى بين
أيدينا الساعة . وإنه لسفر اشترك فى تأليف فصوله نحو أربعين أديباً وعالمات من خير من
أنجبت الأمة العربية فى تاريخها الطويل . وحسب التارى أن يكون بين يديه كتاب قد
احتشد له فكر هذه الجبهة من الباحثين وأهل الأدب ليعرف أى كتاب ذاك وأى
مكتوب عنه !

محمد سعيد العربى

في مجلات الشرق

الإعلان والشهرة

في عدد رمضان - شوال سنة ١٣٦٤ من مجلة « المجمع العلمي العربي » بدمشق ، نشر الأستاذ محمد كرد علي بهذا العنوان فصلا من كتابه « أقوالنا وأعمالنا » الذي لم يطبع بعد ، يقول فيه :

« الإعلان علم جديد قديم ، فيه نفع وضرر ، وفيه خير وشر ، مداره على الارتفاق والارتفاق ، وسيله الخطوة وتحسين السمعة واستمالة الصيت ... ولا مشاحة في أن الغرب أفرط كثيراً في الإعلان ، وأساء استعمال الحرية ، فتحت الصحف في بعض الملوك صدرها لنشر الإعلان عن المواخير والحانات والبنايا والرافعات ، وأمسى الناس هناك يسكرون بالإعلان ، ويفسقون بالإعلان ، ويقبأ يعمون بالإعلان ، ويقدررون بأكثر من قيمهم بالإعلان ، ويمجدعون بحسن حالهم على لسان الإعلان . والشرق في ذلك يتقيل طريق الغرب ويقلده وينقل عنه ، بمقياس مفسر الآت . وما ندرى إلّا ما يصير في مستقبل من الأزمان ... »

أميقتنا

وفي عدد ذي القعدة - ذي الحجة من هذه المجلة يقول الأستاذ محمد كرد علي في مقال بعنوان أميقتنا :

« ما أدرى إن كانت مصر لم تهتد إلى طريقة حقيقية للقضاء على الأمية أو أنها تعتمد غرض الطير عن إنهاض التعليم الأولى ليقى التعليم أوستقراطياً مقصوراً على الموسرين ، ويظل الفلاح ملاحاً لا يستويه نزول المدن إذا هو ذاق من العلم ما يخرج عن الأمية . ومصر على ما يظهر من القديم كانت ولم تبرح ينم أفراد بخيراتها يتعلمون ويتفهمون والكثرة الناصرة لا تستطيع أن تتعلم ولا أن تتعلم . مشكلة صعبة الحل تركها لظن من هم أعرف بها منا من المصريين . ذلك أن مسألة التعليم عندهم معقدة مادام أرباب القوة لا يرونهم إلا بقاء الشعب على ميته ، وأرباب الإصلاح يتذرعون بإخراجه من جهالة مهما كلفهم الأمر . »

فن الأكل

مقال طريف بقلم الأستاذ حين الخزيري في عدد رمضان من مجلة « الثريا » التي تصدر في تونس ، وفيه أثر شهر الصيام وما يثير في الجائعين من أشواق ... يقول فيه :

« يحسب النافلون أن عاطفة الحب لا تثبت إلا بحبال الوجوه ، وبحسن الغزال النافر ،

ولا يدرون ما هو حاصل فوق هذه الأرض من وجود مغرمين يكاد الحب يشق مرزهم ،
ويوشك الوله والوجد أن يدهما بمقولهم ، وما حب مؤلا ، إلا في جبال الموتى الحسنان ، وما
محبوه من مختلف الأصناف والألوان . وأما شعصيا لا أحسب قول الشاعر :

قلب بدوت غرام جسم من الروح خال

إلا منصرفاً إلى الهيام في القنائف الزاهرة ، والكريمة الباهرة . ولا أظن قول من قال :

أحب من أجلها ما كانت يشبهها حق لقد صرت أهوى الشمس والقمر

مربداً به غير فطائر الخجلان ، أو متروض القبروان ، أو بريك الحليب ، أو شراب الزبيب

إلى آخر ما في هذا المقال من لطائف أدبية ، وموازنات طريفة بين عاطفة الحب وعاطفة
« الأسفل » ١

شاعر الأمير

ويتحدث الأستاذ مارون عبود في العدد ٤١٨ من مجلة « المكشوف » التي تصدر في
بيروت عن تة ، لا الترك ، أدب لبنان في القرن الماضي ، فيسميه « شاعر الأمير » يعني
الأمير بشير الشهابي ، يقول :

« كان للبنانيين ، أمير كالموك ، له بلاط ، وله شعراء يكدون قرائنهم ليمثلوا شعراً لا تفتأ
بصاحب السعادة ، وكان سعادة الأمير يهترلهم كعزالي المران في أيدي الكفاة ، فتتدفق
الصلوات في قصر « بيت الدين » العامر ... حيث عاش الأمير العظيم سبداً تراوده الدول
العظمى ، يستقبل في « قاعة العمود » السفراء والوزراء والقواد والنقاد ، وعليه أبهة
للثوك وسبهاء الأسود ... تذكر أعمال الأمير ونضاله ونبطه ونفسي أنه كان لهذا الأمير شعراء
وأه كان سيف دولة زمانه ، لم يجتمع بيباب ملك من ملوك عصره أكثر مما التفت حوله من
أمراء الكلام في زمانهم ، ولكل زمان دولة ورجال ... »

وبعد أن يورد الكاتب طائفة من الآثار الأدبية ، شعراً ونثراً ، لنقول لا الترك شاعر
الأمير بشير الشهابي ، يقول :

« ورب قائل قال : ولماذا آثرت هذا على شاعر الأمير الأشهر بطرس كرامة ؟ ..
قلت : لانه شاعر الأمير الأول ، ولانه هو الذي قرب كرامة من مولاه ، ولانه بنان طموح
إلى التجديد ، ذو شخصية يتم عنها أدبه الحالي بالطريف الطريف ، فله في كل مقام مقال .
وأخيراً لانه ابن نفسه وقد استلهم محيطه ... »

نمط عتيق

وفي العدد نفسه من مجلة «المكتشف» مقال للأستاذ رفيف خوري حمل عنوانه «نمط عتيق من الدراسة الأدبية : طرفة بن العبد ، ماء الأشعار وطنيتها وكثرة القوافي ومديتها !» — يقول فيه :

«حسبك أن تسليخ نوادر من أحبار الشاعر تتوخى فيها الدرب ، ومنح من شعره تمجدها في صفحات ترصعها بـ «ما أجل» و «ما أبدع» و «ما أروع» وسائر ما اطرده على هذا القياس من النعوت التي تحشو الفم والأذن ولا تدعو العقل إلى محاكاة واقتناع — حسبك أن يكون لك هذا حتى تسمى دارساً وناقداً أدبياً أما أنت تحاول النوص إلى أعماق هذا الشاعر حيث يؤمن وحيث يشك ، حيث يأمل وحيث يقنط ، حيث يتم وحيث يرضى ، حيث يمجن وحيث يتوقر ، وتمجده في ربط كل هذه الأعراض بأسبابها ، فليس من عملك . ليس من عملك أن تنتهي في درسك إلى شخصية بشرية طبيعية تحس فيها بعض الحياة وإن تكن طويت منذ عشرات القرون . . . لا يا هؤلاء . . . إن الأدب لاكثر جدوى من أن يكون ألفاظاً تقرع السمع ولا تفيد سوى أنها تقرع السمع . . . ممرض النفوس البشرية : هذا هو الأدب . تأليف الشخصيات الكاملة : هذا هو درسه ؛ وكلاهما مفضاه إلى قلب الحياة كما هي أو كما ينبغي أن تكون . . .»

عندما يلتقي الموت والحياة

في العدد ١٧ من مجلة «الطريق» التي تصدر في بيروت ، بهذا العنوان : «تألفت في اليابان ، قبل استسلامها الأخير ، فرق في الجيش دعت بفرق «مرسحي الموت» رمى تتألف من المتطوعين الشباب المتحمسين الذين يعتقدون أن موتهم هو أكبر شرف لهم ، يتودعهم حتماً إلى جنات النعيم ، وهم يذهبون إلى المعركة لا ليحاربوا فقط ، بل ليموتوا أيضاً . . . وفي هجوم الجيش الأحمر على اليابان . . . جابهت فرق الجيش الأحمر في منشوريا هذه الفرق من مرسحي الموت ، وكانت من أشرس الفرق التي جابهها الجيش الأحمر طول مباركة الكبيرة الحامية ، ولكن الجيش الأحمر قد قلب عليها . ووصف قائد سوفييتي أسباب هذا التقلب بهذه الكلمات الموجزة : إن الجندي الأحمر يحب الحياة إلى درجة أن يموت في سبيلها ، أما مرسح الموت الياباني فقد عاف الحياة إلى درجة أنه يريد أن يتخلص منها . . والجندي الأحمر لا يحارب من أجل «ميكادو» ما . . وهذا فرق أساسي بين الفريقين !»

أمريكا والتراث العربي

وفي العدد الثاني من مجلة «الفكر الحديث» التي تصدر في بغداد ، مقال للدكتور فليب حتى بذلك العنوان يقول فيه :

«إن ما اصطلاح المؤرخون على تسميته بالعمور المظلة لم تترك أثراً من ظلمتها ولم تكن

في مجالات الفرق

كذلك في بلاد اللاتين باللغة العربية ، وخلال فترة كبيرة من ذلك العصر كان مشعل الحضارة مضيقاً من الخليج الفارسي في الشرق وآسيا الغربية وشمال إفريقيا وجنوب وغرب أوروبا حتى المحيط الأطلنطي في الغرب ... بين منتصف القرن الثامن وأوائل القرن الثاني عشر للميلاد ... إن ما كتب بالعربية في مختلف فروع العلم والتاريخ والفلسفة ليعوق ما كتب من جميع اللغات الأخرى وبضمنها اللاتينية ... »

وبعد أن يورد الدكتور فليب حتى دافئة غير قليلة من أسماء الملوك التي كان للعرب فضل إنشائها ، أو إبقائها حية حتى انتقلت إلى الغرب ، وطائفة أخرى من المصطلحات والأسماء العربية التي نقلت بحروفها إلى اللاتينية وغيرها من لغات الغرب كدليل على أصلها العربي — يقول : ...

« إن الفروع العربية لغوية أدب ثلاثة عشر قرناً يتطرق إلى كل نواحي الحياة والفكر الإنساني ... وقد وصف أحد أساتذة جامعة يال الأمريكية اللغة العربية بكونها الثالثة بين اللغات التي لها الفضل الأكبر في حل خلاصة الفكر والأدب . ومما يسترعى الانتباه غياب اللغتين الإنجليزية والفرنسية عن هذه القائمة . ويقول أحد المستشرقين في جامعة بنسلفانيا : إن اللغة العربية تمتاز بتطور وانتشار عظيمين ، وإنه خلال القرنين الأخيرين فقط بدأت الانكليزية بمزاحمتها لهذه اللغة التي تشكل لغة التفاهم لأكثر من خمسين مليوناً من العرب ، واللغة الدينية لأكثر من ٢٥٠ مليوناً من المسلمين المنتشرين في مختلف أقطار المعمورة ... » (بعد هذه الحرب) عدد كبير من الأمريكيين اللغة العربية بصورة لم يسبق لها مثيل في تاريخ الولايات المتحدة ... »

وادي الزبانية !

وهذا عنوان الافتتاحية الأولى في العدد الأول من مجلة « الوادي » التي تصدر في بغداد ، كأنها مقدمة المجلة الناشئة لقراءها . نقرأ في هذه الافتتاحية من قول المحرر : « للزبانية واد هو وادي عبقر ، وللزبانية ندوة هي ندوة الزبانية ، فمن تبعات زبانية الندوة أن يحرروا « الوادي » ومن واجباتهم أن يحسنوا سمعة الأدب العراقي بما يكتشفونه من قابليات أدبية كامنة غطى عليها الجهل ، وبما يدثرونه من أصنام وأهية أقامتها البلادة . فقد كفانا ما نعانيه من شيوخ عفت عقولهم وبلد إحساسهم وابتعدوا كل الابتعاد عن معاني الخير والحق والجمال ، وناولوا أدباء الشباب بما يذيمونه عنهم من اتهامات وبما يفرسونه من الكف عن ذكرهم على أصحاب الصحف والمجلات ... »

فهي مجلة جديدة يحررها هؤلاء « الزبانية » الشباب متعاونين على معاداة شيوخ الأدب في العراق ، وهذا هو العدد الأول من مجلتهم ... وحسبنا من وصفه ما اقتبسنا من تلك المبارات ، لننظر في الأعداد الآتية ما يكون من خبرهم في تلك المعركة التي رفعوا رايها متحسين ، وراحوا يتدربون على أساليب الهجوم والدفاع بما ملأوا به هذا العدد الأول من حديث بعضهم عن بعض ساخرين متهمكين بأنفسهم في أسلوب طريف ، حتى خلا العدد إلا من تلك النماذج التي يعرضون فيها صورهم « البيانية » متحيزين لئنضال ، استعداداً لمبارك

دومة يكونون فيها صفاً واحداً في وجه أولئك الشيوخ الذين يصفون ؛ إلا أن يؤثر الشيوخ أن يتركوهم وحدهم في « وادي عبقر » لا يجردون متنفساً لنشاطهم إلا أن يسحر بعضهم من بعض أو يمارك بعضهم بعضاً ...

الرسالة الزرقاء

وفي العدد التاسع والعشرين من مجلة « الأصداء » التي تصدر في دمشق — مقال قصصى لطيف للأستاذ مواهب الكيالي عنوانه « الرسالة الزرقاء » يصف فيه ما يليق الصحفي الحرج والضيق ، وما يعرض له مع ذلك من أسباب الاغراء ليفتن عن رأيه ، لولا ما يربط على قلبه من أسباب الإيمان أو من أسباب الحب ... يقول فيما يصف من حال صحفي من هؤلاء :

« . . . وكانت بالطبع قضية تخصه وحده . فليس لأحد أن يعلى عليه أمراً أو يطلب إليه ما لا يفكر في القيام به . إن الصحافة بالنسبة إليه ليست باب رزق أو شبكة صيد . إنها رسالة ، إنها مدرسة ؛ إنها ... وتداخت الكلمات على ورقة أمامه ؛ ثم توقف ليلقي نظرة على الورقة التي خلفها الرجل ، فإذا بها « شيك » كامل يبلغ محترم لا ينتقصه إلا توقيع الثرى الأمثل صاحب السمادة ... وداخلته الحيرة ، وكان العرض مغرباً لأنه يحسم كثيراً من المشكلات التي تقلق راحته ، لولا ... وعاد الى الرسالة الزرقاء ، رسالة السيدة المجهولة التي « اغتنمت فرصة من خلال مشاغل البيت لتكتب له ، وثبتت إعجابها بالحالم » ، وكان نظره ينتقل بين الورقتين كرقاص الساعة : لمن يمنح نفسه ؟ لا يدري ! ... إن الجميع يفعلون هكذا ، ولكن ألم يقل إنه سيمتيز عن « الجميع » ؟ ... وأخيراً ... »

فهرس المجلد الأول

أكتوبر ١٩٤٥ — يناير ١٩٤٦

برنامج ١

دراسات أدبية

أحمد نجيب الهلالي	٢٨	تكاثر الفرسة
طله حسين	٣٣	توفيق الحكيم
صور من المرأة في قصص فولير	٥٢٢	الحلق في الفن
علي أدهم	٨٦	حسن محمود
أبو الطيب المتنبي	٣٣٩	تأملات في مسرحية روسية
علي النجدي ناصف	١٧٠	حسين فوزي
التعقيد في شعر المتنبي	٨٦	عالم الطفولة
كانبي (هنري سايدل)	٣٣٩	سارتر (جان بول)
* نمو الأدب الأمريكي (٢)	١٧٠	* تأميم الأدب (١)
لويس عوض	٣٣٩	سلامه موسى
أوسكار وايلد	١٧٠	ذكريات أول وجداني الذهني
ت. س. إليوت	٣٣٩	سمير القلماوي
ماركيه (رنيه برنار)	١٧٠	صلة الأدب بالحقيقة والواقع
أدب القصة في الاتحاد السوفيتي (٣)	٣٣٩	بين القدماء والمحدثين
محمد كامل حسين	١٧٠	طله حسين
التعقيد في شعر المتنبي	٣٣٩	الأدب العربي بين أمسه وغده
وداد سكاكيني	١٧٠	بول فاليري
السهولة في شعر المتنبي	٣٣٩	شاعر الحب والبغض والحرية
يحيى الخشاب	٣٣٩	استقبال معالي عبد الحميد بدوي باشا في مجمع فؤاد الأول للغة العربية (خطبة الدكتور طله حسين بك
كتابات نثر	٣٣٩	كلمة معالي عبد العزيز فهمي باشا — خطبة معالي عبد الحميد بدوي باشا)

* كل مقال أمامه هذه العلامة كتب خاصة للمجلة بقلم كتاب أوربيين أو أمريكيين .

Jean-Paul Sartre, La nationalisation de la littérature. (١)

The Growth of American Literature, by Henry Seidel Canby. (٢)

René-Bernard Marquet, La littérature soviétique. (٣)

دراسات اجتماعية واقتصادية

بشر فارس	محمد عبد الله عنان
رأى فى تدبير التربة فى لبنان ٥٤٧	دولة إسلامية شيوعية فى القرن الرابع الهجرى ٢٢٢
سلامه موسى	محمد عوض محمد
جورج واشنطن والديمقراطية الأمريكية ٣٦١	من المحيط إلى المحيط ١٣٩
سليمان حزين	محمود عزمى
الحرب والجامعات فى بريطانيا ٥٣	تأميم بنك انجلترا ٣٠٨
مصر حلقة الاتصال بين الشرق والغرب ٣٦٩	تأميم البنوك فى فرنسا ٤٨٢
الجامعة العربية ٥٢٩	مراد كامل
مهير القلماوى	عامان فى الحبشة ٢٠٧
حول خلق آدم ٤٧	تزار سعيد
على آدم	الفرق عاقل . لماذا ؟ ٣٩٠
الثقافة والمجتمع ١٩٧	***
محمد صلاح الدين	* نقل ملكية بنك إنجلترا إلى يد الدولة (١) ٢٥٦
السياسة والتعليم ٤٦٦	

دراسات سياسية

طله حسين	محمد عبد الله عنان
بريطانيا العظمى والشرق الأدنى ١١٥	مستقبل آسيا بعد هزيمة اليابان ٧٩
محمد رفعت	مصر ومصر المستعمرات الإيطالية ٥١٦
مشكلة المضايق ٣٧	محمد عوض محمد
مصر وحيدة قناة السويس ١٥٢	المرح الجديد للسياسة الدولية ٣١٣
مشكلة طنجة ومنافذ البحر المتوسط ٣٣١	***
مشكلة الإسكندرية ٤٧٤	الجمهورية الفرنسية الرابعة ٢٦٣

دراسات علمية

محمد محمود غالى القبلة الثرية وانعدام القدرة ٩٢

The Nationalisation of the Bank of England, by a well-known (١) British Student of Economic History.

دراسات الفنى

اسكندر أسعد

أحمد فكرى

٥٨٢ تمثال الكاتب المصرى ٥٦٩ ماشاء الله

قصص

كاليه (هنرى)

حسين فرج زين الدين

١٨١ * رب إقليم الفلاندر (١) ٣٢٦ الأسماك الجائعة

محمود عزى

طله حسين

٢٤٨ تذكار من القدر ٤٤٩ المذبذبون فى الأرض

٥٧٧ صورة يحيى حتى

شعر

على شوقى

إبراهيم محمد نجبا

٣٥٨ ذكرى الشعب ١٦٠ حيان

محمد عثمان الصمدى

عبد القادر القط

٥٤٣ بين المثالية والطاع البشرية ٦٢ أنت كالناس

محمد مهدى الجواهرى

٣٨٥ غياب

٤٨٦ دجلة فى الحريف عزيز قهصى

وصفى قرنقى

١٠٣ عيد أول ابريل

٥١٤ تاريخ ٢٠٥ الشاعر

شهر يات

شهرية السياسة الدولية (لحمود عزى) ٥٨٥ شهرية المسرح (لسيد قطب) ٥٨٨

من كتب الشرق والغرب

محمد كمال أبو على

أحمد فؤاد الأهوانى

أصول النظام السياسى فى دول

الانسان والعالم فى نظر الراغب

٢٦٦ الشرق والغرب ٤٢٥ الأمفهانى

٥٩٥ أسطورة الحرية فؤاد وصفى أبو الذهب

Henri Calet, Le Dieu des Flandres. (١)

من وراء البحار

فرنسا بعد أن وجدت العالم ووجدنا ١٢١ ، الملك هنري الثامن وزوجاته ٢٧١ ، رأى
في القنبله الذرية ٢٧٣ ، أوربا وحدثها الثقافية ٢٧٤ ، پول سارتر ٤٣٣ ، ماذا في ألمانيا ؟ ٤٣٤ ،
الكلية الامبراطورية بلندن ٦٠١ ، مالرو الفرنسي وسياقوني الايطالي ٦٠٢ ، مستر أنلي ٦٠٣ ، ماذا
في باريس ؟ ٦٠٤ ، أخبار الأدب في باريس ٦٠٥ .

ظهر مدينا

إبراهيم مذكور ومريت غالي	سعيد الأفغاني
الأداة الحكومية ٤٣٧	الاسلام والمرأة ٤٣٨
ابن حزم الأندلسي	سليم حسن بك
المفاضلة بين الصحابة ٦٠٦	الأدب المصري القديم أو أدب الفراعنة ٢٧٩
أبو عبيد البكري	شمس الدين الذهبي
معجم ما استعجم ٢٧٦	عائشة بنت أبي بكر ٤٤٠
أبو العلاء المعري	صلاح لبكي
شروح سقط الزند ٢٧٨	من أعماق الجبل ٦١١
إلياس أبو شبكة	عبد الحليم الجندي
قصر الخير الغربي ٦١٢	أبو حنيفة بطل الحرية والتسامح في الاسلام ٦٠٨
خدوري خدوري ومجيد عبدالله	عبد الرحمن بدوي
خلاصة الفكر السياسي منذ الثورة	الزمان الوجودي ٢٨١
القرنية ٦١٢	من تاريخ الاتحاد في الاسلام ٢٨٣
الدعاية العامة ببغداد	المجمع العلمي العربي
فصل بن الحسين ٤٤١	المهرجان الأثني لأبي العلاء المعري ٦١٣ ..
محمود تيمور فن القصص ٦١٠	

في مجهرات الشرق

أقوى من الفتنة ٢٨٥ ، روقايل بطي ٢٨٥ ، الدكتور تقولا فياض ٣٨٦ ، أبو الطيب
الكندي ٢٨٧ ، مطران في بيروت ٢٨٨ ، الكتاب ٤٤٤ ، أدب العراق في القرون المظلمة ٤٤٤ ،
هل يتخذ الأدب الانسانية ٤٤٥ ، نظرات في شعر المرأة ٤٤٦ ، الأدب العربي والمصريات ٤٤٧ ،
قضية الجلاء والاستقلال ٤٤٨ ، العمل المنتج ٤٤٨ ، الاعلان والشمرة ٦١٥ ، أميتا ٦١٥ ،
فن الأكل ٦١٥ ، شاعر الأمير ٦١٦ ، نعط عتيق ٦١٧ ، عند ما يلتقي الموت والحياة ٦١٧ ،
أمريكا والتراث العربي ٦١٧ ، وادي الزبانية ٦١٨ ، الرسالة الزرقاء ٦١٩ .

ظهر حديثاً



قصص تصور كثيراً من جوانب الحياة المصرية .
فيها صور آلام وأحزان كما فيها صور باسمة ، وفيها ألوان
من بؤس وشقاء كما فيها ألوان زاهية من زهر الربيع .

التم ٢٥ قرناً

